مصطفى صادق الرافعي

كاتباً عربياً ومفكراً إسلامياً

الدكتور مصطفى الشكعه

الأستاذ بكلية الآداب بجامعة عين شمس

وعميدها السابق

١٩٧٨



عالم الكتب

بيروت

مكتبة المتنبي

القاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

مصطفى صادق الرافعي

كاتباً عربياً ومفكراً إسلامياً

الطبعة الأولى ١٩٧٠
الطبعة الثانية ١٩٧٨

عالم الكتب
بيروت

مكتبة المتنبي
القاهرة

مصطفى صادق الرافعي

كاتباً عربياً ومفكراً إسلامياً

الدكتور مصطفى الشكعه
الأستاذ بكلية الآداب بجامعة عين شمس
وعميدها السابق

١٩٧٨

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الثانية

كانت الطبعة الأولى من هذا الكتاب بمثابة هدية الى جامعة بيروت العربية في عيد ميلادها العاشر ، تحية لها ، وإشادة بالرسالة السامية التي قامت على إنجازها خلال تلك السنوات الماضيات ، حيث كانت – وأرجو أن تظل – بمثابة منارة باهرة الضوء رائعة الاشعاع للدراسات الاسلامية في لبنان وعدد غير قليل من البلاد العربية .

وكانت النسخ المطبوعة آنذاك قليلة العدد محدودة الانتشار تهدى إلى الجامعات والمؤسسات العلمية والثقافية ، ومن ثم لم يتح لجمهرة قراء العربية والمتابعين للدراسات الجادة ومحبي الرافعي أن يطلعوا على هذا الجهد المتواضع ، مما حدا بنا إلى أن نعيد طباعته آملين أن يكتب لنا التوفيق في تقديم دراسات أخرى عن بقية آثار الرافعي الأدبية والفكرية التي لم تنل بعد دراسة جادة أو نظرة سوية

والله يوفقنا من فضله إلى سواء السبيل .

مصطفى محمد الشكعة

مصر الجديدة في ٢ من صفر ١٣٩٨ هـ
١١ من يناير ١٩٧٨ م

هذا الكتاب

منذ ثلث قرن على وجه التحديد رحل عن دنيانا الأديب العربي العَلَم مصطفى صادق الرافعي ، واختارت المقادير مدينة طنطا التي عاش فيها أكثر أعوام عمره مستقراً لرفاته ، وثوى الكاتب الكبير في هدوء وسكينة ، وبغير ما جلبة ولا ضجيج ، بعد أن ملأ أسماع العالم العربي لأكثر من خمس وثلاثين سنة بأهازيج الشعر الناعمة حيناً ، وأسباب الجدل والمحاجة والذود عن حمى العربية والدفاع عن حياض الإسلام حيناً آخر .

لقد كان الرافعي أديب الفكرة الإسلامية دون منازع ، في فترة زمنية كان النيل من العقيدة درباً يستهوي كثيراً من أدباء العصر كي يسيروا فيه ، وكان التحامل على اللغة العربية ومحاولة طمس معالمها ظاهرة من مظاهر التجديد حسبما تخيل بعض المتأدبين . وكان الرافعي بحكم نشأته وتربيته وثقافته وقناعته يرى في هذه الاتجاهات معاول هدم وبوادر تعفن في جسم الأمة يجب أن توقف عند حد ، وأن يضرب عليها بشدة ، ومن ثم فقد فرضت عليه طبيعة الأمور أن يخوض معركة قلمية فكرية ضارية أمام أعلام الكتاب آنذاك أمثال الدكتور طه حسين وأحمد لطفي السيد ومحمد حسين هيكل وعباس العقاد وسلامة موسى وغيرهم .

كان الرافعي وحده في جانب — إلا في حالات قليلة — وكان هؤلاء الكتاب جميعاً في الجانب الآخر ، فقسا عليهم كل القسوة واستعمل معهم ألواناً من القول الشديد ضمّنها أفكاره البناءة الناقدة حيناً والموجهة المجادلة حيناً آخر ، وشكل معركة بيانية إسلامية فريدة ربما لم تتكرر كثيراً في مسيرة تاريخ أدبنا وفكرنا منذ عهد بعيد .

ولا شك عندي في أن هـذه الملابسات هي التي حالت بين الرافعي وبين أن يحتفل به على الطريق السويّ الذي يليق بأديب عبقري إسلامي مثله ، لا على المستوى الرسمي ولا على المستوى الفكري ، وإذا استثنينا كتاب الأستاذ سعيد العريان وكتاب الدكتور كال نشأت وبعض الفصول التي أوردها الأستاذ الدكتور محمد محمد حسين عنه في « الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر » لم نجد بعد ذلك شيئاً ذا بال كتب عن الرافعي أديب العربيـة العظيم ولا دراسة جادة محايدة قد أفردت لمدرسته وفلسفته .

ولعلي وأنا أكتب عن الرافعي لا أستطيع إلا أن أعود بكياني إلى أغوار الماضي حـين كنت تلميذاً صغيراً بمدارس مدينة طنطا وكنت كلما مررت على « مقهى لمنوس » في طريقي من المدرسة إلى البيت ألمح رجلاً وقوراً ساكناً حسن الهندام قليل الكلام سارح الفكر وقد أشارت إليه أصابع من هم أكبر مني سناً من أترابي مرددين اسم مصطفى صادق الرافعي أديب العربية الكبير ، ومـا كنت أعلم أن الأقدار سوف تتيح لي أن أعيش مع أفكار هـذا الأديب دارساً أبعادها محللاً أغوارها ، مستنبطاً أحكامهـا ، غائصاً إلى أعماقها مقتنصاً دررها مستخلصاً جوهرها كي أصوغ منها كتاباً يرد إليه بعض حقه وينتصف له من إهمال الذين عمدوا إلى إسدال ستائر كثيفة من النسيان على تاريخـه وجهاده وفكره وعقيدته ومدرسته .

وإذا كنت أعاود التردد على طنطا بلد الرافعي وبلدي التي تنفس هواءها واغتذى بروحانيتها وجاس خلال دروبها وثوى في ترابها ، فإني عاودت كذلك التردد على مدينة طرابلس التي جاء منها حده الكبير والتي لا يزال يعيش في ربوعها فرع كبير من أسرته ، أفئ إلى دوحة التاريخ ، وأستظل بأفياء الحقب ، وأستوحي حضارة الجدود ، ذلـك لأن للتاريخ شميماً ، وللحضارة رحيقاً وللأرض عبيراً ، يعيش كل ذلـك في أعطاف

الزمان ، قد يتبدد بعضه ، ويتبدل جزؤه ، ويتغير جانب منه ، ولكن جوهره يخلد في المكان ، وأكثره يظل حياً في غمار الزمن ، ندياً في رحاب الحقب ، يحدّث عن الماضي ، ويعيش مع الحاضر ، ويشرئبّ الى المستقبل ، مستشرفاً الغايات ، مطلًّا على القرون ، موحياً إلى النفس جوانب الصدق ودروب السداد .

لم أقصد في هذا الكتاب أن أكتب عن الرافعي كتابة تشمل كل إنتاجه الأدبي والفكري ، ولكني عمدت إلى تجلية ناحية بعينها لعلها هي التي أخافت الكثيرين من أن يتصدوا لدراستها وتجليتهـا ، وهي الجانب الإسلامي والسمو البياني في أدب الرافعي ، لأن الرافعي من خلال معالجته هـذين الجانبين اصطدم بكثير من الأدباء الكبار صداماً ترك آثاراً من الجراح التي قـد يطول الزمان قبل أن تندمل أو تبرأ ويصطبر التاريخ قبل أن تزول بعض آثارها ، وكثير من هؤلاء الذين اصطدم بهم الرافعي الأحياء منهم ومن قد قضى ، نكنّ لهم اليوم كثيراً من الإجلال والتقدير بعد أن تغير موقفهم من قضايانا الفكرية والإسلامية ، وأصبحوا سدنـة للفكرة السمحة يعتنقونها ويبشرون بها ويذودون عن حماها .

غير أن التاريخ يعلو على الاشخاص ، والحقائق تسمو عن المجاملات ، ومن ثم فإننا قد وضعنا النقاط على الحروف في كثير من الأحداث الأدبية والمعارك الفكرية التي جاءت في هذا الكتاب ، دون قصد منا أن نسيء إلى أحد أو أن ننبش ماضياً أسدلت عليه من زمن ستائر النسيان وربما سماحة الغفران .

أن هذا الكتاب في فصوله الخمسة يبسط الضوء على أسرة الرافعي في مصر والشام ، ويعرض لثقافة الرافعي ومذاهبه الأدبية والتيارات الفكرية التي واكبت مسيرة حياته ، وكانت تيارات مضطربة هادرة يخرج أكثرها عن الجادة ولا يستقيم لها سير .

وإذا كان الرافعي قد هام بالقرآن حباً وبآداب الإسلام ولوعاً ، فقد جعلنا ثلاثة فصول من هذا الكتاب هي الثاني والثالث والرابع تتناول – على الترتيب – آداب العرب وإعجاز القرآن ، ومعركة النقد المقدس بمراحلها الثلاث ، وأدب المقالة الإسلامية عند الرافعي .

ولقد احتل أدب المقالة الإسلامية مساحة كبيرة من هذا البحث ، ذلك أن الرافعي كاتب المقالة الإسلامية دون منازع ومُبدعها دون منافس ، ولذلك فقد صنّفنا أدب المقالة الإسلامية عنده إلى أربعة اتجاهات هي : المضمون الإسلامي في المقالة الرافعية ، وأدب السياسة الإسلامية ، وأدب المحاجة والجدل ، وأدب العقيدة .

ثم جعلنا الفصل الخامس والأخير من الكتاب عن الأثر الإسلامي للرافعي في أدباء عصره بحيث كان سبباً مباشراً حيناً وغير مباشر حيناً آخر في عودة أكثرهم إلى الجادة .

لقد عاش الكاتب يمجد الفكرة الصالحة ويحارب الفكرة المنحرفة ، غير عابئ بالضرر الذي كان يعود عليه من جراء ذلك ، وكأنه جندي في معركة أبى أن يتخلى عن موقفه في ميدانها مهما كانت آلام الكلوم التي يتعرض لها ، فلما مات الرافعي تآمرت بعض الأقلام على حجب أدبه عن الناس في وقت سودت فيه صفحات كثير من الكتب في تمجيد من هم أقل منه شأناً والاحتفال بمن هم دونه مكانة وقدراً .

إن أدب الرافعي في زماننا هو أدب القوة والبناء ، وهو أدب الصدق والسمو ، وارتياده ضرورة قومية ، والعناية به حقيقة وطنية في وقت وقعت فيها مقادير الأمة تحت ضربات الاستعمار الذي ساعد على وجوده تفتيت قوى شبابنا والنيل من نخوتهم بوسائل نشر الفكر الرخيص المتواطئ والأدب المتهافت المتهاوي المريض – إن جاز أن نسميه أدباً – الذي

تحرص جهات بعينها على نشره وإذاعته عـــلى حساب قوميتنا وتاريخنا وحضارتنا .

فالرافعي — وهذا أدبه وفكره — حريّ بأن يلتفت إليه في نطاق الفكرة الوطنية واللحمة الإسلامية والغيرة العربية ، وجدير بأن يعتنى به رداً لاعتبارنا نحن المفكرين العرب الذين لم نطأطئ الرأس لرياح الشر القادمة من الغرب أو الشرق متقمصة ثوب الأدب مرتدية أقنعـة المدنية متمنطقة كذباً بما أطلق عليه سمات الفكر الحديث .

لعل القدر الرحيم إذن كان يدخر مناسبة رفيعة الشأن في حساب العقل والفكر والثقافة لكي يُحتفـل بالكاتب الكبير من خلالها ، فكانت هذه المناسبة المجيدة التي يحتفل فيها بمرور عشر سنوات على مولد جامعة بيروت العربية ، فيُـكتب فيها عن الرافعي تحيـــة له وذكرى ، وتحية للجامعة العظيمة المنطلقة إلى آفاق جديدة نبيلة في رحاب قداسة العـلم وأصالة البحث ، المستشرفة أسباب المجد العقلي والسؤدد الحضاري والتراث العربي الإنساني ، المتطلعة إلى مستقبل كريم ينتظم هـذه الأمة ، ويأخذ بيد أبنائها ، في إطار من نبـــل الغاية وسياج من طهارة المقصد ، والله الهادي إلى سواء السبيل .

سوق الغرب في ٢٠ يونية ١٩٧٠

د . مصطفى الشكعه



الفهرس

الفصل الاول

الرافعي نشأة وثقافة وزماناً

الفصل الثاني

آداب العرب وإعجاز القرآن

الفصل الثالث

معركة النقد المقدس

الفصل الرابع

المقالة الإسلامية

الفصل الخامس

المصادر

الفصل الأول
الرافعي نشأة وثقافة وزمانا

(١)

نشأته وأسرته :

كانت مصر والشام في القرن الماضي وما سبقه من قرون بلداً واحداً يقيم فيه المواطن حيث شاء ويتنقل في ربوعه أنى أراد ، وكانت الهجرة بينهما أمراً يسيراً ، والانتقال من بلد إلى بلد شيئاً عادياً لا يخضع إلى ما يخضع إليه هذه الأيام من تلك الصعوبات التي خلقها الاستعمار الأوروبي حين بدّد الشمل ، ومزّق الكيان الواحد ، وفتّت الأمة ، وقسّم الارض ، ووضع القيود ، وأقام الحدود ، وجعل من البلد الواحد عدة بلدان ، ومن الوطن الواحد عدة أوطان ، لقد كانت مصر والشام بلداً واحداً فصارت بلدين ، وكان الشام قطراً واحداً فصار أربعة أقطار هي سورية ولبنان وشرق الاردن وفلسطين ، ثم اقتصّ الاستعمار فلسطين من الشام ووهبها لقوم أجانب جاء بهم من بقاع متفرقة من أنحاء الأرض لينشئ لهم وطناً مصطنعاً في قلب العالم العربي .

وهكذا وفي أقل من قرن واحد صار الوطن الواحد أوطاناً عدة ممزقة الأرض رغم اتصالها ، مقطعة الأواصر رغم انتظامها بحيث لا يحق للعربي أن يتنقل بين أجزاء بلده إلا كما يتنقل الغريب سواء بسواء .

كان المواطن آنذاك عربي الوجه والولاء والمشاعر واللسان ، مسلم

الثقافة والهوية والنشأة والكيان ، يحمل جنسية الخلافة التي مهما قيل في الأخطاء التي صدرت عنها كانت تهيئ له من هـذه الارض العربية وطناً واحداً متحد الأطراف موصول الأسباب ، ينتقل بين أقاليمه وأرجائه ، ويستمتع بخيراته وأجوائه ، ويعيش على أرضه وتحت سمائـه في الوقت الذي يريد ، دون سدود أو حدود ، وبغير رقابة ولا رقيب ، لقد كان وطن العرب جميعاً ، وكان وطن المسلمين جميعاً .

وحينما كانت هذه الأوطان وطناً واحداً ، كان الانتقال بينها على صعوبة وسائله وبدائيتها لا يكلف المرء من أمره شططاً ، وكانت الأسرة الواحدة تعيش في ربوعه العريضة . فكان لها فروع عدة ، بعضها في مصر وبعضها في الشام ، والبعض الآخر في العراق أو الجزيرة العربية أو المغرب العربي .

ومصطفى صادق الرافعي بن الشيخ عبد الرزاق بن سعيد بن أحمـد ابن عبد القادر الرافعي واحد من أبناء هذه الأسرة التي قدر لها أن يكون نصفها في مصر ونصفها في لبنان ، فأما القسم الذي في مصر فقد استقر فرع منه في القاهرة بعد طول التجوال ، والفرع الآخر اتخذ من مدينة طنطا مستقراً ومقاماً . وأمـا النصف السوري من الأسرة أو اللبناني حسب التقسيم الحديث لبلاد الشام فإنه يعيش في مدينة طرابلس منذ زمان بعيد ، وإن كان هناك من يذهب إلى أن الأسرة كلها من أصل مصري على ما سنوضح بعد قليل .

على أن الشائع أن أول عهد أسرة الرافعي بمصر كان في أوائل القرن التاسع عشر الميلادي ومنتصف القرن الثالث عشر الهجري ، وعلى وجـه التحديد سنة ١٢٤٣ هـ ١٨٢٧ م حينما هاجر إليها أول رافعي وهو الشيخ محمد طاهر الرافعي الذي وفد من لبنان ثم تبعه آخرون من أسرته التي عرفت بالعلم والأدب والتدين ، وانسلك عدد كبير من أفرادها في سلك القضاء الشرعي بصفة خاصة بالمحاكم المصرية .

وأفراد أسرة الرافعي سواء منهم هؤلاء الذين عاشوا ويعيشون في مصر ،

أو أولئك الذين عاشوا ويعيشون في طرابلس لبنان معروفون بحب العلم وتنشئة أبنائهم عليه ، وتعشق الثقافة وتعويد أبنائهم على التعلق بها . لقد كان عـدد غير قليل من رجال « الرافعيين » المصريين يتولون أمر القضاء الشرعي الأمر الذي لفت نظر عميـد الاستعمار البريطاني في مصر اللورد كرومر ، وربما أدخـل الفزع إلى قلبه ، ومن هؤلاء الشيخ عبد الرزاق ابن سعيد والد مصطفى ومنهم أعمامه الذين من بينهم الشيخ عبد اللطيف الرافعي الذي ولي الافتاء في الاسكندرية والذي أنجب للصحافة والسياسة علماً من أعلامها هو أمين الرافعي وخلف للقانون وعلم التاريخ ولده الثاني عبد الرحمن الرافعي . وبالمثل كان عدد آخر من أفراد أسرة الرافعي اللبنانيين يتولون القضاء والإفتاء في طرابلس ، منهم رأس الأسرة الشيخ عبد القادر الرافعي المتوفي ١٢٣٠ هـ — ١٨١٥ م والشيخ عبد الغني الرافعي الذي توفي في أواخر القرن الماضي والدكتور الشيخ مصطفى الرافعي الذي ترك القضاء وعمل بسفارة لبنان بالقاهرة .

والأسرة الرافعية بشقيها في مصر ولبنان منجبة للأعلام المشهورين في محيط الأدب وعلوم الدين والقضاء والسياسة ، وهو أمر قلما يتاح إلا للقليل من الأسر ، ونحن نستطيـع أن نحصي ستة منهم دخلوا التاريخ خلال قرن واحد أو خلال قرن ونيف .

فمن أعلام أسرة الرافعي المصريين مصطفى صادق موضوع هذا البحث ، ومنهم أمين الرافعي الزعيم الصحفي المجاهد وأحـد عمد الحزب الوطني وزميل مصطفى كامل ومحمد فريد ، والذي يعتبر لقوة حجته واستقلال فكره واحداً من ألمـع الكتاب السياسيين المصريين الذين ملأت مقالاتهم كثيراً من أعمدة الصحف الكبيرة مثل اللواء والعلم والشعب والأخبار ، وألف بعض الكتب مثل « مفاوضات الانجليز » و « مذكرات سائح » . ومن الرافعيين المصريين عبد الرحمن الرافعي المحامي السياسي شيخ المؤرخين المعاصرين وواحد من أشهر من كتبوا تاريخ مصر في العصر الحديث .

ومن أعلام أسرة الرافعي الطرابلسيين العالم الكبير الشيخ عبد القادر الرافعي رأس الأسرة، والشاعر المبدع عبد الحميد بن عبد الغني بن أحمد الرافعي، وهو كما يبدو من اسمه الكامل ابن عم والد مصطفى صادق. لقد كان عبد الحميد من سمو المكانة في الشعر بحيث لقب ببلبل سورية، وكان أزهري الثقافة تركي التعليم، فقد التحق بالأزهر ثم أكمل تعليمه في كلية الحقوق بالآستانة، وله عدة دواوين من الشعر الرصين من بينها: الأفلاذ الزبرجدية في مدح العترة النبوية، والمنهل الأصفى في خواطر المنفى. وتوفي سنة ١٩٣٢ وهي نفس السنة التي توفي فيها شوقي أمير الشعراء في العصر الحديث، ولولا انقطاع عبد الحميد لمدح أسرة بعينها لكان من أفضل شعراء زماننا وقد امتدح شوقي شاعريته حين أسهم في حفل تكريمه بقصيدة عينية قال فيها:

أعرني النجم أو هب لي يراعا	يزيد الرافعين ارتفاعاً
تأمل شمسهم وهدى ضحاهم	تجد في كل ناحية شعاعا

ومن أعلام الرافعيين الطرابلسيين أيضاً الشيخ عبد الغني بن أحمد والد عبد الحميد وعم والد مصطفى صادق، وكان عالماً جليلاً وفقيهاً مرموقاً من فقهاء الحنفية، ولي الإفتاء في طرابلس، والقضاء في تعز اليمن وأخيراً رئاسة الاستئناف في صنعاء، ولكنه انقطع للعبادة بمكة في آخر أيامه وتوفي بها سنة ١٨٩١ م بعد أن ترك عدة كتب في الأدب والفقه والتصوف.

على أن الرافعي الكبير وجد الرافعيين جميعاً هو العالم الفاضل الشيخ عبد القادر بن عبد اللطيف بن عمر بن أبي بكر البيساري المتوفى سنة ١٨١٥ م. لقد ولد الشيخ عبد القادر بطرابلس وتوفي بها لكنه تعلم في مصر، وكان أديباً شاعراً، كتب مقامة طريفة في المفاخرة بين حمص وحماه، وله تشطير للبردة النبوية، والزهر النضير في مدح طه البشير، ونيل المراد في تشطير الهمزية وبانت سعاد. ومن الطريف أن الشيخ عبد القادر هو أول من تلقب بالرافعي من الأسرة، وكانت الأسرة تعرف قبل ذلك

بالبيسارية والنسبة للفرد بيساري ويقول الزركلي[1] أن التسمية نسبة إلى بيساره وهي قرية من قرى أسيوط بمصر ، وإذا صح ذلك فإن أسرة الرافعي تكون مصرية الأصل قبل أن تصير سورية الإقامة .

وإذن فلمصطفى صادق الرافعي انتماء أصيل في أسرة تصنع المجد فتسعى الشهرة إليها ، لنباهة في أبنائها وأصالة في أفرادها ، لا يغير من الأمر شيئاً اختلاف مكان العيش وابتعاد مدن الإقامة ، يستوي في ذلك من يقيمون في مصر أو لبنان ومن يعيشون في طنطا أو القاهرة أو طرابلس .

وإذا كانت مدينة طنطا قد استحوزت على الفترة الخصبة المنتجة من حياة مصطفى صادق الرافعي الفكرية والأدبية ، فإنه لم يولد بها كما ذكرت خطأ بعض المراجع[2] ، وإنما ولد بقرية بهتيم بمحافظة القليوبية غير بعيد عن القاهرة سنة ١٨٨٠ م ، وأخذ ينتقل مع والده القاضي الشيخ عبد الرزاق الرافعي من بلد إلى بلد حتى انتهى بأبيه المقام في مدينة طنطا ، وفيها قضى الأب بقية عمره ، وفيها أيضاً عاش مصطفى كل حياته الأدبية إلى أن انتقل إلى رحمة الله ووارى ترابها جدثه في ١٠ مايو سنة ١٩٣٧ م وكان في السابعة والخمسين من عمره بعد حياة حافلة بالتحصيل والنضال والإنتاج السخي والعطاء الوفير .

والحق أن مصطفى صادق الرافعي قد تهيأ له من أسباب التكوين الديني والفكري والأدبي في إطار عصاميته الفذة ما جعل منه ذلك الأديب المرموق برغم أنه لم يحصل على مؤهل دراسي رسمي ، ولكن علمه وسعة اطلاعه وملكاته الأدبية قد دفعت به إلى مرتبة من الطموح جعلته يعد نفسه لكي يكون أستاذاً للأدب العربي بالجامعة المصرية ، ولعل تأليفه

---

(١) الاعلام ١٦٥/٤ – مادة عبد القادر الرافعي .

(٢) ذكر الزركلي خطأ أنه الرافعي ولد وتوفي في طنطا .

كتاب « تاريخ آداب العرب » كان مرقاة يسعى بارتقائها إلى تدريس الأدب في الجامعة وإن لم تسمح الظروف له بذلك . كما أن فضله وتدينه وتبحره في علوم القرآن وفروع اللغة قد صقلت موهبته ونمت شخصيته بالقدر الذي جعلت منه عميداً لكتاب المقالة الإسلامية والفكرة الدينية ، ومحامي الحضارة الإسلامية وأساليب البيان العربية .

(٢)

ثقافة الرافعي ومذاهبه الأدبية :

لقد نمت الملكة الأدبية عند الرافعي مبكرة خصيبة في نطاق الشعر ، وإذا كان لا بد للشاعر من أن يهذب شاعريته وينميها بالقراءات المتعددة الألوان ، المتشعبة الموضوعات ، فقد عمد الرافعي إلى ذلك يثري معلوماته اللغوية بحفظ القرآن الكريم والأحاديث النبوية ، ومواقف الأعــلام في التاريخ الإسلامي وحفظ أكبر قدر من شعر القدامى والمحدثين وخطب العرب ومحاوراتهم ومنافراتهم في الجاهلية ، ودررهم الخطابية في الإسلام .

لقد كانت هذه الثقافة بإطارها هذا الذي ذكرنا هي التي خلقت عند الرافعي نظرية المزج بين اللغة والدين ، فكل من يحاول الاعتداء على اللغة أو الغضّ من شأنها أو النيل من قدرها ، فإنمـا هو يحارب الإسلام علناً أو استتاراً ، وهي نظرية أثبتت الأيام صحتها ، فالعربية هي لغة القرآن الكريم أكثر الكتب السماوية قداسة وأعظمها هــداية وأبلغها إعجازاً ، والعربية هي لغة الحضارة الإسلامية التي عمت نصف الكرة الأرضية لعدة قرون من الزمان ، ابتدأت بالقرن الثامن الميلادي وانتهت عند القرن الرابع عشر ، وهذه الحضارة الإسلامية نفسها هي التي تلقفها الأوربيون : فكراً وطباً وصيدلة وفلكاً ورياضيات ، وكيمياء وفيزياء وغيرها ، ودرسوها في جامعاتهم أول الأمر بلغتها العربية ثم كبر عليهم الأمر فترجموها إلى اللاتينية ، ولكنها مع ذلك وفي لغة غير العرب ظلت تدرس في الجامعات

لمئات من السنين ، لم يغير من معدنها العربي الإسلامي أنها كانت تدرس بلغة أخرى غير لغة العرب أو لغات المسلمين .

في نطاق هذه الفكرة وفي سياج من هذه الثقافة تكاملت شخصية الرافعي الأديب الكاتب ذي القلم المرهف الذي كان بلسماً للمخلصين من قراء العربية ومنشئيها ، وسماً قاتلاً على أعدائها والكائدين لها .

على أن ثقافة الرافعي الواسعة العميقة وملكته الخصبة المؤاتية قد أتاحت له أن يسهم في كل فن من فنون القول العربي بنصيب ، وكل لمحة من لمحات الفكر الإسلامي بقدر ذي قيمة وخطر وأثر ، فقد كان الرافعي شاعراً مبدعاً وكاتباً بارعاً ، وكان مؤرخاً عميق الفهم لفلسفة التاريخ وقضايا الأدب ، كما كان ناقداً غلبت عليه حدة القول وعنفوان التناول ، ولكنه في نفس الوقت كان ثاقب النظرة لماح الخاطر وافر الإنتاج[1] ثم هو لغوي يفهم سر العربية التي أسلست له قيادها طوعاً وحباً ، فكانت جملته فصيحة محتوى الألفاظ ، مشرقة سبك الديباجة ، ثرية مناهل المعاني ، رشيقة فصائل المضمون .

والرافعي إلى ذلك كله أصيل الفكرة في ميدان الإصلاح الاجتماعي ، المستمد من استقامة تفكيره ، المنطلق من ثقافة دينية ربطت في سماحة ويسر بين السلوك الاجتماعي والأدب الديني ، وهو في كتاباته التي عالج فيها هذا الموضوع يختلف عنه حينما يكون الموضوع الذي يكتب فيه دفاعاً عن اللغة أو تصدياً لمن يريد أن ينال من عاداتنا وقيمنا الموروثة عن السلف.

---

(١) راجع مقالاته في النقد في الجزء الثالث من وحي القلم : الأدب والأديب ص ٢٤٦ ، سر النبوغ في الأدب ٢٥٨ ، نقد الشعر وفلسفته ٢٧٣ ، شعر صبري ٣٠٢ ، حافظ ابراهيم ٣١٦ ، شوقي ، ٣٤٤ ، بعد شوقي ٣٦٥ ، الشعر العربي في خمسين سنة ٣٧٢ ، رأي جديد في كتب الأدب القديم ٤٠٦ ، أمير الشعر في العصر القديم ٤١٥ ، الملاح التائه ٤٢٣ ، ديوان الأعشاب ٤٣٥ ، وراجع أيضاً كتابه « على السفود » وإن كنت لا أرضى عن بعض ما حواه أسلوبه .

وإن نظرة الى مقالاته « الطائشة » و « قصة زواج وفلسفة المهر » و « استنوق الجمل » و « الجمال البائس » وغيرها من مقالاته الاجتماعية لتكشف لنا صورة للرافعي جديدة جميلة تحمل في أعطافها إشارة واضحة إلى مصلح اجتماعي من طراز فريد ، ناقش مشكلات زمنه بفهم عميق ، وتناولها بسلاسة ويسر استعصيا على كثيرين من معاصريه مفكرين وكتاباً ومصلحين .

ولعل أفكاره البكر المتأبية على غيره من أترابه في هذا الميدان قد أودعها كتابه « المساكين » الذي بهر به مفكري زمانه مثل العقاد وأحمد زكي باشا وكثرة وافرة من الذين قرأوه بإحساس محايد بعيد عن الحسد والبغضاء فلم يخفوا إعجابهم بأسلوبه ومحتواه .

على أننا ونحن نتحدث عن الرافعي الكاتب لا يجمل بنا أن نغفل الإشارة إلى الرافعي الشاعر ، ذلك لأن الرافعي بدأ شاعراً وانتهى كاتباً ، وقد لا نجاوز حدود الصواب إذا قلنا إن الرافعي ربما خطر بباله أن يكون ذات يوم أميراً على الشعراء ، بل إنه كان في يوم ما شاعر الملك ثم غضب لكرامته حينما تصور أن تصرفاً ما صدر عن ناظر الخاصة الملكية في حقه قد مس كبرياءه ، فأسمع رجل القصر الكبير ما لم يكن يتوقعه من مواطن متواضع الحال كمصطفى صادق الرافعي ، وكان طبيعياً أن يحرم من لقب « شاعر الملك » وأن يصادف بسبب ذلك كثيراً من المتاعب الاجتماعية والمالية ، غير أن مصطفى صادق الرافعي الشديد الاعتزاز بكرامته كان يضع نفسه حيث يرى أنها أهل له ، لا حيث يرى بعض الجاهلين ، فقد عامله بعض الناس على أنه كاتب محكمة طنطا ، وعامله قوم آخرون كما عامل هو نفسه ، إماماً لمدرسة الأدب المتماسك ، وكاتباً للفكرة الإسلامية في أدبنا المعاصر ، وربما كانت بعض المضايقات التي تعرض لها — ولم يكن أهلاً لأن يضايق — هي التي جعلته يكتب بيتيه اللذين حملهما كل ما في طاقة نفسه من سخط حين قال :

وما أنتِ يا مصرُ دار الأديب   وما أنتِ بالبلدِ الطيبِ
وكم فيكِ يا مصرُ من كاتبٍ   أقال اليراعَ ولم يكتبِ

لقد تعرض الرافعي بسبب هذين البيتين لكثير من الحملات في زمانه، فقد كان حاسدوه من الكثرة وشدة الحفيظة عليه بحيث يلتمسون له الهفوات ثم يجسمونها ويطلقونها من خلال أبواق عالية مسموعة، بل إن بين الدارسين المحدثين ممن لم يزنوا قيمة الرافعي حق الوزن لا يزالون يمسكون بخناقه بسبب هذين البيتين وما درى هؤلاء وأولئك أن الرافعي قال البيتين في زمان يختلف كل الاختلاف عن زمانهم هذا الذي نعيش فيه، وفرق كبير بين مصر المستعبدة يومئذٍ، ومصر المستقلة في أيامنا، وليس الرافعي في حاجة لمن يدفع عنه هذه التهمة فقد كتب عن مصر شعراً لم يكتبه غيره في أناشيده الرائعة العديدة الشهيرة مثل نشيد :

حماة الحمى يا حماة الحمى   هلموا هلموا لمجد الزمنْ
فقد صرخت في العروق الدما   نموت نموت ويحيا الوطن

ونشيد

اسلمي يا مصر إنني الفدا   ذي يدي إن مدت الدنيا يدا

ونشيد

إلى العلا إلى العلا بني الوطن   إلى العلا كل فتاة وفتى

والرافعي — كشاعر — طرق أبواب الشعر المختلفة من تقليدية ومحدثة وهو في كل ذلك مهتاج النفس وافر الموسيقى رائع البيان. إنه يعمد إلى الكتابة في فلسفة تربية اليافعين فيقول :

لكل فتى من الدنيا كمالُ   فما نقص الورى إلا الفعالُ
ومن لم يرشدوه في صباهُ   تحكّم في شبيبته الضلالُ
فما قلبُ الصغير سوى كتابٍ   تسطّر في صحائفه الخلالُ

وأديبنا لم يطرق المشاكل الاجتماعية كاتباً وحسب ، وإنما طرقها في مستهل حياته شاعراً ، لقد كانت عادة زواج الشيوخ المسنين من الصبايا الصغار ظاهرة شائعة في الأجيال الماضية ولم تكن الفتيات يرحبن بمثل هذا الزواج غير المتكافئ ، فكتب الرافعي قصيدة عذبة في هذه المشكلة الاجتماعية تصور حواراً بين الشيخ المسن الراغب والفتاة الشابة المتأبية يقول فيها :

جاءها خاطباً وبين يديه	قام عزريل واعظاً وخطيبا
وتصدى لها فصدت وقالت :	قَبُحَ الشيخ أن يكون حبيبا
قال : هذا المشيب نورٌ ، فقالت	أوقدوا في السراج هذا المشيبا
قال : إني أبو العجائب ، قالت	وعجيبٌ ألا تكون عجيبا

يا أبا الهول ، يا أخا الهرم الأكبر حسبي فقد كفاك عيوبا

يا نذير المهات يا وجعة القلب	متى كنت للقلوب طبيبا ؟
أنت كالبدر غير أنك ممحوق	وكالشمس أوشكت أن تغيبا

وانبهاراً بكل جديد في الحياة ينفعل الرافعي بقطار السكة الحديدية تماماً كما انفعل به غيره من شعراء زمانه ، ولعل قصيدة معروف الرصافي في القطار كانت على زمانه أشهر ما قيل في الموضوع ، ولكن قصيدة الرافعي أرق ما قيل في نفس الموضوع ، فهو يقول في القطار وقد غلبت شفافية الشاعر فيه على مادية المراقب :

ليس في قلبه سوى الشوق لكن	كتم الدمع فاستحال بخارا
وإذا صاح صيحة البين فينا	ترك العاشقين طرًّا حيارى
سار يطوي جوانب الارض طيّا	ولو اسطاع أن يطير لطارا
كزمان الصبا ونومي إذا نمت	وطيف الحبيب ليلة زارا
أو كمعنى يمر بالفكر لا ينقا	د أو مثل خاطري لا يجارى
يا شبيه الدجى إذا غابت الشمس	انطلق سالماً وُقيت العثارا

ولا يظن ظان أن الرافعي لفرط جديته في الحياة ورهبنته في محراب لغة القرآن ورحاب التدين ، كان متعسفاً في حياته متشدداً في أحاسيسه غليظاً مع نفسه ومع الناس ، لقد كان الرافعي يحمل قلباً بين جنبيه أرق من أنداء الصباح ، وروحاً أنقى من حياء العذارى ، لقد كان الرافعي محباً عاشقاً ، وليس سراً أنه كان واحداً من العشاق الكثيرين الذين هاموا صبابة بالأديبة « ماري زيادة » التي عرفت باسم « مي » مثله في حبها مثل العقاد وصبري ومطران وجبران وقيل أيضاً منصور فهمي وطه حسين ، ولعل حب « مي » كان سنة العصر وتقليد الجيـــل ، والطريف أن كل واحد من هؤلاء الكبار العاشقين كان يظن أنه الوحيد المستأثر بحبها المتربع على عرش قلب الأديبة الذكية الفانية صاحبة « الصالون » الكبير .

لقد قص عليَّ صديقي المرحوم محمد سعيد العريان أن الرافعي كان متماسكاً في حبه لمي ، وقوراً في صلته بها ، لا يترخص أو يصطنع الظرف ولا يتهافت أو ينافق تقرّباً إليهـا كما كان يفعل غيره من العاشقين ، ثم حدث منها ما جعله يغضب لكرامته فانصرف عن مجلسها وقاطعها عشر سنين ، وذات يوم طلب الرافعي منه أن يصاحبه إلى بيت مي ، فقــد قرر أن يزورها ويجدد ماضي صلته بها . ويستطرد المرحوم العريان فيقول : لقد تأنق الرافعي في ذلك اليوم أناقة ملحوظة ، وأمسك بعصاه إمساك الشباب الفتيان لا إمساك الكهول المتهالكين ، وظللنا نضرب في الأرض سعياً إلى دارها ، وكلما قربت الدار تباطأ الرافعي في مشيته ، حتى إذا وصلنا إليها قال الأديب الكبير : لا يا سعيد سوف لا أصعد إلى زيارتها ، لقد مرت على آخر لقاء بيننا عشرة أعوام طوال ، لا شك أنها غيرت مني وغيرت منها ، وأخشى أن ينكر كل منا صاحبه بفعل السنين وإني أريد أن يحتفظ كل منا للآخر بصورة الشباب الوضيئة ، ويستطرد العريان قائلاً : وانصرفنا عائدين ، وإلى حيث كنا قافلين .

وقصة حب الرافعي ومي قصة طويلة أثارت جدلاً كثيراً بين الكتاب

اختلفت وقائعها وتضاربت رواياتها[1] ، ولكن الذي لا شك فيه أن الأديبة السورية ألهمت الرافعي كثيراً من روائع شعره مثل قوله :

ها أنت « مريم » والهوى عيسى وعيسى كان ردّ الروح من آياته
قولي لكاهنك الذي قـدّسته قولاً وعودي فاسمعي لصلاته
فلسوف يزعم أنهـا في آية نزلت من الإنجيل أو توراتـه

لقد كان الرافعي عاشقاً من طراز جديد يضع كرامته إلى جانب قلبه لا يفترق أحدهما عن الآخر ، فـلا غرو إذن أن يخلف لنا شعراً غزلياً عذباً رائقاً يفيض بالرقة والنقاء كما هو الحال في قوله :

قلبي يحب وإنمـا أخلاقه فيه ودينـه

أو قوله :

يا من لنضوٍ طريـح مجمّـع من حطامِ
بقيـة من سـلوّ عـلى بقـايا غرامِ
وقطعـة من جفـاءٍ في قطعةٍ من سلامِ
أضيء كالنجم لكـنْ في وحـدةٍ وظلامِ
ومـا أكابد ناراً يروه نوراً أمـامي
ما نفع رقـة روحي تندي كطل الغمامِ
وكل مـا هو حولي كحلقِ عطشان ظامي

* * *

يا واصلا بالمعـاني وهاجري في الكلامِ
مخـاصمي في نهاري مصالحي في منـامي
من العبوس كـلام معنـاه معنى ابتسامِ
ولن يغير جسم الـ ـسواد ثوب الخصامِ

---

(١) راجع الرسالة أعداد ١٩٤٧

ما نفع رقـة روحي تندي كطـلّ الغمامِ
وكلّ مـا هو حولي كحلقِ عطشان ظامي

ولا ينسى الرافعي أنـه مرتبط بالشام ارتباط الدم والأرض والوطن الكبير ، وربما ارتباط القلب أيضاً ، وهو لذلك لم ينسَ الشام في شعره ، فأنشأ القصائد الرقيقة والأبيات الأخاذة في ذكرها ، فيقول في الحنين إلى طرابلس لبنان[1]:

فيـا طرابُلس حيتـكِ المنى بلداً بي من هوى الحسن فيك فوق ما أصفُ
أحسّ بين ضلوعي كلما خطرتْ ذكراك أنّ إليكِ القلبَ ينعطفُ

ويقول من قصيدة بعنوان مصر والشام[2]:

يا نسمة النيـل مرّي بالسلام على نسيم وادي الهوى من أرض لبنانِ
قلبي يرفّ رفيف الطـير بينكما كأنمـا أنـتما فيـه جناحانِ

على أن الرافعي لا ينسى التعبير عن ذاتـه في شعره حين يردد دائماً إباءه وترفعه عن الصغائر وعفته وسمو نفسه وارتباطه بالمعاني السامية والقيم الخلقية التي تشكل قيداً يرتضيه ويفخر به[3]:

يا نفس ويحك أرضي الجدّ منك فتًى ماضي العزيمـة وثاب فمقتحِمُ
لا تعرضي لي لذات الهوى أبـداً ما للهوى في لساني « لا » ولا « نعمُ »
مـا لذتي أنا إلا أن أكون فتى كما يرفرف في أعلى الذرى عـلمُ
أنا المقيـد في نفسي وفي خلقي كأنني قيـد حرّ قيـده القسمُ
شتان بـين امرئٍ في نفسه حرمٌ قدسٌ وبين امرئٍ في نفسه صنمُ

---

(١) ديوان النظرات ٦١/١ (٢) الهلال يونيه ١٩٢١ (٣) المقتطف يناير ١٩٢٧

وهو فخور كل الفخر بنسبته إلى أمير المؤمنين عمر وهو لا يخفي هذا الفخر بل يدلّ بـه حتى في مقام الرثاء ، لقد رثى والده فذكر عمر في مرثيته واصفاً أباه باكياً مناقبه[1]:

تروعك منه هيبـــةٌ عمريّـــة	وحسبك مَنْ أمسى له عُمَرٌ جدّا
فجاء كحدّ السيف يهتزّ مصلتاً	يدُ الله منه وحدها سنّت الحدّا
كما اعتصرتـــه أنفسٌ عربيـــة	رماحاً وأسيافاً وألسنـــة لدّا
ومن كان في التاريخ لحدُ جدوده	تجدّه من التاريخ قـد ورد المهدا

لقد كان كبار الكتاب في العصور الأدبية الزاهرة يسهمون في تعاطي الشعر ظناً منهم أنه لا تكتمل للأديب أسباب الامتياز إلا إذا جمع إلى كتابة النثر قول الشعر ، ولكن شعرهم رغم ما كان فيه من سمات جمال لم يرتفع قدره إلى مقـام شعر الشعراء المتفرغين ولذلك كان يطلق عليه شعر الكتاب ، وليس كذلك شعر الرافعي رغم أن شهرته ككاتب غلبت صيته كشاعر ، ولعـل السبب الحقيقي في ذلك موهبة أصيلة وإحساس مرهف واستعداد كامل صادف أرضاً خصبة فأينع وأثمر خير الثمرات ، كما لا يغربن عن البال في هـــذا السبيل أن الرافعي بدأ شاعراً متفرغاً للشعر غير كلف بالكتابة كل الكلف ، ثم غلبت عليه فأكثر منها وأقلل من الشعر ، فكان في نطاق الحسبان كاتباً أكثر منه شاعراً .

وإذا كان موضوع هذا البحث يتعلق بكتابة الرافعي بصفة خاصة ، فإنه من تحصيل الحاصل أن نسجل أن كاتبنا كان مدرسة وحــده ، ولا اعتراض أيضاً على أنه كان إمام مدرسة التجويد في الفكرة والأسلوب ، لقد كان كذلك حقاً ، ولكن مـع التزام الصفة الإسلامية والمحافظة على

---

(١) قصيدته « أبي » المقتطف سبتمبر ١٩١٩

الجملة القرآنية ، لأنه بالإضافة إلى تربيته الإسلامية قد عاصر المحاولات الكثيرة المتعددة الحيل للنيل من اللغة العربية أو محوها واستبدال العامية بها على ما سوف نوضح فيما يستقبل من صفحات .

نقول إن للرافعي فلسفة خاصة ومذهباً محدداً في فن الكتابة وأسلوبها أبانها بوضوح في صدر الجزء الأول من وحي القلم بعنوان « البيان »[١]. وهو في مقاله هذا يقدم لنا في وضوح مذهبه في صناعة الكتابة ، فيقول :

« لا وجود للمقالة البيانية إلا في المعاني التي اشتملت عليها ، يقيمها الكاتب على حدود ويديرها على طريقة ، مصيباً بألفاظه مواقع الشعور ، مثيراً بها مكامن الخيال ، آخذاً بوزن ، تاركاً بوزن ، لتأخذ النفس كما تشاء وتترك » .

« ونقل حقائق الدنيا نقلاً صحيحاً إلى الكتابة أو الشعر ، هو انتزاعها من الحياة في أسلوب ، وإظهارها للحياة في أسلوب آخر يكون أوفى وأدق وأجمل ، لوضعه كل شيء في خاص معناه ، وكشفه حقائق الدنيا تحت ظاهرها الملتبس ، وتلك هي الصناعة الفنية الكاملة : تستدرك النقص فتتمه ، وتتناول السر المقيد فتطلقه ، وتأخذ المطلق فتحدّه ، وتكشف الجمال فتظهره ، وترفع الحياة درجة في المعنى ، وتجعل الكلام كأنه وجد لنفسه عقلاً يعيش به » .

هذا ما كان من أمر فلسفة المقالة البيانية عند الرافعي ، فما هو دور كاتب المقالة نفسها وما هي حدوده وانطلاقاته وإنجازاته ؟ يقول الرافعي :

---

(١) كان الرافعي قد بعث بكتابه وحي القلم إلى الأستاذ أحمد حسن الزيات « صاحب الرسالة » ليكتب له مقدمة ، وظل الكتاب عند الزيات شهوراً طويلة دون أن يكتب المقدمة المرجوة ، ولعله تخوف من كتابة مقدمة للرافعي يشيد فيها بعبقريته في الكتابة فيغضب بذلك بعض من لا يرغب في إغضابهم من خصوم الرافعي الذين يسهمون في تحرير « الرسالة » فاسترد الرافعي كتابه وكتب بنفسه مقدمة في فلسفة الكتابة بعنوان « البيان » .

« فالكاتب الحق لا يكتب ليكتب ، ولكنه أداة في يد القوة المصورة لهذا الوجود تصور به شيئاً من أعمالنا فناً من التصوير » .

« الحكمة الغامضة تريده على التفسير : تفسير الحقيقة ، والخطأ الظاهر يريده على التبيين : تبيين الصواب ، والفوضى المائجة تسأله الإقرار : إقرار التناسب ، وما وراء الحياة تتخذ من فكره صلة بالحياة ، والدنيا كلها تنتقل فيه مرحلة نفسية لتعلو به أو تنزل » .

ويقف الرافعي من الكاتب – أي كاتب – موقف الأستاذ من التلميذ ، وكأنه عبد الحميد بن يحيي يدبج رسالته المشهورة الى الكتاب . يقول الرافعي :

« وإذا اختير الكاتب لرسالة ما ، شعر بقوة تفرض نفسها عليه ، منها سناد رأيه ، ومنها إقامة برهانه ، ومنها جمال ما يأتي به ، فيكون إنساناً لأعماله وأعمالها جميعاً ، له بنفسه وجود وله بها وجود آخر ، ومن ثم يصبح عالماً بعناصره للخير أو الشر كما يوجه ، ويلقى فيه مثل السر الذي يُلقى في الشجرة لإخراج ثمرها بعمل طبيعي يرى سهلاً كل السهل حين يتم ، ولكنه صعب أي صعب حين يبدأ » .

وإذ قد انتهى الرافعي من الإشارة إلى فلسفة المقالة ، وتوجيه الكاتب إلى درب النبوغ يصل بنا إلى العبارة الفنية التي من مجموعها على قلم الكاتب يكون المقال ، ويبين الفرق بين المقال العلمي والمقال البياني فيقول :

« ودورة العبارة الفنية في نفس الكاتب البياني دورة خلق وتركيب ، تخرج بها الألفاظ أكبر مما هي ، كأنها شبّت في نفسه شباباً ، وأقوى مما هي ، كأنما كسبت من روحه قوة ، وأدلّ مما هي ، كأنما زاد فيها بصناعته زيادة ، فالكاتب العلمي تمر اللغة منه في ذاكرة وتخرج كما دخلت ، عليها طابع واضعيها ، ولكنها من الكاتب البياني تمر في مصنع ، وتخرج

عليها طابعه هو ، أولئك أزاحوا اللغة عن مرتبة سامية ، وهؤلاء علوا بها إلى أسمى مراتبها ، وأنت مع الأولين بالفكر ، ولا شيء إلا الفكر والنظر والحكم ، غير أنك مع ذي الحاسة البيانية لا تكون إلا بمجموع ما فيك من قوة الفكر والخيال والإحساس والعاطفة والرأي » .

« وللكتابة التامة المقيدة مثلُ الوجهين في خلق الناس ، ففي كل الوجوه تركيب تام تقوم به منفعة الحياة ، ولكن الوجه المنفرد يجمع إلى تمام جمال الخلق ، ويزيد على منفعة الحياة لذة الحياة ، وهو لذلك وبذلك ، يرى ويؤثر ويعشق » .

تلك هي عناصر فن الكتابة البيانية عند الرافعي ، وأما الوجه الإسلامي لمقالته فسوف يأتي في أمكنته من هذا البحث .

هذا وقد ترك الرافعي — برغم حياته القصيرة نسبياً — تراثاً أدبياً وفيراً أضاف به إلى المكتبة العربية كثيراً مما تعتز به ، ففي مجال الشعر خلف ديوانين ، الأول تحت عنوان « ديوان الرافعي » ويقع في ثلاثة أجزاء ، والثاني يحمل عنوان « ديوان النظرات » .

وفي ميدان الأبحاث الأدبية ترك الرافعي كتابه المشهور : تاريخ آداب اللغة العربية من ثلاثة أجزاء ، غير أن الجزء الثاني منه يحمل اسماً مغايراً لعنوان الكتاب لاختصاصه بموضوع إعجاز القرآن الكريم ، ومن بحوثه الأدبية الشهيرة أيضاً كتابه : المعركة تحت راية القرآن .

وللرافعي كتب أخرى ضمنها خطرات نفسه وخفقات مشاعره كأديب مرهف الحس هي : حديث القمر ، رسائل الأحزان ، السحاب الأحمر ، أوراق الورد ، المساكين .

أما مقالات الرافعي فقد جمعت في كتاب « وحي القلم » وهو من ثلاثة أجزاء .

هذا وللرافعي آثار أدبية أخرى لم تنشر بعد مثل قصائده التي قالها منذ عـــام ١٩٠٨ الى حين وفاته سنة ١٩٣٧ ويمكن أن تؤلف ديواناً كبيراً ، وكذلك ديوان أغاني الشعب وكتاب ملكة الإنشاء الذي يشتمل على نماذج لتعليم الناشئة .

(٣)

الرافعي زماناً :

كانت مجموعة كبيرة من الكتاب في مصر – وأكثر كتاب تلك الحقبة كانوا مصريين أو عرباً يعيشون في مصر – تناصب العربية العداء وقد لا نكون مبالغين إذا قلنا أنهم كانوا أيضاً يناصبون الإسلام العداء ، ونحن نستطيع أن نحصي أسماءهم ، ولكننا لا نفعل إلا متى دعت الضرورة إلى ذلك لأن الكثرة منهم قـد صلح أمرها فيما بعد وأعلنت توبتها وأقبلت على المعاني والمبادئ الإسلامية دراسة وتمجيداً ، ولأن كثرة أخرى منهم قد رحلت عن عالمنا ونخشى أن يكون ذكرنا لأسمائها يتصور على أنه نيل ممن ترك دارنا وهو عاجز عـن الرد على تبرير المواقف التي اختارها لنفسه إبان رحلة حياته ، هذا وإن كان منطق التاريخ لا يعرف المجاملات ، ولكن مـا دام حديثنا مقصوراً على شخصية الرافعي ، فليكن مذهبنا بسط الأضواء عليه ، ولا علينا إذا أشرنا إلى الآخرين متى دعت ضرورة المنهج العلمي والتاريخي إلى ذلك.

يترصد الرافعي نتاج معاصريه منشوراً في صحف يومية ومجلات أسبوعية وشهرية وكتب مطبوعة فينتهي باستنتاجه الملهم إلى أن هنـاك مؤامرة متعددة الأطراف متباينة الأساليب تنتهي إلى هدف واحد هو إعلان الحرب على اللغة العربية وإشاعة التفتيت بين جسم الأمة العربية والنيل من قدسية المبادئ الإسلامية .

كانت هناك فئة تنادي بالعامية وتتحمس لها وتطالب بجعلها لغة للكتابة ،

ومن عجب أن هؤلاء الذين كانوا يتحمسون لها كانت كل كتابتهم بالعربية الفصيحة ، وكان هناك من ينادي بالفرعونية مذهباً وقومية محاولاً أن يقطع كل صلة بين مصر العربية لغة ودماً وحضارة وفكراً وبين بقية جسم الأمة العربية التي تمثل مصر منها مكان القلب من الجسد . وكان هؤلاء « المتفرعنون » يعملون بلا شك لحساب الاستعمار الذي قطع أوشاج الأرض العربية وخلق حدوداً مصطنعة في أرض الوطن الكبير وقسم الأمة العربية أحزاباً وشيعاً .

وكان هناك أيضاً من يحاول صرف الأمة عن تراثها وأمجادها ويتحمس للتراث الأوربي قديمه وحديثه ، يترك التراث العربي المجيد ويشغل الناس بآلهة اليونان وقصصهم وملاحمهم وحروبهم ويمجد الأدب المستورد من فرنسا وإنجلترا – دون غيره – تحقيراً لشأن الأدب العربي وصرفاً للناس عما فيه من جمال خبيء يحتاج إلى من يدرسه صابراً مستأنياً ثم يقدمه للناس في صورته الحقيقية المليئة بألوان المجد الفكري والجمال الروحي والإمتاع النفسي ، وكانت هذه الطائفة إمعاناً في عداوتها للأدب العربي تنسب كل جميل مستطرف إلى الأدب الأوروبي وتنسب كل جمود وقبح إلى الأدب العربي لا لشيء إلا للتظاهر « بالفَـرْنَـجَـة » القبيحة وتغطية لنقص أحسوا به في أنفسهم وحدهم دون غيرهم من أبناء الأمة العربية في مصر .

وكان هناك فريق آخر أشد خطراً على الناشئة من أبناء ذلك الجيل ، وهو فريق الجاهرين بالإلحاد المنكرين رسالات الأنبياء والمرسلين ، وكانت هذه الدعوة مكملة لفرنجتهم ولعلهم قد أحسوا أن « الفرْنجة » لا تكون إلا بإظهار الإلحاد ، مع أن الغربيين أنفسهم متدينون متعصبون لعقيدتهم عصبية كريهة في بعض الأحيان تأباها نزاهة المسيحية وصفاؤها ، وهم في ظل هذا التعصب المقيت شنوا على الشرق العربي والإسلام حروباً دامية سميت – كما يعرف كل مشرقي – بالحروب الصليبية ، والغربيون المحدثون – إلا القليل – يمثلون امتداداً للغربيين القدامى أصحاب الحروب الصليبية

ومشعلي أوارها ، وهم أنفسهم لا يزالون يشنون على الشرق الإسلامي نفس الحرب وإن تغير شكلها واختلف أسلوبها ، ومن ثم فقد كان هؤلاء الداعون إلى الإلحاد أقرب إلى التهتك منهم إلى الجد ، وأدنى إلى الخيانة منهم إلى الوطنية ، ولكنهم كانوا يحتمون بشكل غير مباشر بالسلطات الأجنبية التي كانت تحتل مصر وتبارك في صمت أقوالهم وأعمالهم .

ولقد كان هؤلاء وأولئك من الداعين إلى العامية والمنادين بالفرعونية والمبشرين بالآداب الغربية قديمها وحديثها والجاهرين بالإلحاد والإنكار يملكون من أسباب النشر ووسائله ما لم يكن يملكه غيرهم من الكثرة المناهضة لهذه الدعاوى المنحرفة ، وكان فيهم صلف وعنف وسلاطة لسان واستهتار بالقيم الخلقية في منطق المناقشة والمجادلة ، وإذا كانت الحكمة الغالية تقول أنه لا يفل الحديد إلا الحديد ، فقد كان الرافعي رحمه الله هو ذلك الحديد الذي واجه هذه الطائفة المنحرفة بقلم أحد من ظبا السيف ، أمدته ملكة أدبية سخية العطاء ، ونفس مثقفة عميقة ، وإيمان غير محدود بإسلامه وعروبته ، فكان مثله ومثلهم ، مثل موسى وسحرة فرعون يأتون بألاعيبهم مجتمعين فيلقي بعصاه فاذا بها تنقض كل ما فعلوا ، واضطر بعضهم أن يؤمن بموسى وبرسالة موسى . أن بعض هؤلاء قد صلح أمره وبعض آخر قد ظل سادراً في الطريق الذي اختاره لنفسه أو بالأحرى اختاره له غيره ، لعله وإياهم يستطيعون أن يشقوا صدعاً في جدار هذه الأمة .

لقد بدأت الدعوات المتطرفة تسير في خطوط متوازية تكاد تكون منسقة ثم تنعطف جميعاً وتنتهي كلها إلى هدف واحد هو شن الحرب على اللغة العربية والنيل من العقيدة الإسلامية والدعوة إلى تحقير كل ما هو شرقي .

ففي مجال العقيدة ارتفعت دعوات كثيرة لمحاربتها بشكل مقنّع متحايل حيناً ، وبشكل ظاهر مندفع حيناً آخر . فالدكتور محمد حسين هيكل يسلك الطريق الأول حين ينشر مقالاً عن إيزيس يناقش فيه العقائد الفرعونية — وهي وثنية بداهة — ويقارن بينها وبين العقائد السماوية محاولاً

أن يجعل الفرعونية ذات أثر في الأديان السماوية مع جنوح إلى السخرية بالدين بالغمز المقنّع[1].

وفي مجال الدعوات الصارخة ما نادى به الدكتور طه حسين في كتابه « الشعر الجاهلي » وطلب فيه أن يتجرد المرء من دينه وقوميته إذا أراد أن يسلك المنهج السليم لعلاج قضية تاريخية أو أدبية مثل قوله: « يجب حين نستقبل البحث عن الأدب العربي وتاريخه أن ننسى قوميتنا وكل مشخصاتنا ، وأن ننسى ديننا وكل ما يتصل به ، وأن ننسى ما يضاد هذه القومية وما يضاد هذا الدين » وكما يقول في مكان آخر مشككاً في القرآن الكريم « للتوراة أن تحدثنا عن إبراهيم وإسماعيل ، وللقرآن أن يحدثنا عنهما أيضاً ، ولكن ورود هذين الاسمين في التوراة والقرآن لا يكفي لإثبات وجودهما التاريخي ، فضلاً عن إثبات هذه القصة التي تحدثنا بهجرة إسماعيل بن ابراهيم ونشأة العرب المستعربة فيها » إلى غير ذلك من الآراء المتطرفة الجامحة التي جاءت في « الشعر الجاهلي » والتي سوف نعرض لها مع الرافعي في فصل قادم . ويكرر طه حسين بعض هذه الآراء ولكن في صورة أخف قليلاً – وإن لم يختلف المحتوى – في مقدمة كتابه « على هامش السيرة » فقد رأى أن ما جاء بكتابه من أخبار وأحاديث « إذا هي لم يطمئن إليها العقل ولم يرضها المنطق ولم تستقم لها أساليب التفكير العلمي ، فإن في قلوب الناس وشعورهم وعواطفهم وخيالهم وميلهم إلى السذاجة واستراحتهم إليها من جهد الحياة وعنائها ما يحبّب إليهم هذه الأخبار ويرغبهم فيها ويدفعهم إلى أن يلتمسوا عندها الترفيه عن النفس حين تشق عليهم الحياة »[2].

وكان في مقدمة الذين حاربوا الفكرة الإسلامية الأستاذ سلامة موسى الذي كان يرضى لمصر بأي شيء ، بالفرعونية ، بالمصرية ، بالأوروبية ، إلا

---

(١) السياسة الاسبوعية العدد ١٤ مايو ١٩٢٧

(٢) راجع مقدمة على هامش السيرة .

أن تكون عربية أو مسلمة ، وكانت أخبار الإسلام والمسلمين تزعجه وتقضّ مضجعه حتى اضطر أن يؤلف كتاباً يحمل فيه على العروبة والإسلام جاء فيه بالمضحك الغريب وبالمؤسف المحزن في وقت واحد أسماه « اليوم والغد » .

يقول سلامة موسى في الحملة على اللغة العربية « لنا من العرب ألفاظهم فإننا ورثنا عنهم هذه اللغة العربية وهي لغة بدوية لا تكاد تكفل الأداء إذا تعرضت لحالة مدنيّة راقية كتلك التي نعيش بين ظهرانيها الآن » وليس من شك في أن الأستاذ سلامة موسى في قوله هذا إما أن يكون عديم المعرفة بالثقافة العربية التي عبرت عنها اللغة العربية أحسن تعبير حينما كانت سيدة اللغات في العالم كله لمدة ثمانية قرون كاملة وكان الأوربي الذي لا يعرف العربية يعتبر إنساناً جاهلاً متخلفاً متأخراً ، وإما أن دعوته التي تبناها من حملة على العروبة وتحامل على الإسلام قد جعلته يسدل على تاريخ الحضارة الإنسانية ستائر كثيفة سوداء حتى لا ترى عيناه ما رآه جميع الناس من صفوة المتعلمين وجمهور المثقفين .

ويعمد سلامة موسى إلى غمز الإسلام ، ولكن في حيطة أول الأمر حين يطلب البعد عن الأديان جميعاً فيقول « ونحن في حاجة إلى ثقافة حرة أبعد ما تكون عن الأديان ، ولا بأس من أن نعتمد على الترجمة إلى حد بعيد حتى يتمصّر العلم وتتمصّر ألفاظه » .

ويحمل على مصطفى كامل الزعيم الوطني المعتز بمصريته ، القائل « لو لم أكن مصرياً لوددت أن أكون مصرياً» ، ولكن مصطفى كامل في نفس الوقت زعيم يؤمن بالرابطة الإسلامية وهو من أطهر من أنجبت مصر من زعماء ولكن بجرد ظهور الجانب الإسلامي لديه يجعل سلامة موسى يشتمه على صفحة كتابه ويرميه بالجهل فيقول : « وقد كان مصطفى كامل لجهله بروح الزمن يخبرنا ولا يزال فلول المحررين من المؤيد والحزب الوطني يخبروننا نحن المصريين عن الإسلام في الصين تحت عنوان : « أخبار العالم

الإسلامي » . ويتجرأ سلامة موسى على الحق والتاريخ والوطنية حينما يزعم أن ظهور الزعيم مصطفى كامل يمثل ارتداداً في الفكرة الوطنية فيقول : « ثم حدث ارتداد في الفكرة الوطنية بظهور مصطفى كامل والخديوي عباس والمؤيد ، فإن كل هؤلاء عادوا إلى جامعة الإسلام » .

ويصب سلامة موسى جام حقده على الإسلام في أغرب جرأة من نوعها أو كما يصفها الدكتور محمد حسين : هي جرأة عجيبة من غير مسلم في بلاد المسلمين ، يقول سلامة موسى مستهتراً بكل مظهر إسلامي : « وها نحن أولاء نجد أنفسنا الآن مترددين بين الشرق والغرب ، لنا حكومة منظمة على الأساليب الأوربية ، ولكن في وسط الحكومة أجساماً شرقية مثل وزارة الأوقاف والمحاكم الشرعية تؤخر تقدم البلاد ، ولنا جامعة تبعث بيننا ثقافة العالم المتمدن ، ولكن كلية جامعة الأزهر تقف إلى جانبها تبث بيننا ثقافة القرون المظلمة ، ولنا أفندية قد تفرنجوا لهم بيوت نظيفة ويقرأون كتباً سليمة ، ولكن إلى جانهم شيوخاً لا يزالون يلبسون الجبب والقفاطين ولا يتورعون عن التوضوء على قوارع الطرق في الأرياف ، ولا يزالون يسمون الاقباط واليهود كفاراً كما كان يسميهم عمر بن الخطاب قبل ١٣٠٠ سنة »(١) .

ومن خلال الدعوة إلى التشكيك في كل ما هو إسلامي وإعلان الحرب على المظاهر الإسلامية تنطلق دعوة أخرى تعتبر الخطوة الثانية في مخطط البعد بالأمة عن الإسلام ، وهي خطة الانفلات من كل ما هو عربي وتبني دعوة غربية تفصل بين مصر وبين العرب بصفة خاصة وبينها وبين الشرق بصفة عامة وأصحاب هذه الدعوة أسموا أنفسهم ، أو سماهم الناس دعاة المصرية ، وكان منهم الأستاذ أحمد لطفي السيد والدكتور محمد حسين هيكل والدكتور طه حسين والأستاذ سلامة موسى ، وهذا الأخير قاسم

---

(١) راجع الدكتور محمد حسين في كتاب الاتجاهات الوطنية ٢/٢١٢ – ٢١٨

مشترك أعظم حسب التعبير الحسابي ومتطوع تحت الطلب لكل أمر ينال من الإسلام أو من اللغة العربية .

ولكن الأمر الذي يدعو إلى الدهشة في هذا السبيل هو التماثل الغريب بين ما كان يدعو إليه الدكتور طه حسين وما يدعو إليه الأستاذ سلامة موسى حتى ليكاد يقع الحافر على الحافر حسب تعبير المتنبي .

لقد ألف الدكتور طه حسين كتاباً في هـــذا السبيل تحت عنوان « مستقبل الثقافة في مصر » وكتب سلامـة موسى كتابه الذي أشرنا اليه قبل قليل تحت عنوان « اليوم والغد » . يرى الدكتور طه حسين أن نسير سيرة الأوربيين ونسلك طريقهم خيره وشره ، حلوه ومره ، ما يحبّ منه وما يكره ومـا يحمد منه وما يعاب[1] . وأما سلامة موسى فيقول : يجب علينا أن نخرج من آسيا ونلتحق بأوربا ، فإني كلما زادت معرفتي بالشرق زادت كراهيتي له وشعوري بأنـه غريب عني .... وأن تكون ثقافتنا أوربية لكي نغرس في أنفسنا حب الحرية والتفكير الجريء .

ويحاول كل من الدكتور طه حسين وسلامة موسى أن يؤمنا على قول الخديوي اسماعيل إن مصر جزء من أوربا ، فيقول الدكتور طه « ولا ينبغي أن يفهم المصري أن الكلمة التي قالهـا إسماعيل وجعل مصر بها جزءاً من أوربا قد كانت فناً من فنون التمدح أو لوناً من ألوان المفاخرة ، وإنما كانت مصر دائماً جزءاً من أوربا في كل مـــا يتصل بالحياة الثقافية والعقلية على اختلاف فروعها وألوانها ، ويردد سلامة موسى نفس الأقوال وكأن بينهما اتفاقاً فيقول : أن الحضارة الأوروبية قد دخلت إلى مصر مع الحملة الفرنسية وإن نابليون أفاض عليها من بركاته ، وأن محمداً علياً اعتمد على أوروبا في تمدين مصر ، وأن إسماعيل قد رأى بنافذ بصيرته

(١) مستقبل الثقافة في مصر ص ٤١

أنه لا بد لنا أن نتفرنج ونقطع الصلة بيننا وبين آسيا[1]. ثم يستطرد سلامة موسى في كلام يدعو إلى الضحك والسخرية حين يقول إن إسماعيل وزع بين أعيان البلاد فتيات من الشركس لكي يتحسن اللون ويقارب البشرة الأوروبية[2].

ويتحسس كل من الدكتور طه حسين وسلامة موسى البحث عن براهين « لفرنجة » مصر أو لإثبات أن مصر أوربية منذ القدم فيقول الأول: فلما كان فتح الاسكندر للبلاد الشرقية واستقرار خلفائه في هذه البلاد اشتد اتصال الشرق بحضارة اليونان واشتد اتصال مصر بهذه الحضارة بنوع خاص، وأصبحت مصر دولة يونانيــة أو كاليونانية، وأصبحت الاسكندرية عاصمة من عواصم اليونان الكبرى في الأرض[3]. أما سلامة موسى فهو الآخر يرى أن أصل المصريين أوربي ولكنه يختلف مع طه حسين في « جنسيتنا » إذ يرى الدكتور طه أننا يونانيون وأما سلامة موسى فيرى أننا رومانيون، فقد عشنا ألف سنة — على حد روايته — ونحن جزء من الدولة الرومانية كما أننا من ناحية الوجه أوربيون — لا شك أن الأستاذ سلامة موسى لم ينظر قط في المرآة — والشعب الذي سكن مصر لا يختلف البتة عن الشعب الذي كان يسكن أوروبا قبل ٤٠٠ سنة !!!

ويشترك كل من طه حسين وسلامة موسى في التعرض للأزهر مع اختلاف الأسلوب بينهما، فطه حسين يكره الأزهر وأما سلامة موسى فيحقد على الأزهر وفرق كبير بين حديث الكاره وحديث الحاقد، الأول يطالب « بأوْرَبة » الأزهر[4] إن صح الاشتقاق والثاني يتهجم على الأزهر حسبما مر بنا قبل قليل.

ولكن لا يلبث سلامة موسى أن يناقض نفسه بما يبعث على الضحك

(١) المراد بآسيا الإسلام الذي جاءنا منها.
(٢) الاتجاهات الوطنية ٢/٢١٣
(٣) مستقبل الثقافة ص ٢٢
(٤) مستقبل الثقافة ص ٧٥ وما بعدها.

حين يقول أن حقيقة الأزهر أنه جامعة أوربية والسبب في ذلك حسب استنتاجه « العلمي الدقيق » أن الذي أسسها رجل أوربي هو جوهر الصقلي .

ويستبد الحماس بسلامة موسى — في غيبة التعقل — فيقول : الرابطة الشرقية سخافة ، ما لنا ولهذه الرابطة الشرقية ، وأي مصلحة تربطنا بأهل جاوه[1] ؟ وماذا نتتفع بهم وماذا ينتفعون منا ؟ إننا في حاجة إلى رابطة غربية ، كأن تؤلف جمعية مصرية يكون أعضاؤها من السويسريين والإنجليز والنرويجيين وغيرهم .

من الطريف أن سلامة موسى إمعاناً منه في كراهية العرب والتشبث بأذيال الأوربيين يدعو إلى « أن نرتبط بأوربا ، وأن يكون رباطنا بها قوياً ، نتزوج من أبنائها وبناتها ، ونأخذ عنها كل ما يجدّ من اختراعات أو اكتشافات وننظر للحياة نظرها » ، ثم تتغلب على سلامة موسى مرة أخرى كراهية العرب فيقول : « ونجعل أدبنا يجري وفق أدبها بعيداً عن منهج العرب » ويرى سلامة موسى أن مجرد لبس القبعة علامة على التحضر فيقول : « إن اصطناع القبعة أكبر ما يقرب بيننا وبين الأجانب ويجعلنا أمة واحدة فالقبعة هي رمز الحضارة يلبسها كل رجل متحضر سواء أكان يابانياً أم صينياً أم انجليزياً أم أمريكياً ، فان للمتحضرين عادات يتعارفون بها ويصطلحون عليها ، واتخاذ القبعة من هذه العادات »[2].

لقد كانت المرحلة الثانية إذن في الصراع القائم من بداية هذا القرن ونهاية القرن الماضي بعد مرحلة التشكيك العقائدي ، هي التشكيك في عروبة الشعب المصري والطعن في قيمه والتحامل على تراثه والتطاول على

(١) لست أدري لماذا اختار أهل جاوه بالذات !! هل لأنهم مسلمون ؟

(٢) لا شك أن الأستاذ سلامة موسى لم يسمع نكتة الشيخ عبد العزيز البشري مع الرجل الأمي الذي طلب منه قراءة خطاب رديء الخط .

مقدساته وتزييف تاريخه وقوميته وسلخه عن جلده وإبعاده عن كيانه ومحتده وعروبته ، والإدخال في روعه أنه فرعوني تارة ، وأنه أوربي تارة أخرى ، وفي أضعف الايمان أنه شعب من شعوب البحر الابيض المتوسط .

أما المرحلة الثالثة في تحطيم عروبة هذا الشعب وتدمير معنوياته ، وإفساد معتقداته وقطع رابطة الأخوة بينه وبين بقية الشعب العربي ، فكانت مرحلة التآمر على اللغة العربية ، وليس هناك أدنى شك في أن هذا التآمر الذي بدأ في شكل دعوة إلى العامية أو تشويه للغة العربية السليمة بالتخلص من الإعراب كان لحساب الاستعمار ، واستهدافاً لعزل سلطان القرآن الكريم على قلوب الناس .

فلقد كان المستعمر هو أول من نادى بتلك الفكرة ، فكرة الدعوة إلى العامية وطرح اللغة العربية جانباً حين أوحى إلى بعض المجلات التي تتعامل معه في مصر أن تنادي إلى استعمال العامية بدلاً من اللغة العربية الفصيحة ، ولما لم تجد الدعوة أذناً صاغية عند جمهرة المصريين بدأ الاستعمار يكشف عن حقيقة وجهه ، ودعا رجل انجليزي كان يعمل مهندساً للري إلى محاضرة ألقاها في كلوب الأزبكية تحت عنوان غريب هو « لمَ لم توجد قوة الاختراع لدى المصريين الآن » وقال في معرض محاضرته « إن من جملة العوامل في فقد قوة الاختراع عند المصريين استبقاءهم اللغة العربية الفصحى » وأشار بإغفالها واستبدالها باللغة العامية اقتداء بالأمم الأخرى وضرب مثلاً بالأمة الانجليزية التي تركت اللاتينية واستبدلتها باللغة الانجليزية الحديثة [1] .

والذي لا شك فيه أن مهندس الري هذا إما أنه جاهل وإما أنه دسيسة على الوطنية المصرية والقومية العربية ، وفي اعتقادي أنه جمع بين

---

(١) مجلة الهلال العدد السادس من السنة الأولى .

الجهل والدس معاً ، فمن الناحية الأولى كانت العربية في القرون الوسطى – وهو ما أشرنا إليه قبل صفحات – لغة الفكر والعلم والرياضة والاختراع في زمن لم يكن لأمته تاريخ ولا للقارة التي جاء منها حضارة ، فضلاً عن أن الانجليز استبدلوا لغة أجنبية عنهم تماماً بلغة أخرى لا تمت إلى اللاتينية بحسب أو نسب . وأما من ناحية الدس فالأمر واضح الدلالة حين يستعمل المصريون لهجة عامية ، ويتبعهم في ذلك تحت نفس الظروف الماكرة الشوام والعراقيون والمغاربة وأهل الجزيرة العربية ، حينئذٍ وبعد فترة من الزمن تصبح اللغة الواحدة لغات مختلفة[1] ، ويصبح القضاء على الأمة العربية أمراً سهلاً ، كما يصبح التراث العربي الإنساني الممتد على مساحة ستة عشر قرناً شيئاً عديم القيمة مكانه المتاحف لا القلوب والعقول .

وفي نفس الفترة الزمنية تقريباً يقوم قاض انجليزي بالمحاكم المصرية اسمه « ولمور » بتبني نفس الفكرة والدعوة إليها ، ويؤلف كتاباً يطلق عليه عنوان « لغة القاهرة » ثم يتقدم خطوة نحو الأمام – وهو ما لم يناد به مهندس الري – فيقترح أن تكون حروف الكتابة هي اللاتينية ، وتنشط أبواق الاستعمار من المجلات المنتشرة في ذلك الوقت في الدعاية للكتاب ولفت النظر إليه[2] ، ويتنبه المخلصون من أبناء الأمة إلى الدعوة الخبيثة الكامنة في الكتاب ، وإلى المكر والحيلة التي لجأت إليها جريدة المقتطف حين أشادت به ودعت إلى الاهتمام به ، ولعل قصيدة حافظ ابراهيم على لسان اللغة العربية لم تكن إلا رداً مباشراً على دعوة ولكوكس وعلى حججه الواهية في أن اللغة العربية لا تصلح أن تكون لغة لمخترعين ، وفيها يقول حافظ :

---

(١) لا زالت بعض الجامعات الأمريكية حتى الآن تدرس اللهجات العربية على أنها لغات بذاتها فتقدم دراسات في اللغة المصرية أو اللغة السورية أو اللغة العراقية وهكذا بل لقد اعتمدت مبالغ ضخمة لتأليف معاجم انجليزية سورية أو انجليزية مصرية ظهر بعضها مطبوعاً في المكتبات .

(٢) الاتجاهات الوطنية ٢/٣٤٢

رجعت لنفسي فاتهمت حصاتي ... وناديت قومي فاحتسبت حياتي
رموني بعقم في الشباب وليتني ... عقمت فلم أجزع لقول عداتي
وَلَدْتُ ولما لم أجد لعرائسي ... رجالاً وأكفاء وأدت بناتي
وسعْتُ كتاب الله لفظاً وغاية ... وما ضقتُ عن آيٍ به وعظات
فكيف أضيق اليوم عن وصف آلةٍ ... وتنسيق أسماء لمخترعات
أنا البحرُ في أحشائه الدر كامِنٌ ... فهل سألوا الغواص عن صدفاتي

ويعرض حافظ على لسان اللغة العربية للمؤامرات التي تحاك حولها والدسائس التي تعد لها، وهي التي فاخرت الغرب المظلم في حياء وخفر فيقول:

أيطربكم من جانب الغرب ناعب ... ينادي بوأدي في ربوع حياتي
ولو تزجرون الطير يوماً عرفتمُ ... بما تحته من عثرة وشتات
سقى اللهُ في بطن الجزيرة أعظما ... يعز عليها أن تلين قناتي
حفظن ودادي في البلى وحفظته ... لهن بقلب دائم الحسرات
وفاخرت أهل الغرب والشرق مطرق ... حياء بتلك الأعظم النخرات
أرى كل يوم بالجرائد مزلقاً ... من القبر يدنيني بغير أناة
وأسمع للكتّاب في مصر ضجة ... وأعلم أن الصائحين نعاتي

ويمضي الحقد الاستعماري والكيد الغربي للغة العربية حتى في نطاق الكتاب المقدس والحيلولة دون وضعه في الأسلوب المتين الوقور الذي يليق به، فالمعروف أن لغة الكتاب المقدس من الركاكة بمكان، وقد حاول الشيخ ابراهيم اليازجي وهو أديب عربي مسيحي له ولولده الشيخ ناصيف اليازجي فضل كبير على اللغة العربية وآدابها ان يهذب لغة الأناجيل فحيل بينه وبين ذلك، نقول ان الشيخ ابراهيم لما طُلب إليه تصحيح ترجمة الأناجيل حاول أن يضعها في الأسلوب العربي الذي يليق بها وأن يختار ألفاظها ويزيل عجمتها ويباعد بينها وبين فساد تركيب جملتها، فأبى عليه

المشرفون على عملية الطباعة أن يفعل ذلك إلا فيما يتعلق بحركات الاعراب[1].

ومن هـذا القبيل أيضاً من محاولة الإبقاء على ركاكة أسلوب الكتاب المقدس والحيلولة بينه وبين أن يكون على مستوى أسلوبيّ رفيـع ما ذكره أحمد فارس الشدياق في كتابه « كشف المخبّا عن فنون أوربا » من أنه كان يعرّب التوراة أثناء وجوده في انجلترا ، وكان يشرف على الترجمة قسيس انجليزي يعرف شيئاً من العربية ، فكان كلما كتب الشدياق جملة فصيحة سارع إليه القسيس ومسخها واستبدل بهـا جملة ركيكة وهكذا كان القسيس يقف أمام « الشدياق » ليبدل الجملة الرفيعة الأسلوب بجمـلة ساقطة ، ويحوّل الجيد الى رديء فإذا سئل القسيس عن الهدف من وراء ذلك أجاب بأنه إنما يريد أن يباعد بين أسلوب التوراة وأسلوب القرآن[2].

إن المقصد الأول والأخير الذي يستهدفه الاستعمار من تشويه اللغة العربية ومسخها وإدخال الركاكة عليها وقلبها إلى لغة سوقية هو فيما يرى الأمير شكيب أرسلان وفيما يرى كل من تتبع الخطة الماكرة محاربة القرآن والحديث وجميع الآثار الإسلامية ، ولعل كثيرين ممن تتبعوا آراء «كرومر» عميد الاستعمار الانجليزي في الشرق لا يزالون يذكرون قولته الشهيرة التي تقرر أنه لا يمكن للاستعمار أن يستقر بين ظهراني الأمـة طالما ظل بين ظهرانيها هذا! « الكتاب » ويعني به القرآن الكريم .

يبذر المستشرقون أو المتشبهون بهم من رجال الاستعمار بذرتهم الخبيثة في محاربة الفصحى ، وإذا بهـا لسوء الحظ تجد صدى سريعاً لدى بعض الكتاب المصريين ، فهذا قاسم أمين يحاول أن يضرب أول معول في جدار العربية الشامخ ، فينعي على الفصحى صعوبتها ويطلب إلغـاء الإعراب وتسكين آخر الكلمات ، ويقول جملة عجيبة : « إن الأوربي يقرأ ليفهم

---

(١) أنظر مقال « الجملة القرآنية » ص ٢٥ من المعركة بين القديم والجديد .

(٢) أنظر مقال « ما وراء الأكمة » للأمير شكيب ارسلان : المصدر السابق ص ٣٢ .

أما نحن فتفهم لكي نقرأ ، ولكن « قاسم أمين » لم يسر على هذا الدرب طويلاً فسرعان مـــا تركه إلى الدرب الآخر الذي كان يعالج من خلاله « تحرير المرأة » .

أما الذي يدعو إلى العجب فهو انزلاق الأستاذ أحمد لطفي السيد في هذا الطريق الخطير حين دعا إلى ما أسماه « تمصير اللغة » وما دعاه تارة أخرى « الاصلاح بين العامية والفصحى » وكأنه أراد أن يأخـذ القضية على مراحل ، يبدأ بالمواءمة بين العامية والفصحى ثم ينتهي أخـــيراً إلى العامية المطلقة .

يرى لطفي السيد أن في استعمال مفردات العامة وتركيبها إحياءً للغة الكلام وإلباسها لباس الفصاحة ، إذ يكون من ذلك رفع هذه اللغة إلى الاستعمال الكتابي والنزول بالضروري من اللغة المكتوبة إلى ميدان التخاطب والتعامل، ويرى لطفي السيد أيضاً أن ما استعملته العامة إنما هو قرارات الأمة في هذه الكلمات التي لا تريد النزول عنها ، وأن الطريقة الوحيدة لإحياء اللغة هي إحياء لغة الرأي العام من ناحية وإحياء لغة القرآن من ناحية أخرى . ويمضي لطفي السيد قائلاً : « إننا إذا أردنا الصلح بـــين اللغتين فأقرب الطرق لهذا الصلح أن نتذرع إلى إحيــاء العربية باستعمال العامية » .

لقد كان لطفي السيد من دعاة المصرية وهو بالتالي داعية من دعاة العامية وهو يرى أن الجانب الآخر من المفكرين الذين ينكرون عليه دعوته من القوة بمكان ، ومن ثم فقد اقترح هذه « المصالحة » الغريبة .

وينبري له مصطفى صادق الرافعي — وكان ذلك سنة ١٩١٢ — فيدحض هذه الآراء بالمنطق والعقل ويرى أننا نحن المصريين لو فعلنا ذلك وانحزنا إلى جانب عاميّتنا وكذلك فعل كل قطر عربي مع عاميته لانتهت العربية وقضي على العرب ، وعلى حــد تعبيره « فإذا أمكن أن يتفق ذلك وأن تتوافى عليه الأمم ، كان لعمري أسرع في فناء العربية ومحوها ، وجدا

عليها شؤم هذا الرأي ما لا يجدو تألب الأعداء ولو استأصلوا أصلها وبلغوا منها ما لا يبلغه الفاتحون ولو ملكوا تلك الارض كلها [1] » والنتيجة بعد أجيال أن تصبح هذه اللغة الفصحى في كتابها الكريم ضرباً من اللغات الأثرية .

لقد كانت هناك أقوال جريئة على الحق ، غريبة عن المنطق ، تصدر عن المدرسة « المصرية » — وهي في ذاتها المدرسة « الفرعونية » — في حق اللغة الفصحى ، فقد كانوا يرون أن اللغة الفصيحة تبعثر الوطنية المصرية وتجعلها شائعة في القومية العربية ، ذلك أن المتعمق في اللغة الفصحى يشرب — تبعاً لوجهة نظرهم — روح العرب ويعجب بأبطال بغداد بدلاً من أن يشرب الروح المصرية ويدرس تاريخ مصر .

لقد كان عجيباً أمر هذه الدعوة التي حاولت أن تفصل بين مصر وعروبتها ، يريد أصحابها بذلك من الناحية الشكلية إحياء مصر ، وما كانوا في الواقع إلا وائديها وقاتليها فلا يستطيع الجسم أن يحيا إذا فصل الرأس عن الجسد .

يتلقف سلامة موسى هذه الدعوة ، وهو متربص بكل ما هو عربي ، لغة أو حضارة أو تاريخاً أو ديناً ، يتلقف قول قاسم أمين الذي أشرنا إليه قبل قليل ويلتقط آراء لطفي السيد لكي يبني عليها حملة على اللغة العربية مستعملاً فيها ألفاظاً غير لائقة فيقول : « والتأفف من اللغة الفصحى التي نكتب بها ليس حديثاً ، إذ يرجع إلى ما قبل ثلاثين سنة حين نعى قاسم أمين على اللغة الفصحى صعوبتها ، وقام على أثره منشئ الوطنية الحديثة — كذا — أحمد لطفي السيد فأشار باستعمال العامية ، أي لغة العامة ، ولكن هؤلاء العامة الذين انتصر للغتهم كانوا من سوء القدر لأنفسهم

---

(١) مقال لطفي السيد ورد الرافعي عليه في « المعركة بين القديم والجديد » ص١٥ وما بعدها ، مقال تمصير اللغة .

بحيث تألبوا عليه وجازوه جزاء لا يأتي إلا من العامة الذين لا يدرون مصالحهم »[1] .

والطريف أن سلامة موسى يقصد بالعامة العلماء الأجلاء الذين انتصروا للفصحى وعارضوا دعوة لطفي السيد .

وبعد مقال سلامة موسى بقليل أو بعد عام على وجه التحديد يخرج إلى الوجود كتابه « اليوم والغد » الذي أوردنا أطرافاً من أفكاره حول اللادينية والتهجم على القيم الإسلامية وعظماء الإسلام والنيل من اللغة العربية ومحاولة طمس معالمها في ظلال الراية التي رفعها لطفي السيد في مستهل هذا القرن . فمن أقواله في هذا السبيل ، « يقوم بذهننا أنه يجب علينا أن نكون على ولاء للثقافة العربية فندرس كتب العرب ونحفظ عباراتهم عن ظهر قلب ، كما يفعل أدباؤنا المساكين المازني والرافعي ، وندرس ابن الرومي ، ونبحث عن أصل المتنبي ، ونبحث في علي ومعاوية ونفاضل بينهما ونتعصب للجاحظ ».. ويمضي الكاتب في هذا الطريق العجيب فيقول : ليس علينا للعرب أي ولاء ، وإدمان الدرس لثقافتهم مضيعة للشباب وبعثرة لقواهم ، فيجب أن نعوّدهم – وهذا هو بيت القصيد عند سلامة موسى – الكتابة بالأسلوب المصري الحديث ، لا بأسلوب العرب القديم ثم يجب أن نذكر أن إدمان الدرس للعرب يشتت الأدب المصري ويجعله شائعاً لا لون له .

ولعمري إن الأمر ليدعو إلى العجب فعلاً ، فهل هناك أدب مصري كذلك الذي ذكره سلامة موسى ؟ ، وبأي لغة كتب ومن الذين كتبوه إن وجدوا ، وبالتالي من هؤلاء الذين قرأوه ؟

وتمضي السنون ويزداد سلامة موسى جرأة وكراهية للعربية فلا يطالب بتمصيرها كما فعل غيره من أبناء المدرسة التي كان ينتمي إليها ، وإنما

---

(١) الهلال عدد يوليو سنة ١٩٢٦

يطالب بإزالتها وتركها إلى لغة أخرى حين يصمها بأنها أحافير لغوية ورثناها من مجتمع ديني زراعي إقطاعي ، فلغة الدولة الرسمية ليست لغة الديمقراطية والاتومبيل والتلفزيون بل هي لغة القرآن وتقاليد العرب . ثم يعود فيصفها بأنها لغة خرساء تجهل نحو مائة علم وفن لا يمكن أن نعرفها إلا إذا تركنا لغتنا إلى لغة أخرى .

ومما يدعو إلى الغرابة أن شيخاً كبيراً مثل عبد العزيز باشا فهمي له في دنيا السياسة والقضاء تاريخ نضال طويل ، يصيبه الانحراف فجأة ، فينادي بإحلال الحروف اللاتينية محل الحروف العربية ، ويستبد به الانحراف – لعله بدافع تقدم السن – فيتقدم إلى مجمع اللغة العربية في شهر مايو سنة ١٩٤٣ باقتراحه المريض ، وكان الرجل إذ ذاك عضواً في هذا المجمع ، وليس من شك في أن هذه الدعوة كانت من الخطر بحيث لا تقل عن سابقاتها من تشويه للغة أو تمصير لها ، وكان من الطبيعي أن يصبح الموضوع قضية يتكلم فيها الناس من خاصة وعوام ، وطابع الاستنكار يبدو في أحاديثهم ، ذلك أن هذه الدعوة مشبوهة هي الأخرى ، فلقد نادى بها من قبل استعماري كبير هو القاضي ولمور في بداية القرن ، كما أن نصير الصهيونية كمال أتاتورك قد شوه اللغة التركية بكتابتها بالحروف اللاتينية بدلاً من الحروف العربية ، وكان هدفه قطع كل صلة بين الأتراك وبين العرب والإسلام .

ومن الطريف أن مستشرقاً كبيراً مثل الأستاذ نلينو يعارض هذه البدعة القاتلة قبل أن يتبناها عبد العزيز فهمي ويكتب مقالاً في « الهلال »[1] يسخف هذه الدعوة ويردها إلى أصول لا تشرف الداعي إليها ، ويكتب طاهر الطناحي محرر الهلال[2] مقالاً آخر يلتزم فيه الموضوعية الكاملة

---

(١) عدد مارس سنة ١٩٣٦

(٢) عدد مايو سنة ١٩٤٣

ويثبت فساد هذه الدعوة ، واستحالة الاستمرار فيها يؤيد رأيه بالبراهين التاريخية والعقلية[1].

لقد كان أصحاب الدعوة إلى مسخ اللغة ذوي أصوات عالية يشجعهم الاستعمار على ذلك من قريب تارة ومن بعيد تارة أخرى ، ولكن أصوات المدافعين عن حرمة الفصحى كانت أعلى ، بما تحمل من حجج وبما تعتمد عليه من أسباب العدل والمنطق ، ولم يكن كل المدافعين من المسلمين بل كان هناك علماء فضلاء مسيحيون مثل الشيخ خليل اليازجي والشيخ ابراهيم اليازجي وجرجي زيدان ، غير أن الصوت الأعلى بينهم كان لمصطفى صادق الرافعي الذي رد على دعاة الفرعونية والعامية في مستهل هذا القرن وقبل أن يرتفع صوت لسلامة موسى أو يسمع به أحد . يقول الرافعي[2] وقد وقف منهم موقف الأستاذ من التلاميذ « إنما اللغة مظهر من مظاهر التاريخ ، والتاريخ صفة الأمة ، والأمة تكاد تكون صفة لغتها ، لأنها حاجتها الطبيعية التي لا تنفك عنها ، ولا قوام لها بغيرها ، فكيفما قلبت أمر اللغة من حيث اتصالها بتاريخ الأمة واتصال الأمة بها ، وجدتها الصفة الثابتة التي لا تزول إلا بزوال الجنسية ، وانسلاخ الأمة من تاريخها ، واشتمالها جلدة أمة أخرى ، فلو بقي للمصريين شيء متميز من نسب الفراعنة لبقيت لهم جملة مستعملة من اللغة الهيروغليفية ... وإن في العربية سراً خالداً هو هذا الكتاب المبين (القرآن) الذي يجب أن يؤدي على وجهه العربي الصريح ، ويحكم منطقاً وإعراباً بحيث يكون الإخلال بمخرج الحرف الواحد منه كالزيغ بالكلمة عن وجهتها ، وبالجملة عن مؤداها ، وبحيث يستوي فيه اللحن الخفي واللحن الظاهر ، ثم هذا المعنى الإسلامي (الدين) المبني على الغلبة ، والمعقود على أنقاض الأمم ، والقيّم على الفطرة الإنسانية حيث توزعت وأين إستقرت ، فالأمر أكبر من أن تؤثر فيه سَوْرَةُ حمق ،

---

(١) راجع الموضوع مفصلاً في الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر ٢/٣٥٧-٣٦٣

(٢) تحت راية القرآن ص ٤٦ من مقال « الرأي العامّي في العربية الفصحى » .

أو تأخذ منه كلمة جهل ، وأعضل من أن يزيله قلم كاتب ولو تناهت به سن الدهر حتى يلقى من الأمة أربعة عشر جيلا كالتي مرت منذ التاريخ الإسلامي إلى اليوم » .

في هذه البيئة الأدبية الفكرية التي جمعت بين الضدين في ميدان التدين والمجاهرة بالإلحاد ، والعروبة والفرعونية ، عاش الرافعي المؤمن بعقيدته ولغته وحضارته ، ومن ثم فقد هيأ نفسه ليكون الذائد عن حمى دينه المنافح عن أمجاد لغة القرآن ممتشقاً قلمه كما يمتشق الفارس المعلم للحرب حسامه ، وهو على حد تعبير فقيد الأدب العربي محمد سعيد العريان « لا ينظر لغير الهدف الذي جعله لنفسه منذ يومه الأول ، وهو أن يكون من هذه الأمة لسانها العربي في هذه العجمة المستعربة ، وأن يكون لهذا الدين حارسه وحاميه ، يدفع عنه أسباب الزيغ والفتنة والضلال وما كان — رحمه الله — يرى في ذلك إلا أن الله قد وضعه في هذا الموضع ليكون عليه وحده حياطة الدين والعربية ، لا ينال منهما نائل إلا انبرى له ، ولا يتقحم عليهما متقحم إلا وقف في وجهه ، كأن ذلك « فرض عين » عليه وهو على المسلمين فرض كفاية »[1].

والرافعي يعبر بقلمه عن هذا الاتجاه السامي في نفسه حين يقول[2] : « والقبلة التي أتجه إليها في الأدب إنما هي النفس الشرقية في دينها وفضائلها ، فلا أكتب إلا ما يبقيها حية ، ويزيد في حياتها وسمو غايتها ، ويمكن لفضائلها وخصائصها في الحياة ولذا لا أمس من الآداب كلها إلا نواحيها العليا . ثم إنه يخيل إليّ دائماً أنني رسول لغوي ، بعثت للدفاع عن القرآن ولغته وبيانه ، فأنا دائماً في موقف الجيش (تحت السلاح) له ما يعانيه وما يحاوله ويفي به وما يتحفظ فيه ، وتاريخ نصره وهزيمته في أعماله دون سواها » .

---

(١) حياة الرافعي ص ١٥ الطبعة الثالثة .

(٢) وحي القلم ٣/ ٣٠٠

وأحسب أن الرافعي كان صادقاً مع نفسه حينما جعل من مواجهته المتحرفين « فرض عين » ، صحيح أن عدداً من كتاب عصره ومفكريه قد أسهموا إلى جانبه في بعض المعارك مثل معركة « الشعر الجاهلي » التي خاضها إلى جانبه بعض المفكرين أمثال الشيخ الخضر حسين ولطفي جمعة وشكيب أرسلان وعباس فضلي وغيرهم على ما سوف نفصل فيما يستقبل من صفحات هذا البحث ، ولكن أحداً لم ينته به جهاده وكفاحه إلى مثل الذخيرة الأدبية العربية الإسلامية الهائلة التي انتهى بها كفاح الرافعي مثل « المعركة تحت راية القرآن » و « إعجاز القرآن » ومجموعه المقالات الاسلامية والاجتماعية والأدبية التي ضمها « وحي القلم » .

إن معركة الرافعي مع خصومه وخصوم لغتنا وعقيدتنا كانت خيراً وبركة على التراث العربي أدباً وفكراً ، بل لا نكون غالين إذا قلنا إنها كانت خيراً وبركة على بعض خصومه ، ولكن بعد أن أدركتهم الشيخوخة وأحسّوا بقرب رحيلهم عن هذه الحياة .

فهل يوجد بيننا الآن رافعي آخر — وقد بدأت الفرعونية والشعوبية والتطاول على القيم تطل بوجهها الكريه من جديد — لا يتهاون في عقيدته ولا يترخص في دينه ولا يتكاسل في الدفاع عن حمى لغته ولا يغضي أو يتغاضى إذا ما هوجمت عقيدته علناً وعلى رؤوس الأشهاد — والشأن هذه الأيام أن يعتدي عليها — فيعلنها معركة فكرية مقدسة لإظهار سطحية وضحالة هؤلاء الذين يغمزون العربية وآدابها وهم منها في جهل مطبق وفراغ في كل شيء إلا من نفوس ملأها الحقد وأكلتها الكراهية !!.

الفصل الثاني
آداب العرب وإعجاز القرآن

(١)

الرافعي يؤلف في آداب العرب :

لعل الرافعي لم يكتب كتابه « تاريخ آداب العرب » إلا مستجيباً لدعاء نفسه في خدمة اللغة العربية ، لغة القرآن ، فأراد أن يميط اللثام عن الخبيء من جمالها والخالد من آثارها وأن يقدمها للناس في ثوبها الوقور المقدس الذي يليق بلغة القرآن ، كان الرافعي يعلم أن أعــداء العقيدة والمستعمرين يستهدفون النيل من لغة القرآن تمهيداً للنيل من القرآن نفسه ، وكان قد سمع « الحكمة الاستعمارية » التي جرت على لسان اللورد كرومر حينما قال إنــه لا يحول بين الغرب واستعمار البلاد الإسلامية إلا هذا « الكتاب » يعني القرآن ، وكان الرافعي أيضاً يؤمن بالمذهب الفكري الإسلامي الذي يقول إن حضارة هذه الأمة مستمدة من لغتها وكتاب الله ، تلك الحضارة التي ملأت أكثر من نصف الكرة الأرضية علماً ونوراً لقرون عديدة ، ما بين حدود الصين شرقاً إلى ساحـل المحيط الأطلسي غرباً ، فعقد الرافعي العزم وقد رأى العجمة تسري كالسم من أقلام المتأدبين أن ينزع إلى خطة يعيد بها « الجملة القرآنية » إلى مكانها عند الكتاب والمنشئين ، وكانت إحدى وسائله في ذلك التأليف في آداب العرب .

أصدر الرافعي كتابه « تاريخ آداب العرب » في ثلاثة أجزاء مستهدفاً الغرض الذي أشرنا إليه ، وهو السمو بالأسلوب العربي ، وإحياء جـلال

اللغة ، والحيلولة بين السطحيين من الأدباء وبين أن يعفروا وجهها بالتراب قصوراً منهم أو سوء نية .

وما أن صدر الجزء الأول من كتاب الرافعي حتى أثار ضجـــة من الإعجاب والاستحسان بين الصفوة من المتأدبين المعاصرين ، من أمثال أحمد لطفي السيد[1] والأمير شكيب أرسلان . يقول عنه أحمد لطفي السيد « ... فأما نحوه فعليه طابع الباكورة في بابه ، على أن المؤلف قد ملك موضوعه ملكاً تاماً وأخذ بعد ذلك يتصرف فيه تصرفاً حسناً وليس من السهل أن تجتمع له الأغراض التي بسطها في هــذا الجزء إلا بعد درس طويل وتعب ممل ، وأما أسلوب الرافعي في كتابه فإنه سليم من الأعجمية التي تقع لنا في كتاباتنا نحن العرب المتأخرين » .

ويفتتن بالكتاب أديب عظيم كالأمير شكيب أرسلان فيقول في الثناء عليه « لو كان هذا الكتاب خطاً محجوباً في بيت حرام إخراجه للناس منه ، لاستحق أن يحج إليه ، ولو عكف على غير كتاب الله في نواشي الأسحار ، لكان جديراً بأن يعكف عليه » .

بل إن مؤرخاً كبيراً للأدب العربي مثل الدكتور طه حسين — على مــــا بينه وبين الرافعي من عداوة وشحناء — يعترف بأنه استفاد شيئاً جديداً من كتاب الرافعي في موضوعات كثيرة منه .

والحق أن كتاب الرافعي في تاريخ آداب العرب لا يزال عملاً علمياً جليلاً قليل النظير في شموله حتى اليوم ، وإذا مــا تصفحنا الجزء الأول منه وجدناه عميق النظرة ، حسن التناول شامل الأبواب ، يسير على نهج لم نألفه عند المؤرخين السابقين لتاريخ أدبنا ، ويكتب الرافعي هذا الجزء بادئاً بالحديث عن الأدب والمؤدبين وعلوم الأدب وكتبه ، ثم يمضي بنا في رحلة طويلة تحدث فيها عن العرب وأصلهم وبلادهم ، وعن اللغة العربية

---

(١) التحم الرافعي مع لطفي السيد بعد ذلك في معركة حامية حول العامية والفصحى .

وأصلها مع مقارنته إياها باللغات السامية الأخرى ، ويدلف بنا في هذا النطاق إلى بحث لغوي متعدد الجوانب ضافي الشمول ، ولا يفوته أن يتحدث عن القبائل العربية في نطاق الفصاحة والبلاغة وينتقل بعد ذلك إلى بحوث لغوية نحوية صرفية ، ويظل هكذا متسلسلاً في منهجه الجذاب حتى ينتهي بنا إلى الحديث عن البصريين والكوفيين .

قلنا إن هدف الرافعي من كتابه ديني إسلامي ، ولذلك فإنه يقف بنا في كتابه هذا وقفة طويلة حول الرواية والإسناد وعلوم الحديث ، احتلت من الكتاب حجماً كبيراً ، وكأن الرافعي وهو يكتب هذا الباب من كتابه قد أحس بخطر ما يكتب ، وعرف بسليقته المؤمنة أنه يعرض لباب متصل الأسباب بقضايا إسلامية مقدسة ، وأن أحكامه التي سوف ينتهي إليها ستكون بعيدة الغاية خطيرة النتائج ، وأنه رائد فاتح في هذا الباب ، فلم يفته أن ينوه بذلك قبل أن يخط حرفاً فيه قائلاً[1] « وهذا باب من الأدب وقف التاريخ على عتبته إلى اليوم ، وليس من يتسبب لفتحه أو يتطوع لمعاناته أو يتقلد بعض البلية في الصبر على مكروه ذلك حتى كأنه قطعة من الأرض سويت على دفين مضى حسابه ، وكأن جسمه بيت الحياة المقفر فكل الأرض إذا أغلقت عليه بابه ، على أنه — كما تعلم — ذلك الباب الذي خرجت منه اللغة منذ زمان ، وكان قبل هذا الصدأ المتراكب يفتح قفله « باللسان » فعاد كأنه حجر سدت به الأيام على الأيام ، وكأن الأدب قد تدرع منه فما تزال تندق منه أسنة الأقلام ، بيد أننا وصلنا به أسباب المطمعة ، وناهضناه من حيث يهتز ، وعالجناه من حيث يندفع ، وأعان الله وله الحمد والمنة ، فأنطق القلم ما خرس من صريره ، وألان ما قد استمر من مريره ، وإذا لم نكن مددنا لك في هذا الأدب فقد جئنا بما يوقفك على سره وصميمه ، وينحرف بك عن معوج ذلك المنهج إلى مستقيمه ، وآتيناك من البحث ما يكبر عن أن يعدّ من قليله إذا لم يعدّ من عظيمه » .

---

(١) تاريخ آداب العرب ١/٢٧٣ ط ١٩١١

إن الرافعي بعبارته الأخيرة يلفت نظر القارئ بجزم إلى أن بحثه هذا بحث خطير، بحث إذا لم يعد في حساب البحوث العظيمة، فهو ليس بحثاً قليل الشأن، ولقد كان البحث كذلك، فما من قارئ له إلا بين معجب أو حامد أو مستفيد.

مضى الرافعي بعد ذلك على سننه في التأليف عن تاريخ آداب العرب وواصل السير على نهجه وقدم للناس الجزء الثاني من كتابه تحت عنوان «إعجاز القرآن والبلاغة النبوية»، ولنا معه وقفة بعد قليل، ثم أخرج الجزء الثالث من الكتاب وهو موسوعة أدبية شاملة تناولت الحياة الأدبية واللغوية والعلمية والثقافية مبتدئاً بالقرن الخامس الهجري منتهياً بالقرن الماضي، محاولاً أن يشير إلى ما يمكن الإشارة إليه من مظاهر الحياة الثقافية والأدبية في جميع مناطق الأرض العربية.

وإذا كان الكتاب لا يعطي مادة كافية للقارئ المتخصص فإنه يعين على الفهم الذي ينتهي به إلى غايات بعيدة من التحصيل، ويفتح أبواباً ربما كانت موصدة أو غير ملتفت إليها، فأماط الرافعي عنها اللثام في هذا الجزء الثالث النفيس من كتابه العظيم.

(٢)

إعجاز القرآن:

كان الرافعي في إيمانه صادقاً مع ربه، صادقاً مع نفسه، صادقاً مع مجتمعه، وكان هذا الإيمان قوة دافعة له في الذود عن حياض كتاب الله والتعلق الشديد بكلام رسول الإسلام حباً ودراسة.

وكان ثمرة هذا الإيمان الجزء الثاني من «تاريخ آداب العرب» الذي عرف حيناً باسم «إعجاز القرآن» وعرف حيناً آخر — وهو الأصوب — باسم «إعجاز القرآن والبلاغة النبوية»، ولعله كان يقصد أن يسميه إعجاز

القرآن وإعجاز البلاغة النبوية ، فكلا البلاغتين معجزة دون شك ، وإن تفاوتت نسب الإعجاز وأقداره بين كل من كتاب الله وأقوال رسوله ﷺ

كان صدور هذا الكتاب يشكل تفجير طاقة دينية كبرى في مجتمع الإلحاد فيه ظاهرة من مظاهر المدنية ، ومن ثم فقد استقبله المؤمنون بالبهجة والثناء ، واستقبله المنكرون بالصمت المغلف بالغيظ المتأجج والحقد الدفين .

وإذا كان لطفي السيد والأمير شكيب أرسلان قد قرّظا الجزء الأول من هذا الكتاب ، فإن الجزء الثاني الذي نحن بصدد الحديث عنه – إعجاز القرآن – قد نال قسطاً أوفى وأوفر من العناية ، فقد أرسل سعد زغلول باشا – وهو آنذاك أكبر زعماء مصر شعبية – إلى المؤلف خطاباً تحدث فيه عن جحد الجاحدين وإنكار المنكرين قائلاً « ولكن أقواماً أنكروا هذه البداهة (يقصد بداهة الإعجاز) وحاولوا سترها فجاء كتابكم – إعجاز القرآن – مكذباً لإنكارهم وأيد بلاغة القرآن وإعجازها بأدلة مشتقة من أسرارها ، في بيان مستمد من روحها ، كأنه تنزيل من التنزيل ، أو قبس من نور الذكر الحكيم »[1] .

ولا يقف الأمر بإعجاب الخاصة والعامة بالكتاب عند حدّ ، حتى إن صحافياً كبيراً – غير مسلم – هو الدكتور يعقوب صروف منشئ « المقتطف » يقول في تقريظه « يجب على كل مسلم عنده نسخة من القرآن أن تكون عنده نسخة من هذا الكتاب » .

وفي غمرة الإعجاب الكبرى « بإعجاز القرآن » يحس الملك فؤاد بروعة هذا العمل وجلاله ، فيأمر بطبع الكتاب على نفقته ، تقرباً إلى الله ، أو تقرباً إلى الناس ، فالله سبحانه أعلم بالسرائر ، ويأخذ الكتاب حقه عند

---

(١) يمكن قراءة نص الخطاب ص ٣ من الطبعة الثالثة .

المسلمين جميعاً في مشارق الأرض ومغاربها تقريظاً ودراسة ، وإن كان مؤلفه لم ينل بعض حقه من الناس في حياته أو بعد مماته .

على أن هناك حدثاً كبيراً لا نستطيع أن نغفله ونحن نقدم لهذا الكتاب ، ونعني به الخصومة المريرة التي جرت بين الرافعي والعقاد بسبب هذا الكتاب نفسه ، لقد كان العقاد في وقت ما من المعجبين بمصطفى صادق الرافعي حتى إنه قرّظ كتاب المساكين الذي أصدره الرافعي سنة ١٩١٧ بقوله[١] « إنه ليتفق لهذا الكتاب من أساليب البيان ما لا يتفق مثله لكاتب من كتاب العربية في صدر أيامها »[٢].

لقد كان العقاد صادقاً في قوله في الرافعي ، ولا أحسب أن صدقه في قوله يقتصر على كتاب المساكين وحده ، ولكنه ينسحب على كل جملة خطتها يراع الرافعي في أكثر ما كتب وبخاصة في كتب الفكرة الإسلامية والخواطر الإنسانية .

غير أنه ما كاد كتاب الإعجاز ينال من الحظوة والشهرة ما نال حتى نسب إلى العقاد أنه قد أصيب بنوع من الغيرة التي قد تحدث بين أبناء المهنة الواحدة ، دفعته لأن يغلو غلواً ورطه في أقوال حول الإعجاز لا يليق أن تصدر عن مسلم ، جعلت الرافعي يشن عليه حرباً أكاد أقول إنها من أشد ما عرف من حروب بين أصحاب الخصومات الأدبية .

يحكي الرافعي قصته مع العقاد بصدد إعجار القرآن في حوار مع المرحوم سعيد العريان فيقول[٣] « ... وجلسنا نتحدث فسألته الرأي في إعجاز القرآن ، فكأنما ألقيت حجراً في ماء آسن .. فمضى يتحدث في

---

(١) انظر الرافعي لسعيد العريان ص ١٨٣
(٢) الأستاذ العوضي الوكيل – وهو تلميذ كبير للعقاد – ينكر في بحث عن العقاد والرافعي أن يكون العقاد قد أدلى بهذا الرأي .
(٣) الرافعي لسعيد العريان ص ١٨٥

غضب وانفعال كأن ثأراً بينه وبين إعجاز القرآن ، ولو كان طعنه وتجريحه في الكتاب نفسه لهان عليّ ، ولكن حديثه عن الكتاب جره إلى حديث آخر عن القرآن نفسه وعن إعجازه وإيمانه بهذا الإعجاز ... أصدقك القول يا بني : لقد ثارت نفسي ساعتئذٍ ثورة عنيفة ، فكدت أفعل شيئاً ، إن القرآن لأكرم وأعز » .

لقد كانت عصبية الرافعي للقرآن ، وربما لنفسه أيضاً ، من العنف بحيث جعلت الرافعي ينشر عدة مقالات في العقاد بعنوان « على السفود » جمعت فيما بعد في كتاب يعتبر من أشد وأعنف ما كتب في العربية في نطاق النقد الأدبي ، لم تخـلُ من أوصاف للعقاد تنال من نفسه وعرضه وعلمه وأدبه ، فضلاً عما فيهـا من سخرية به وتسخيف لأفكاره وتقبيح لذوقه وطعن في أمانته العلمية وتجهيل لفهمه النصوص الأدبية إلى غير ذلك من الأوصاف التي يمنعنا تقديرنا للعقاد أن نذكر بعضها هنا[1] ، ذلك أن العقاد – فيما نعتقد – قد حسنت عقيدته فيما بعد ، وقدم عن الإسلام ورسول الإسلام وقادته بضعة عشر كتاباً تعتبر من سمو المنزلة وعمق الفكر بحيث تحتل مكانـة جديرة بالاحترام لدى مفكري الإسلام وأدبائه ، وفي اعتقادنا أنه لو كان القدر جرى بما يمد للرافعي في أسباب الحياة ، لتبدلت علاقته بالعقاد من عداوة إلى صداقة ، ومن بغض إلى حب في ظل نبل الغاية وعمق الإيمان الذي جمع بينهما في فترة زمنية كان أولهما قد اختار جوار الله ، وكان الثاني قد مدّ له في العمر ليثري العقول الناشئة المؤمنة « بالعبقريات » الإسلامية و « الله » و « ما يقال عن الإسلام » ، و « حقائق الإسلام وأباطيل خصومه » إلى غير ذلك مما خلف العقاد من إسلاميات .

إننا لا نستطيع أن نعزل مصطفى صادق الرافعي عـن ذات نفسه وهو يكتب ، إنه كاتب الفكرة الإسلامية ورائد البحث الإسلامي ومنشئ المقالة الإسلامية ولذلك كان كتابه « إعجاز القرآن والبلاغة النبوية » يتسم

---

(١) يمكن مراجعة هذه المقالات في كتاب « على السفود » .

باليقين المطلق ، وكان منهج البحث فيه يتسم بالصدق المطلق ، وكان عرضه لموضوعه يتسم أيضاً بالأمانة المطلقة . وأستطيع أن أقول وبالشمول القريب من حدود الغاية ، رغم ما فيه من آراء وتفسيرات قد لا نوافقه عليها في ظل فهمنا لأهداف القرآن . لقد سد الكتاب ثغرة واسعة في الدراسات القرآنية ، ولا يزال حتى الآن وبعد مضيّ ما يقرب من نصف قرن من الزمان على تأليفه يقف على رأس كتب الدراسات القرآنية ، حتى بين تلك التي كتبها متخصصون متفرغون ، وأكاد أقول إن كثرة عديدة ممن عُنوا بالدراسات القرآنية فيما بعد هم في جوهر ما كتبوا عيال على الرافعي في كتابه العظيم الفريد .

وإذا كان الإيمان هو القبس الذي ينير للباحث في ميدان الدراسات القرآنية سبيله ، فإن الرافعي كان مستمسكاً بهذا الإيمان قابضاً بيده طول الطريق على هذا القبس الذي أضاء له دربه ، وجنّبه الكثير من المزالق التي قد يتردى فيها — ولو دون قصد — بعض الدارسين في نطاق العلوم الدينية .

يقول الرافعي في مقدمة الكتاب معرضاً ببعض من عالجوا الكتابة عن الإعجاز ممهداً الطريق لنفسه بالكتابة فيه[1] « على أن القوم من علمائنا — رحمهم الله — قد أكثروا من الكلام في إعجاز القرآن ، وجاءوا بقبائل من الرأي لوّنوا فيها مذاهبهم ألواناً مختلفات وغير مختلفات بيد أنهم يمرون في ذلك عرضاً على غير طريق ، ويشتقون في الكلام ههنا وههنا من كل ما تمترس به الألسنة في اللدد والخصومة ، وما يأخذ بعضهم على بعض في مذاهبهم ونحلهم ، وليس وراء ذلك كله إلا ما تحصره هذه المقاييس من « صناعة الحق » وإلا أشكال من هذه التراكيب الكلامية ، ثم فتنة متماحلة لا تقف عند غاية في اللجاج والعسر » .

---

(١) الإعجاز ص ٢٢ ط خامسة .

وبعد أن يعرض الرافعي لمذاهب القدامى ويقبل على بحثــه ، نراه يحتاط لنفسه بسياج من التواضع ، فيصف كتابه بأنه محاولة قد تحتاج من غيره إلى من ينقصها أو يتمها ، « فإن مكاره هذا البحث مما لا يسعه طرق إنسان وإن أسرف على نفسه من القهر ، ولا يصلب عليه قلم كاتب وإن كان هذا القلم في يد الدهر » .

في ظل الإيمان السمح ينهي الرافعي مقدمة كتابه بقوله : « على أنّا مع ذلك قد استفرغنا الهمم ، والتمسنا كل ملتمس ، وبرئنا إلى النفس من تبعة التقصير فيما يبلغ إليه الذرع أو تناله الحيلة ، فنهضنا لذلك الأمر نهضاً ، وسكبنا فيه سبكاً محضاً ، فإن قصرنا فضعف ساقه العجز إلينا وإن قاربنا فذلك من فضل الله علينا » .

والرافعي يهيم بالقرآن حباً شأن كل مسلم بالعقيدة لا بالميلاد ، فيحاول أن يعرف به ، فاذا به هائم الوجدان مهتاج القلب مشدود اللب متفتح الإيمان ، وإذا كلماته كأنها سطور من نور يجتلي جمالها القارئ ويذعن لجلالها السامع ، فكاتبنا يعلم أنه يصف خير كتاب أنزل على خير رسول ولذلك جادت قريحته بهذا القول في وصف القرآن في مستهل كتابه [1] « آيات منزلة من حول العرش ، فالأرض بها سماء هي منها كواكب ، بل هي الجند الإلهي قد نشر له من الفضيلة علم ، وانضوت إليه من الأرواح مواكب ، أغلقت دونه القلوب فاقتحم أقفالها ، وامتنعت عليه « أعراف » الضمائر فابتز « أنفالها » . وكم صدوا عن سبيله صداً ، ومن ذا يدفع السيل إذا هدر ؟ واعترضوه بالألسنة رداً ، ولعمري من يردّ على الله القدر ؟ وتخاطروا له بسفهائهم كما تخاطرت الفحول بأذناب ، وفتحوا عليه من الحوادث كل شدق فيه من كل داهية ناب ، فما كان إلا نور الشمس لا يزال الجاهل يطمع في سرابه ، ثم لا يضع منه قطرة في سقائه ، ويلقي الصبي غطاءه ليخفيه بحجابه ، ثم لا يزال النور ينبسط على غطائه . وهو

---

(١) الإعجاز ص ٢٥

هو القرآن كما ظنوا – مما انطوى تحت ألسنتهم وانتشر – كل ظن في الحقيقة آثم ، بل كل ظن بالحقيقة كافر ، وحسبوه أمراً هيناً لأنه أنزل في الأرض على بشر ، كما يحسب الأحمق في هذه السماء أرضاً ذات دواب نورانية لأن هلالها كأنما سقط من حافر ، وكم أبرقوا وأرعدوا حتى سال بهم وبصاحبهم السيل ، وأثاروا من الباطل في بيضاء ليلها كنهارها ليجعلوا نهارها كالليل ، فما كان لهم إلا ما قال الله : « بل نَقْذِفُ بالحَقّ على الباطلِ فَيَدْمَغَه فإذا هو زاهقٌ ولكُم الويْل » . ويمضي الرافعي على رسله في تصويره لأسلوب القرآن وتصوره لمعانيه قائلاً « ألفاظ إذا اشتدت فأمواج البحار الزاخرة ، وإذا هي لانت فأنفاس الحياة الآخرة ، تذكر الدنيا فمنها عمادها ونظامها ، وتصف الآخرة فمنها جنتها وضرامها ، ومتى وعدت من كرم الله جعلت الثغور تضحك في وجوه الغيوب ، وإن أوعدت بعذاب الله جعلت الألسنة ترعد من حمى القلوب » .

نقول : في رحاب هذا الإيمان كان تقديم الرافعي لكتابه ، وأما منهجه فيتمثل في رحلة دينية علميـة ثقافية طويلة تتناول تاريخ القرآن نزولاً وجمعاً وتدويناً وترتيباً ، في بسطة من القول الصادق المعتمد على الحقائق التاريخية الموثوق بها . ثم يتناول البحث الإعجاز الفطري للقرآن والموسيقى اللغوية فيه وتعدد وجوه القراءة واستنباط الأحكام والتلازم بين ألفـاظ القرآن ومعانيه ، ويهتم الرافعي في بحثه هـذا النفيس بالقراءات السبع وإسنادها وقراء الأمصار ومذاهبهم ، وعلماء القراءات ، وشروط القراءة الصحيحة ، ويظل الرافعي ماضياً في الحديث عن لغـة القرآن ومفرداته والأحرف السبعة ، وتأثير القرآن في اللغة ، في منهج متسلسل منمق تعينه دراسة عميقة واعية وتأخـذ بيده مقدرة واستعداد لهذا اللون من الدراسات الجادة .

ويدلف الرافعي إلى الجوانب الاجتماعية مستمدة من طبيعة الإعجاز ، فيتحدث عـن أثر القرآن في تهذيب الروح العربية ، ويفرق بين عصبية

الدم وعصبية الروح ، ويجري دراسة مقارنة بين التوراة والإنجيل والقرآن ، واللغة والقومية والفصحى والعامية ، ويفرد المؤلف باباً طويلاً للآداب القرآنية يضمنه الآداب الإنسانية ، والفرد والجماعة ، والحرية وحدودها ، والقوة الاجتماعية في آداب القرآن ، وشرائع الأرض وشرائع السماء ، والحرية وأركان الفضيلة ، إلى غير ذلك من الموضوعات المتصلة بحياة الأفراد ومجتمعهم موصولة الأسباب بنصوص القرآن وروحه ، مما بعث في الكتاب روحاً جديدة جعلت الناس يتقبلونه على أنه لون جديد لم يألفوا شبيهاً له من قبل ، وقد ترجم عن هذه المشاعر عظماء العصر مثل سعد زغلول باشا والإمام محمد عبده والشيخ محمد رشيد رضا .

على أن الرافعي في كتابه لا يقف عند هذا القدر من الإبداع ، ولكنه يستحدث موضوعات أخرى لعلنا نتحفظ في الحكم عليها ، ولكن لا عليه في ذلك ما دام مقتنعاً بها ، مثل إشارة القرآن إلى المستحدثات العلمية والآيات العلمية ، ولكنه في نفس الوقت يقف بنا طويلاً عند موضوعات على جانب من الأهمية في حياتنا الدينية مثل علوم القراءات والنحو والتفسير والتوحيد وأصول الفقه والتاريخ والقصص القرآني ومذاهب التفسير واستخراج بعض حوادث التاريخ من القرآن بالحساب .

ويتناول الرافعي مذاهب القدماء في معنى الإعجاز وقضية خلق القرآن ، والمعتزلة وآراءهم ، والإعجاز بالنظم وسلامة اللفظ ، والمنكرين للإعجاز ، وينتقل إلى الحديث عن التحدي والمعارضة ويضرب أمثلة لبعض معارضي القرآن من أمثال مسيلمة الكذاب والأسود العنسي وطليحة الأسدي وسجاح التميمية والنضر بن الحارث ، وابن المقفع وابن الراوندي والمتنبي والمعري .

إن كتاب إعجاز القرآن دنيا واسعة من الفكر الجاد والعمل البناء ، قد يكون من الصعب تقديمه في القالب الذي يتفق مع جلاله في هذا البحث الذي استهدفنا فيه الشمول دون التفصيل إلا حيث ينبغي التفصيل ، ولكن الرافعي ظل يقدم لنا الباب تلو الباب في أسلوب القرآن ، ونظم

القرآن ، وإعجاز تأليفه ، بشكل مفصل دقيق في نطاق الحروف وأصواتها والكلمات وحروفها ، والجمـــل وكلماتها ، والطريقة النفسية في الطريقة اللسانية .

ولما كان الكتاب لا يقف عند موضوع إعجاز القرآن ، بل هو يشمل البلاغة النبوية أيضاً فقد قدم الرافعي لنا بحثاً مطولاً ألحقه بالكتاب حول البلاغة النبوية ، وصفة الرسول ﷺ وأحـــكام منطقه ، واجتماع كلامه ، وتأثيره في اللغة ، ونسق البلاغة النبوية ودعائمها .

ولا يجمل بنا أن نمر هكذا على هــذا البحث النفيس دون أن نقدم منه أطرافاً من الأمثلة كشواهد شاهقة على روعة العمل الذي قدمه الرافعي خدمة لكتاب الله العزيز ، إنه حينما يتكلم عن أثر اللفظ القرآني في عرب الجزيرة المتنافرين المتحاربين المفككين يقول[1] : « فالقرآن الكريم بتمكنه من العرب على وحيه المعجز قد نزل منهم منزلة الزمان في عمله وآثاره ، لأن الذي أنزله بعلمه وقدَّره بحكمته إنما هو خالق الزمن نفسه ، فهدم في نفوس العرب ، وكان هدمه بناءً جديداً جعل الأمة نفسها قائمة على أطلال نفسها ، وبذلك أحكم عمــل الوراثة الذي تعمله في الغرائز والطباع ، إذ تبني بالهدم ، وتقيم التاريخ من أنقاض التاريخ ، وهذا هو الفرق بين العمل الإنساني والعمل الإلهي ، وبين شيء يسمّى ممكناً وشيء يسمّى معجزاً » ويمضي الرافعي في منطقه وأسلوبه قائلاً : « بلى ولقد يخيل إليّ أن ألفاظ القرآن كانت تلبس العرب حتى تتركهم كالمعاني السائرة التي لا تزال تطيف بالرؤوس ، فما بين العقل وبين أن تلجه هوادة ، ولا بين الوهم وبين أن تصدعه منزلة ، وكل ما يجيء من قبل الطبع وعلى حــكم الفطرة لا يراه أهله نظراً يقبلونه أو يردونه ، ولكنهم يرونه ضرورة مفضية ليس لهم على حال بدّ من قبولها ، وإلا فأي قوم كان هؤلاء الجفاة وهم لم يستصلحوا

(١) الإعجاز ص ٩١

أنفسهم إلا بما يفسد جماعتهم ، ولم يأبوا أن يرأموا لذل غيرهم إلا ليضرب بعضهم الذلة على بعض ، ولم يتخذوا السيف ناباً إلا ليأكلهم ، ولا الحرب ضرساً إلا لتمضغهم ، وكانوا أهـل جزيرة واحدة ، وكأنهم في تناكرهم أهل الأرض كلها من قاصية إلى قاصية » .

وينتقل الرافعي إلى أثر آخر من آثار إعجاز القرآن وكيف وجّـه العصبية عند العرب من عصبية للجنس إلى عصبية الروح بعـد أن ألف بين قلوبهم وسوّى بين أقدارهم ثم ألف بينهم وبين سائر الأمم المؤمنة . فيقول[1] « ولقد كان إعجاز القرآن أن يجمع هؤلاء الذين قطعوا الدهر بالتقاطع على صفة من الجنسية لا عصبية فيها إلا عصبية الروح ، إذ أخذهم بالفطرة حتى ألف بين قلوبهم ، وساوى بين نفوسهم ، وأجراهم على المعدلة في أمورهم ، فجعل منهم أمة تسع الأمم بوجهها كيف أقبلت ، لأنها لا توجهه إلا لله فكان بينها وبين الله كل ما تحت السماء . ومن هـذا المعنى نشأت الجنسية العربية ، فإن القرآن بـدأ كما علمت بالتأليف بين مذاهب الفطرة اللغوية في الألسنة ، ثم ألف بين القلوب على مذهب واحد ، وفرغ من أمر العرب فجعلهم سبيلاً إلى التأليف بين ألسنة الأمم ومذاهب قلوبها ، على تلك الطريقة الحكيمة التي لا يأتي علم التربية في الأمم بأبدع منها » .

ثم يفرّع الرافعي هـــذه المعاني المجملة تفريعاً جميلاً في دراسة جذابة تستوعب عدة صفحات من كتابه ، وبعد أن يضرب الأمثال ببعض الكتب المقدسة كالتوراة والأناجيل وعـــدم قراءتها بلغتها الأصلية إلا في النادر القليل ، وبعد أن يضرب أمثلة أخرى ببعض اللغات القديمة التي عاصرت العربية في صباها والتي جاءت بعـد ذلك في عصور متأخرة نوعاً مثل الجرمانية التي انشعبت إلى أكثر من لغة ، واللاتينية التي انقسمت إلى لغات ثلاث هي الفرنسية والإيطالية والإسبانية حتى كأن بين اللغة واللغة منها

---

(١) المصدر السابق ٩٢

العـدم والوجود ، يتحدث الرافعي عن القرآن وحفاظه على العربية تحت مختلف الظروف والأزمنة فيقول[1] : « فهذا الذي أمسكه القرآن الكريم من العربية لم يتهيأ في لغة من لغات الأرض ، ولن تتلاحق أسبابه في لغة غير العربية ... فالعربية قـد وصلها القرآن بالعقل والشعور النفسي حتى صارت جنسية ، فلو جُـن كل أهلها وسخوا بعقولهم على مـا زينت لهم أنفسهم من الإلحاد والسياسة كجنون بعض فتياننا ، لحفظها الشعور النفسي وحده ، وهو مادة العقل ، بل مادة الحياة ، وقـد يكون العقل في يد صاحبه يضنّ به ويسخو ، ولكن ذلك النوع من الشعور في يـد الله ، وهـــذا من تأويل قوله سبحانه « إنّا نحنُ نزّلْنَا الذّكْرَ وإنّا لهُ لحافِظون » .

ولا أحسبني قادراً على إنهاء الحديث عن بحث إعجاز القرآن قبل أن أقدم شطراً قليلاً من تصوير الرافعي للجيل الأول من صدر الإسلام الذي تأدب بآداب القرآن ، وباب أدب القرآن عند الرافعي طويل نفيس ممتع ، استغرق صفحات طويلة حوت كل بديع من القول ، وكل أصيل من الرأي نجتزئ منهـــا سطوراً في وصف أثر أدب القرآن في الرعيل الأول من المسلمين ، يقول الرافعي[2] : « وليس من دليل في التاريخ على أن هـذه الأرض شهدت من خلق الله جيلاً اجتماعياً كذلك الجيل الأول في صدر الإسلام حين كان القرآن غضاً طرياً ، وكانت الفطرة الدينية مؤاتيـــة ، وكانت النفوس مستجيبة ، على أنه جيل ناقض طباعه ، وخالف عاداته ، وخرج عما ألف ، وخلق على الكبر خلقاً جديداً ، ومع ذلك فإن الفلسفة كلها ، والتجارب جميعاً ، والعلوم قاطبة لم تنشئ جيلاً من الناس ، ولا جماعة من الجيل ، ولا فئة من الجماعة كالذي أخرجته آداب القرآن وأخلاقه من أصحاب رسول الله ﷺ ، في علو النفس ، وصفاء الطبع ، ورقـة

---

(١) إعجاز القرآن ص ٩٦ ، ٩٧

(٢) المصدر السابق ص ١٠٤

الجانب ، وبسط الجناح ، ورجاحة اليقين ، وتمكن الإيمان ، إلى سلامة القلب ، وانفساح الصدر ، ونقاء الدخلة ، وانطواء الضمير على أطهر ما عسى أن يكون في الإنسان من طهارة الخلق ، ثم العفة في مذاهب الفضيلة من حسن العصمة ، وشدة الأمانة ، وإقامة العدل والذلة للحق ، وهلم إلى أن تستوفي الباب كله ».

لعلنا قد أطلنا الوقفة قليلاً أمام « إعجاز القرآن » وما من بأس علينا في أن نمعن في الإطالة لأن هذا العمل الفني هو « سيد » أعمال الرافعي أو كما يقول الفرنجة « His Master Piece » فقد وهبه كل طاقاته ومنحه كل إيمانه وسكب فيه كل قدراته لأن الرافعي كاتب إسلامي قبل أن يكون كاتباً عربياً ، وقدسية القرآن عنده لا تسمو عليها منزلة إلا قداسة من هذا كلامه ، والقرآن محارب منذ أن أنزله الله على رسوله إلى اليوم وإن اختلفت أسباب الحرب وأساليبها ، إلا أن الحرب المعلنة عليه في هذا العصر هدف من أهداف القضاء على هذه الأمة ومقومات وجودها وتماسك كيانها ، ومن هنا كانت قداسة الفكرة التي أملت على الرافعي كتابة بحثه ، لقد كتبه ولسان حاله يقول متجرداً من كل عصبية إلا انتمائه إلى هذا الدين :

أبي الإسلامُ لا أبَ لي سواهُ   إذا افتخروا بقيْسٍ أو تَميمِ

(٣)

والحق أن هيام الرافعي بالقرآن الكريم وتعلقه به واستمساكه بقدسيته لم يقف به عند حدود كتاب « إعجاز القرآن » ولو أن ما ذكره من نفحات روحه وفيض إيمانه يعتبر كافياً في مجال الدراسة والإقناع . إنما الرافعي لا يفتأ يهيم بالقرآن منذ فجر تفتحه الأدبي إلى مغرب حياته كلها .

لقد أنشأ الرافعي مقالاً طويلاً بعنوان « الرأي العامي في العربية الفصحى »

سنة ١٩١١ كان القرآن الكريم هو حجر الزاوية بين صرح المقال ، وأنشأ مقالاً بعنوان « قرآن الفجر » سنة ١٩٣٧ وهي نفس السنة التي انتقل فيها إلى رحمة ربه ، وفيه يحلق في سمـاء صافية من الشفافية الروحية عندما يسمع القرآن مرتلاً مـع ومضات الفجر في رحاب المسجد ، وبين هذين التاريخين وعلى التحديد سنة ١٩٢٥ يكتب مقال « الجملة القرآنية » يحارب به وبغيره من المقالات المتآمرين على الجملة العربيـــة الفصيحة الداعين إلى استعمال العامية .

لم يكن اهتمام الرافعي بالقرآن الكريم مقصوراً على كتابه « إعجاز القرآن » وإنما كان القرآن الكريم رفيق رحلة حياته من أولها إلى آخرها . ان لنا مـع « قرآن الفجر » و « الجملة القرآنية » مواقف قادمة على صفحات هذا الكتاب ، وإنما نحن نريد أن نقدم مثالاً عن فكرة الرافعي القرآنية من خلال مقاله هـذا البعيد زمناً ، القريب مأخذاً ومنهلاً ، في قوله[1] .

« والقرآن الكريم ليس كتاباً يجمع بين دفتيه ما يجمعه كتاب أو كتب فحسب ، إذ لو كان هـذا أكبر أمره لتحللت عقده وإن كانت وثيقة ، ولأتى عليه الزمان ، أو بالحريّ لنـُفـِّس من أمره شيء كثير عن الأمم ، ولاستبان فيه مساغ للتحريف والتبديل من غـــال أو مبطل ، ولكانت عربيته الصريحة الخالصة عذراً للعوام والمستعجمين في إحالته إلى أوضاعهم إذا ثابت لهم قدرة على ذلـك ، ولو فعلوه لما كان بدعاً من الرأي ولا مستنكراً في قياس أصحابنا ... لأنهم لم يعدوا منفعة طلبوها من سبيلها ، وخطة انتهجوها بدليلها » .

« وليس يقول هذا إلا ظنين قـد انطوى صدره على غِلّ ، واجتمع قلبه على دِخْلة مكروهة ، وإلا جاهـــل من طراز أولئك لا يستطيل

(١) المعركة : مقال الرأي العامي في العربية الفصحى ص ٤٧ ، ٤٨

نظره بتجربة ، ولا ينفذ بعلم ، وإنما هو آخذ بذنب الرأي لا يوجهه ولكن يتوجه معه ، ولا يُقبل به ولكن يدبر به الرأي » .

« إنما القرآن جنسية لغوية تجمع أطراف النسبة إلى العربية ، فلا يزال أهله مستعربين به ، متميزين بهذه الجنسية حقيقة أو حكماً حتى يتأذن الله بانقراض الخلق وطيّ هذا البسيط ، ولولا هذه العربية التي حفظها القرآن على الناس ، وردهم إليها ، وأوجبها عليهم لما اطرد التاريخ الإسلامي ولا تراضت به الأيام إلى ما شاء الله ، ولما تماسكت أجزاء هذه الأمة ولا استقلت بها الوحدة الإسلامية ، ثم لتلاحمت أسباب كثيرة بالمسلمين ونضب ما بينهم فلم يبق إلا أن تستلحقهم الشعوب وتستلحمهم الأمم على وجه من الجنسية الطبيعية لا السياسية فلا تتبين من آثارهم في أنفسهم بعد ذلك إلا كما يثبت من طرائق الماء إذا انساب الجدول في المحيط » .

إن القرآن الكريم عند الرافعي قبلة يتجه دائماً إلى رحابها ، وكعبة يتمسك دوماً بأستارها ، لأنه الإعجاز الذي من خلال دستوره تسعد البشرية وتهتدي ، ولأنه السد المنيع الذي يحول دون المنحرفين أن يبلغوا غرضاً استهدفوه أو أن يصلوا إلى غاية سعوا إليها ، صرعهم وهو باق ، أو هدام وهو صامد « إنّا نحنُ نزّلنا الذّكرَ وإنّا له لحافظون » .

الفصل الثالث

معركة النقد المقدّس

تحت راية القرآن (المعركة بين القديم والجديد)

(١)

وهذا كتاب آخر للرافعي سمّاه « تحت راية القرآن » وسمّاه أيضاً « المعركة بين القديم والجديد» ونستطيع أيضاً أن نسمّيه معركة النقد المقدس، وهو كما يبدو من عنوانيه ، ينتهج الذود عن حمى الدين واللغة . وإذا كان كتاب « إعجاز القرآن » قد تفرغ له الرافعي وألفه كما تؤلف الكتب ، فإن كتاب « تحت راية القرآن » مجموعة من المقالات التي كان يكتبها الرافعي بين عامي ١٩٠٨ ، ١٩٢٩م. ثم ضمت بعضها إلى بعض لتصبح هذا الكتاب الذي يحمل هذا العنوان ، وإذا كان كتاب إعجاز القرآن سبباً في الخصومة المريرة التي احتلت مكانة الصداقة والتقدير بين الرافعي والعقاد ، فإن كتاب « المعركة بين القديم والجديد» كان ثمرة للعداوة الأليمة بين الرافعي وطه حسين .

فالكتاب إذن حصيلة مقالات استمرت ثمانية عشر عاماً في خوض معركة التصدي لمن يحاولون المساس باللغة العربية وآدابها أو يعتدون على المقدسات الدينية وفي مقدمتها القرآن الكريم ، والكتاب لا يضم مقالات الرافعي وحده في هذا المجال ، وإنما رغب الرافعي في أن يضمن كتابه نماذج من مقالات ذوي الأقلام الذين خاضوا المعركة في جانبه وتحملوا جزءاً — ولو قليلاً — من أعبائها مثل الأمير شكيب أرسلان والقاضي عباس فضلي .

والكتاب أيضاً يمثل إحدى مدارس النقد في زمانه وما اتصف من عنف في الفكر والتعبير والسخرية والتهكم عند الجانبين المتخاصمين والرافعي نفسه يعترف بذلك فهو يستفتح كتابه بتبرير العنف لقرائه : لأنه يعمل على « إسقاط فكرة خطرة ، وإذا هي قامت اليوم . الذي نعرفه فقد تقوم غداً بفلان الذي لا نعرفه ، ونحن نردّ على وعلى ذاك بردّ سواء لا جهلنا من نجهله يلطف منه ، ولا معرفتنا نعرفه تبالغ فيه » .

ويمضي الرافعي في استفتاحه هذا الذي جعل كلمة « تنبيه » له كأنما يلفت أنظار القراء إليه قبل أن يندمجوا معه ، فيقول : « و مستيقنون أن ليس في جدال من نجادلهم عائدة على أنفسهم ، إذ هم يضلون إلا بعلم وبيّنة ، فمن ثم نزعنا في أسلوب الكتاب إلى منحى ، نديره على سياسة من الكلام بعينها ، فإن كان فيه من الشدة أو أو القول المؤلم أو التهكم ، فما ذلك أردنا ، ولكنا كالذي يصف الرجل الضال ليمنع المهتدي أن يضل ، فما به زجر الأول ، ولكن عظة الثاني ولهذا في مناحي البيان أسلوب (أي أسلوب الزجر) ولذلك أسلوب غيره (أي أسلوب العظة) . ألا وإن أقبح من القبح ما جعله يسمى قبيحاً ، وإن أحسن من الحسن ما جعله يسمى حسناً ، ولكل معنى باعتباره موضع ، ولكل موضع في حقه وصف ، ولكل وصف في غرضه تعبير ، ولكل تعبير أسلوبه وطريقته ، فهذا ما ننبه إليه » .

وهكذا لكي لا يفاجأ القارئ بالعنف الأسلوبي الشديد الذي جرت عليه مدرسة الرافعي في هذا الكتاب ، لأنه كما قصد الرافعي جهاد في سبيل العقيدة ومنافحة عنها ضد قوم لهم في البيان سهم وفي إحسان القول أسباب ومن وسائل النشر طرق عديدة ووسائل شتى .

والرافعي يحس بخطر المعركة وقدسيتها وما فيها من عنف وما سوف تسببه من عداوة وبغضاء قد تكونان أبديتين بينه وبين خصومه ومن ثم

فإنه يستهل مقدمة الكتاب بصلاة مؤمن ، ويستفتحها بدعاء متبتل تذكر بمقدمات الجاحظ لكتبه التي كانت تجمع إلى الإيمان حلاوة اللفظ وعمق المعنى ورشاقة الأسلوب في ثوب من وقار القول واستقامة العبارة . يدعو الرافعي ربه في مقدمة كتابه الخطير فيقول :

« اللهم هيئ لنا الخير ، واعزم لنا على الرشد ، وآتنا من لدنك رحمة ، واكتب لنا السلامة في الرأي ، وجنبنا فتنة الشيطان أن يقوى بها فنضعف ، أو نضعف لها فيقوى ، ولا تدعنا من كوكب هداية منك في ظل ظلمة شك منا ، واعصمنا أن تكون آراؤنا في الحق البيّن مكان الليل من نهاره ، أو تنزل ظنوننا من اليقين النيّر منزلة الدخان من ناره ، نسألك بوجهك ونتوسل إليك بحمدك ، وندعوك بأفئدة عرفتك حين كذب غيرها فأقرت ، وآمنت بك فزلزل غيرها واستقرت » .

وكتاب « المعركة بين القديم والجديد » ليس كله نزاعـــاً بين مؤلفه وبين الدكتور طه حسين كما يفهم كثير من الناس ، ولكن لأنـــه للدكتور طه آراء جريئة حول الشعر الجاهلي والقرآن ولأن اسم الدكتو طه قد ذكر في أكثر الفصول وبخاصة في المقدمة فقد احتل النزاع . المؤلف وبينه أكثر صفحات الكتاب .

والكتاب يشتمل على مراحل ثلاث في المعارك بين أصحاب وأصحاب الجديد ، المرحلة الأولى تمثل حملة الرافعي على أصحاب الجد بعامـة ، ونظرته إليهم ، وتصويره لهم ، والحديث عن الذوق الأدبي والمرحلة الثانية كانت أعنف من المرحلة الأولى ، وهي تتصل بآراء طه حسين حول الشعر الديني في الجاهلية واتهام المسلمين بمحوه وإسقاطه نـدد الرافعي وأصحابه بهذا الرأي في ضوء المنهج العلمي والتاريخي ، المرحلة الثالثة فكانت أشد المراحل عنفاً وهي الرد على آراء الدكتور حسين في كتابه « في الشعر الجاهـلي » تلك المرحلة التي زعزعت الأدب العربي تحت صاحبه في الجامعة المصرية ووصلت بصاحب الكر

إلى النيابة العامـة واضطرته إلى إصدار بيان يعلن فيه احترامه للإسلام وإيمانه بالله وكتبه ورسله واليوم الآخر .

(٢)

ما هو المذهب الجديد :

في خضم معركة الأصوات العالية التي كانت تنادي بالجديد دون مفهوم واضح محدد له لشدة التفاوت وبعد الاتجاهات الثقافية والقومية عند من نادوا به فاختلفوا بينهم ، وقف الرافعي يتساءل عن ذلك الجديد ، مـا مفهومه وما مشخصاته ، ثم يدلي هو بدلوه في الموضوع من واقع ثقافته العربية الواعية الهاضمة ويضرب الأمثال بأن ما يمكن أن يسمى بالجديد أو القديم وجد في كل حقبة من حقب الأدب العربي ولكن أحـداً من السلف لم يسمه كذلك .

يقول الرافعي[1] : « ولكن ما المذهب الجديد ؟ أنأخذ بالمقابلة فنقول : إذا كان الأبيض هو القديم فالأسود هو الجديد ؟ وإذا كانت الفصاحة ، وإذا كان الحرص على ميراث التاريخ ، وإذا كان القانون الطبيعي للفضيلة الاجتماعية وإذا كنا نولد بجلود كجلود آبائنا — فالركاكة وإهمال القومية التاريخية والتحلل من قيود الواجبات والانسلاخ من الجلد لأنهـا ليست أوربية — كل هذا جديد لأن كل ذلك قديم ؟ أم هناك حقيقة ثابتة محدودة خفيت على عظمها وخطرها في هـذه اللغة خفاء أمريكا في هول المحيط حتى بعث الله لها في أيامنا هذه من يرميها ببصره فكشفها وسمّاها وكان منها المذهب الجديد وكانت هي إياه » .

ويمضي الرافعي ضارباً المثل شارحاً مقصده من واقع التاريخ فيقول :

« لو تأمل أصحابنا تاريخ هـذه اللغة وآدابها لرأوا في كل عصر من

---

(١) المعركة ص ١٠ وما بعدها من مقال : المذهبان .

عصورها شيئاً كان يمكن أن يسمى مذهباً جديداً ، ولكننا لم نجد أحداً سماه كذلك ولا بناه على أنه شيء بنفسه إلا هذه الأيام الأخيرة ، ثم لم نجده إلا في هؤلاء الذين غلبت عليهم صناعة الترجمة ورجعوا من العربية إلى طبع ضعيف ومادة واهنة ، فورد عليهم من الصناعة ما لا تقوم به أداتهم ، وسال بهم الوادي عجزاً فلم يكن بد من أن تدخل الأعجمية الضيم على عربيتهم ، وصار أكثرهم بلغتيه كالميزان ثقلت كفة منه فرجحت وخفت الأخرى فظهرت فارغة ، ولو هو وضع في هذه وزن ما في تلك وكافأ بينهما لانقلب الأمر وكانتا على سواء فلا واف ولا ناقص » .

ويستطرد الرافعي ممحصاً ما سمي بالجديد قائلاً : « إن أرادوا بالمذهب الجديد العلم والتحقيق وتمحيص الرأي والإبداع في المعنى ، على أن تبقى اللغة قائمة على أصولها وعلى أن يكون التفنن « طرائق » كما قيل مثلاً في ابتداع القاضي الفاضل الذي سموه الطريقة الفاضلية لا مذاهب يراد بها إثبات ومحو ، فإننا لا ندفع شيئاً من هذا ولا ننازع فيه ، بل هو رأينا ، بل هو رأي الحياة ، بل هو قانون الطبيعة ، ثم يستدرك الرافعي في هذا المقام فيصر على أن يكون ذلك في ظل قوميتنا وفي نطاق شرقيتنا فيقول : « ولكننا مع هذا نزيد عليه أن الأصل في كل ذلك سلامة اللغة وسلامة القومية ، فلا ننظر في آراء الأمم إلا على أننا شرقيون ، ولا ننقل من لغات الإفرنج إلا على أننا أهل لغة لها خصائصها ، ولا تصرفنا مدنيتهم عن أنفسنا ، ولا نأتي بسيوفهم لرقابنا ، وبنزعاتهم لقلوبنا ، وكوكايينهم لأنوفنا » .

على أن الرافعي وقد حاول أن يربط بين جديد اليوم وجديد الأمس ولم يصل إلى نتيجة مع « المجددين » انتهى إلى أن التجديد ضرب من إضعاف اللغة أسلوباً ولفظاً وإدخال السوقية والعجمة عليها وما أسلوب الصحافة حالياً في بعض البلاد العربية إلا دليلاً على ذلك يقول الرافعي[1] :

---

(١) المصدر السابق ص ١٢ نفس المقال .

« فلما تعطل الزمن وأصبح الأدب صحفياً وآلت العربية وآدابها إلى بضعة كتب مدرسية وانزوى ذلك العلم المستطيل (أي الرواية) وأصبحت المكاتب له كالقبور المملوءة بالتوابيت وفشت العصبية بيننا الأجنبي وحضارته رجع الأمر على مقدار ذلك من صغر الشأن وضعف المنزلة ، واحتاج أهل هذا القليل من العربية إلى أن يعتبروه كلاً بنفسه لا جزءاً من كله ، فكان لذلك مذهباً ومذهباً جديداً .

وتجري محاورة طريفة بين الرافعي وبين واحـــد من الذين يكتبون الجديد على هذا النحو [١] .

– ما هو الجديد الذي تحامون عنه ؟

– هو ما يكتب به في الصحف .

– فإن فيما يكتب الضعيف والساقط والمرذول ، ثم ما هو إلى الجزالة والفصاحة ، ثم ما يلتحق بجيد الكلام ، فأي هـذه تريد ، وأيها ليس قياساً من أصـله العربي المعروف ؟ أفتجعلون النقص مذهباً من كماله ثم لا تكتفون بخطأ واحد وتدعون أن الكمال في نفسه يجب أن يعـد مذهباً من النقص ؟ أم الجديد هو ما يكتب به في الصحف ، تعني لأنك أنت تكتب في الصحف ؟

والخلاصة أن التجديد كما رآه الرافعي ضرب من ضروب الركاكة في العبارة وضعف في الأسلوب من قوم لا يريدون أن تسمى الغلطة باسمها وإذا أخطأوا لا يقولون أخطأوا ولكن ينبغي من وجهة نظرهم أن يقال إنهم أتوا بصواب جديد .

ويعزو الرافعي أسباب نزول اللغة دون منزلتها إلى واحد من ثلاثة [٢] :

« مستعمرون يهدمون الأمة في لغتها وآدابها لتتحول عن أساس تاريخها

---

(١) المصدر مقال الجملة القرآنية ص ٣٠ (٢) المصدر السابق نفس المقال ص ٢٧

الذي هي أمة به ولن تكون أمـــة إلا به ، وإما النشأة في الأدب على مثل منهج الترجمة في الجملة الإنجيلية والانطباع عليها وتعويج اللسان بها ، وإمـا الجهل من حيث هو الجهل أو من حيث هو الضعف ، فإنه ليس كل كاتب يبلغ ، ولا كل من ارتهن نفسه بصناعة نبغ فيها وإن هو نسب إليها ، وإن عدّ في طبقة من أهلها ، والكتابة صناعة لها أدواتها وفيها النمط الأعلى والأوسط وما دون ذلك » .

نظرة الرافعي إلى المجددين :

وإذا كانت هذه هي نظرة الرافعي إلى المذهب الجديد واقتناعه ببعده عن جادة اللغة من نزوع إلى المعجمي وانحراف عن سبيل الفصاحة ، فإن نظرته إلى حاملي لواء هذا المذهب أو من أطلقوا على أنفسهم أو أطلق عليهم البعض لقب المجددين ، لن تكون نظرة مرضية أو متفائلة ، وإنما العكس هو الصواب ، بل هو يرميهم في ضمائرهم وعقائدهم حين يقول[1] : « إن لهم أغراضاً لا مناص أن تجعل لهم عقولاً بحسبها وعلى مقاديرها في المصلحة والمفسدة ، وهم صور من ضمائرهم ، فليس في الملحد يكون ضمير مؤمن ، ولا في الفاجر ضمير تقي ، ولا في المستهتر ضمير ورع ، ومن ثم وجب أن تتحذرهم الأمة ، وأن تقرهم في ذلك الحيّز من تخيلاتهم وأوهامهم ، فهم من الأمة إذا هي غلبت عليهم ، وليسوا منهـا إذا غلبوا عليها ... وهم يريدون بآرائهم الأمـــة ومصالحها ومراشدها ، ويقولون في ذلك بما يسعهم طغيانهم على القول واتساعهم على الكـلام واقتدارهم على الثرثرة ، حتى إذا فتشت وحققت لم تجد في أقوالهم إلا ذواتهم وأغراضهم وأهواءهم ، يريدون أن يبتلوا بها الناس في دينهم وأخلاقهم ولغتهم ، كالمسلول يصافحك ليبلغك تحيته فلا يبلغك إلا مرضه وأسباب موته » .

ويرى الرافعي أن هؤلاء المجددين بما يهدفون إليه من تشتيت لغة الأمة

---

(١) مقدمة الكتاب ص ٥ ، ٦

وعقائد الشعب وتقاليده التي حافظت على طهره وصفاته ، إنما هم – بالرغم من تلقيبهم بالكتّاب أو العلماء أو المفكرين – غلطات إنسانية يخرجها القـــدر في شكل علمي أو أدبي ليعارض بها صواباً كاد يهمله الناس ، فتكون النتيجة أن يعود الناس إلى الاستمساك بهذا الصواب حينما يرون الخطر يتهدده ، والاندفاع يتحيفه ، والشر يحيق بـه . ويضرب الرافعي مثلاً في ذلك من بداهات التاريخ حينما يقول[1] : « وما زالت هذه من عجائب حكمة الله فيما يحوط به هذا الدين الإسلامي وكتابه العربي الخالد ، فكلما وهن عصر من عصوره رماه الله بزنديق ، فإذا الناس أشد ما كانوا طيرة ، وأبلغ ما كانوا دفعاً ومحاماة ، وإذا الدين أقوى مـا كان فيهم وأثبت ، وإذا الزنديق كأنما سيق إليهم من جهنم ليقول لهم : هلم إليها ، فيقول ميسم النار عليه : إياكم وإياها » .

ويعود الرافعي إلى التنديد بهم في مكان آخر من كتابه حينما يجعلهم والزنادقة التي ابتليت بهم الأمة الإسلامية ردحاً من الزمن سواء بسواء ، أليسوا جميعاً قد سفهوا العربية واعتدوا عليها ، وسخروا بالدين ونالوا منه ، وتجرأوا على المقدسات وعبثوا بأقدارها ؟ يربط الرافعي بين هؤلاء وأولئك في قوله[2] : « على أني رأيت لأصحاب المذهب الجديــد أصلاً في تاريخ الأدب العربي ، وكانت جذوره ممن انتحلوا الإسلام وكانوا يدينون بغيره ، وممن كانوا يدينون به وتزندقوا فيه ، حتى قال الجاحظ في بعض رسائله ، يعني هؤلاء وأولئك : فكل سخنـــة عين رأيناها في أحداثنا وأغبيائنا (تأمل) فمن قبلهم كان أولهـا . رحم الله أبا عثمان ، ان التاريخ ليعيد نفسه اليوم بسخنة عين جديدة » .

ويسخر الرافعي من الذين أسموا أنفسهم بالمجددين ، ويرى أن الدافـع

---

(١) المقدمة ص ٧ ، ٨

(٢) المعركة ص ١٧ مقال « المذهبان » .

إلى جرأتهم على اللغة بالاضافة إلى الأسباب التي سبقت الإشارة إليها أنهم ذوو طموح بغير استعداد ولا مؤهل ، ويصوغ رأيه في سخرية لاذعة قاتلة في قوله[١] : « هذا مذهب من الكلام في اللغة لا ينفذ الى تمحيصه ، ويلتوي الظن حتى لا يطاق على تخليصه ، وأنت كيف مددت عينك في هذا الجيل فلست آمناً أن تقع من صغار نشئه الذين يطمحون إلى مشيخة الكتاب ، على ضيّق المجم[٢] ، ضئيل الهم ، ألفّ اللسان[٣] ، ملتفّ البيان ، كالجبل عند نفسه ويوضع في بندقة ، وكالبحر ويصبُّ في فستقة ، وهو مع ذلك يسمّع بالفصاحة والفصحاء[٤] ، ويستطيل في البلاغة والبلغاء ، ويبسط في هذا الرهان من جلده على هزاله ، ويفسح في هذا الميدان من خطوه على كلاله ، ومهما أخطأك فيما يعمّى عليك من حقيقة أمره ، ويكاتم مهب ريحك من دخانه وجمره ، فلا يخطئك أن تستبين منه رأياً كأنه في رأسه نزوة ألم ، وعقلاً مدنفاً لو هو مات لما قطرت له دمعة من قلم » .

وكأني بالرافعي وهو يسخر من المجددين في قولته هذه ، أراد أن يضرب لهم مثلاً في بلاغة القول ونضرة البيان ، مع صناعة بارعة لم تفسد المعنى ولم تنصع لها دقائق الفكرة أو غاية الهدف ، فتقمص شخصية كاتب متفنن من كتاب النثر العربي في أزهى عصوره حين حافظوا على روح أفكارهم وضمنوها الصياغة المحكمة في ثوب من البيان المعجب .

ويمعن الرافعي في السخرية من كاتب مجدد يرى هدم الميراث العربي القديم كله وتسويته بالعدم ، فيقول له[٥] : « أفتحدث أنت للناس لغة وأدباً وتاريخاً ثم طبائع متوارثة تقوم على حفظ اللغة والأدب والتاريخ ،

---

(١) المصدر ص ٤٠ مقال « مقال الرأي العامي في العربية الفصحى » .
(٢) ضيق المجم : ضيق الصدر قليل الوعي .
(٣) ألف : من اللفف وهو من عيوب النطق .
(٤) يسمع بالفصاحة والفصحاء : يعيبهم ويسمع الناس فيهم .
(٥) المعركة ص ٢١ ، مقال : الميراث العربي .

أم تحسب أنك بمقالة عرجاء في صحيفة مقعـدة ... أن تهدم شيئاً أنت بين أوله وآخره كعود من القش يؤتى به لاقتلاع جبل من أصوله ؟ » .

وفي مجال تندر الرافعي بالمجددين وسخريته بهم ونقد أفكارهم وإنكار طريقتهم يعزو إليهم مركب النقص الذي يشعرون به بعد عودة بعضهم من سفرة إلى أوربا ظن الواحد منهم بعدها أنه إنسان آخر لا يليق به أن يظل على ولاء لتراث أهله وعادات مجتمعه ، وتقاليد قومـه ، وعقائد شعبه ، يضرب الرافعي مثالاً لهم من التاريخ مليئاً بالسخرية فيقول[1] : كان أبو خالد النميري في القرن الثالث للهجرة ، وكان ينتحـــل الأعرابية ، ويتجافى في ألفاظه ويتبادى في كلامه ، ويذهب المذاهب المنكرة في مضغ الكلام والتشدق به ، ليتحقق أنه أعرابي وما هو به ، وإنما ولد ونشأ بالبصرة . قالوا فخرج إلى البادية وأقام بها أياماً يسيرة ، ثم رجـع إلى البصرة ، فرأى الميازيب على سطوح الدور فأنكرها وقال : « ما هذه الخراطيم التي لا نعرفها في بلادنا » .

يقول الرافعي : « فهذا طرف من العربية يقابله التاريخ في زماننا هذا بطرف آخر من جماعة قـد رزقوا اتساعاً في الكلام إلى ما يفوت حد العقـل أحياناً ، ووهبوا طبعاً زائفاً في انتحال المدنية الأوربية إلى ما يتخطى العلل والمعاذير ، ورأوا أنفسهم أكبر من دهرهم ، ودهرهم أصغر من عقلهم ، فتعرف منهم أبا خالد الفرنسي وأبا خالد الانجليزي وغيرهم ممـن أجازوا إلى فرنسا وانجلترا ، فأقاموا بها مـدة ، ثم رجعوا إلى بلادهم ومنبتهم ينكرون الميراث العربي بجملته من لغته وعلومه وآدابه ، ويقولون : « ما هذا الدين القديم ؟ وما هذه اللغة القديمة ؟ وما هذه الأساليب القديمة ؟ ويمرون جميعاً في هدم أبنية اللغة ونقض قواها وتفريقها ، وهم على ذلك أعجز الناس عن أن يصنعوا جديداً أو يستحدثوا طريفاً ، أو يبتكروا

---

(١) المصدر ص ١٩ ، مقال الميراث العربي .

بديعاً ، وإنما ذلك زيغ الطبع ، وجنون الفكر ، وانقلاب النفس عكساً على نشأتها ، حتى صارت علوم الأعاجم فيهم كالدم النازل إليهم من آبائهم وأجدادهم ، وصار دخولهم في لغة خروجاً من أخرى ، وإيمانهم بشيء كفراً بشيء غيره ، كأنما لا يستقيم الجمع بين لغتين وأدبين ، ولا يستوي لأحدهم أن يكون شرقياً وأن في لسانه لغة لندن أو باريس ».

والواقع أن نظرة الرافعي إلى المجددين نظرة حادة فيها شدة وعنف فهو بعد أن يدرس آراءهم ويفند حججهم ويدحض براهينهم في منطق العربي الشرقي المسلم ينتهي إلى أن الدافع إلى ما ذهبوا إليه يتلخص في الانقياد للاستعمار في محاولة حرب الدين ومسخ اللغة ، أو الانعطاف إلى نزعة الإلحاد التي فشت عند كثرة ممن نادوا بالجديد والكيد لهذه اللغة المقدسة أو الطموح إلى غايات بعيدة عند من لا يملك الوسيلة أو الاستعداد الكافي لها من أسباب الثقافة اللغوية والتحصيل الأدبي ، أو مركب النقص الذي غلب على كثيرين ممن عبروا البحر إلى أوربا ثم عادوا وقد ظنوا أنهم أوربيون وتخلصوا من كل ما يمت إلى تراثهم وعاداتهم وعقائدهم بسبب قريب أو نسب بعيد.

الذوق الأدبي من خلال المعركة :

بعد أن يعرّف الرافعي بالمذهب الجديد ، وبعد أن يشن الحملة التي شهدنا طرفاً منها على المجددين في مجادلة صابرة ، ومثابرة لا تعرف الكلل ، لا يرى بأساً من خلال مقالاته العديدة وفي فقرات متعددة منها أن يقدم لقرائه شيئاً عن مفهوم الذوق الأدبي عنده ومفهوم النقد الأدبي كما ينبغي أن يكون فيقول[1] :

« وأنت تعلم أن الذوق الأدبي في شيء إنما هو عن فهمه ، وأن الحكم على شيء أنما هو آثر الذوق فيه ، وأن النقد إنما هو الذق والفهم جميعاً ،

---

(١) المعركة ص ١١ ، مقال : « المذهبان ».

ومن هنا جاء ذلك الخطأ الذي يحسبونه صواباً ، على أنك واجـد من من القوم من لا تتهم فهمه ولكنك لا تبرئ إنصافه » .

ويعرّف الرافعي خاصيّة الفصاحة في اللغة العربية فيقول[1] :

« إن الخاصيّة في فصاحة هـذه اللغة ليست في ألفاظها ، ولكن في تركيب ألفاظها ، كما أن الهزة والطرب ليست في النغمات ولكن في وجوه تأليفها ، وهذا هو الفن كل الفن في الأسلوب لأنه يرجع إلى الذوق الموسيقي في حروف هذه اللغة وأجراس حروفها . وأشهد مـا رأيت قط واحداً من أهل « المذهب الجديد » يحسن شيئاً من هذا الأمر ، ولو هو أحسنه لانكشف له من إحسانه ما لا يبقى عنده شكاً في إبطال هذا المذهب وتوهينه ، ولذا تراهم يعتلون لمذهبهم الجديد بالفن والمنطق والفكر ، وبكل شيء إلا الفصاحة ، وإذا فصحوا جاءوا بالكلام الفج الثقيل ، والمجازات المستوخمة ، والاستعارات الباردة ، والتشبيهات المجنونة ، والعبارات الطويلة المضطربة التي تقع من النفس كما تقع الكرة المنفوخة من الأرض : لا تزال تنبو عن موضع إلى موضع حتى تهمد » .

والأمر الطريف أن الرافعي في مجال تقديمه للذوق الأدبي يقسم وحشي الكلام إلى قسمين : وحشي قديم وهو مـا كان خشناً مستغرباً لا يعرفه إلا باحث مطلع ، ووحشي جديد وهو ما كان مفهوماً ولكنه واقع في غير موقعه ، مثـل أساليب « المجددين » من الكتاب ، يقول الرافعي : متماً حديثه مستكملاً وجهة نظره في الذوق الأدبي والمتوحش من الكلام .

« إن الكلام الوحشي الغريب ينقسم إلى قسمين : « ما كان خشناً مستغرباً لا يعلمه إلا باحث مطلع ، وما كان مأنوساً واقعاً في غير موقعه ، كما ترى في أساليب بعض كتاب هذه الأيام التي تنفجر بما لا يطاق على رقتها ، وتهب عليك هبوب النسيم ، ولكنه بين موضع وموضع لا بد أن يكنس

---

(١) المصدر ص ١٧ ، مقال : « المذهبان » .

الأرض . فالقسم الأول نافر بنفسه ، فهو وحشيّ على حالة واحـــدة لا تختلف ، والثاني نافر ، بموضعه ، فهو وحشي يعلو ويسفل على مقـدار اضطرابه ، ثم هي وحشية المذهب الجديد ، اختص بها ، ولا يكادون يتنبهون إليها » .

على أن الرافعي لا يقلقـه تورط المجددين فيما تورطوا فيه من تطاول على اللغـــة وأساليبها ، وهو إذ يقوم بواجبه في مواجهتهم وملاحقتهم ومطاردة بعض الذين أسرفوا على أنفسهم وعلى قومهم في التنكر للغـة الآباء والأجداد ، يقول في ثقة واطمئنان[1].

« إن هـــذه اللغة بنيت على أصل سحري يجعل شبابها خالداً عليها ، فـلا تهرم ولا تموت ، لأنها أعدت منذ الأزل فلكاً دائراً للنيرين الأرضيين العظيمين : « كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، ومن ثم كانت فيها قوة عجيبة من الاستهواء كأنها أخذة السحر ، لا يملك معها البليغ أن يأخذ أو يدع » .

(٣)

الرد على محاضرات الشعر الجاهلي :

لقد بدأت الخصومة بين الرافعي وطه حسين أول ما بدأت واضحة في شكل منافسة على التسابق إلى حيازة المكانـــة الأدبية عند جمهور المتأدبين ، وكان الدكتور طه في هذا السبيل ينال من قدر كل عمل أدبي يصدره الرافعي كائنة ما كانت قيمة هـــذا العمل ، فلما أصدر الرافعي كتابه « رسائل الاحزان » سنة ١٩١٢ حمـل عليه طه حسين في صحيفة الأدب وذكر انه لم يفهمه[2] ، كما لم يفهم كتب الرافعي التي صدرت له قبل ذلك ، مثـل حديث القمر ، والجزء الاول من تاريخ آداب العرب[3] ،

---

(١) المعركة ص ٢٩ مقال : الجملة القرآنية .

(٢) راجع أيضاً حديث الأربعاء ج ٣ ص ٥ – ٣٦ ، ص ١٢٠ – ١٣٠ .

(٣) ظل الدكتور طه حسين على رأيه هذا حتى سنة ١٩٤٠ حينما كان يحاضر طلاب السنة الأولى في كلية الآداب وكان كاتب هذا البحث واحداً منهم .

وكان لا بد للرافعي من أن يدافع عن أدبه ، خاصة وأنه يتزعم فيما يرى بعض القوم المدرسة القديمة في الأدب التي ترى أن النيل من أدب العرب إنما هو تعريض باللغة العربية ، وكل تعريض باللغة إنما هو مساس بالقرآن وبالتالي تطاول على الدين الإسلامي الحنيف ، وكان طه حسين ينسب نفسه إلى مدرسة الجديد أو التجديد التي تتزعمها جريدة السياسة الأسبوعية حسبما مر بنا في صدر هذا البحث ، والتي لم يرض عنها — أي عن هذه المدرسة — كثرة وفيرة من الناس لأنها لم تكن تراعي مشاعرهم في القضايا الدينية حتى اتهمها الكثيرون بالإلحاد والضلال .

لقد واتت الفرصة الرافعي لينال من شخص طه حسين الذي تحامل على مؤلفاته ، فكتب رداً مليئاً بالسخرية اللاذعة والتعريض المر ، وبعث به إلى جريدة السياسة التي هي عرين الأسد بالنسبة لطه حسين ، ولم تجد الصحيفة بداً من نشره ، وكان مستهل الكتاب هكذا[1] : « إلى الاستاذ الفهامة الدكتور طه حسين . يسلم عليك المتنبي ويقول لك :

وكم من عائب قولاً صحيحاً　　وآفته من الفهم السقيم

ولقد رووا أن كيسان مستملي أبي عبيده كان يكتب غير ما يسمع ، ويقرأ غير ما يكتب ، ويفهم غير ما يقرأ ، وكنت أحسب الخبر موضوعاً يُتملح به للظرف والنكتة ، أو معدولاً به عن جهة إلى ناحية المبالغة ، ولكني رأيت فيك دليلاً على أنه إن لم يكن صحيحاً فليس بعيداً ، وإن لم يكن واقعاً فليس يمتنع . أكتب إليك فتفهم غير ما تقرأ ، وأحدثك فتحسب غير ما تسمع ، وأراك إذا انتقدت كلامي دارت بك الأرض حول نفسك فأخذتك الغشية ، ولم يبق في الألفاظ ولا في المعاني ولا في الأساليب ولا في الشعر ولا في النثر إلا صورة تمر بسرعة دوران الأرض ، فلا تتبين منها شيئاً ، ولا تفهم منها شيئاً » .

---

(١) تحت راية القرآن ص ١٠٦ وما بعدها : مقال رسائل الأحزان .

« هن ثلاثة أيها الفاضل : فإما طبيعة في النفس مبنيـة على المكابرة والمراء لا تبالي معها أن تحذف العقل ، وتسقط الخلق ، وتمتهن الكرامة ، وتقول هـذا الذهب حجر ، وهذا الحجر ذهب ، وتمضي في تعليل ذلك وإقامة الدليل عليه والدفـع عنه ، ثم اللجاج والسفسطة وإثبات المنفي ونفي الثابت كما يفعل كل أهل الجدل في غير طائل ولا منفعة ، إلا غلبة ثرثرة على ثرثرة ، وإما طبع في الكتابة مستوخم بارد تجذب إليه أصول ضعيفة في الخيال والفكرة ، فلا يرتفع ارتفاعاً سامياً وإنما يسف ويخبط ، وإما عقل لا كالعقول ونسأل الله السلامة . فما من واحدة من هذه لك بد .

قرأت يا سيدي ما كتبته عن « رسائل الاحزان » مما أتسمح في تسميته نقداً ، وألممت بالغاية التي أجريت إليها كلامك ، وما كان يخفى عليَّ أن في الحق ما يسمى تعسفاً ، وفي النقد مـا يدعى تهجماً ، وفي المنطق ما يعرف بالمغالطة ، وفي كل صناعة ما هو انتحال ودعوى وتلفيق ، وإلا ففيم يخالف بعض الناس على بعضهم ، وكيف ترى الرجل الذي لا بأس بعقله يكون عليه الدين مؤكداً بالأيمان والوثائق حتى لا سبيل إلى إنكاره ثم ينكره ويحلف على ذلك ويكابر فيه ، كأن الذي حلف به عندما أخذ منك غير الذي يحلف بـه عندما أنكر عليك ، ثم يديرك معه على كل أساليب الباطل ويمر بك في كل قضايا المغالطة ، وإن في دمه ولحمه ما لو شق عنه لانطقه الله بأنه كاذب ، ولعمري لقد كنت تكتب غير ما كتبت لو أنك سمعت مني غير ما سمعته في تخطئتك والرد عليك حين قام الجـدال بينك وبين الاستاذ هيكل[1] ، ورأيتك حينئذٍ تكاد تبتلعك ثيابك ، وكأن كلامي منك كالماء يسقي شجرة الحنظل المرّ فما يزيد إلا مرارة ... » .

---

(١) يذكر الأستاذ سعيد العريان في كتابه « حياة الرافعي » ص ١٥٣ ن مشادة حادة جرت بين الرافعي وطه حسين في دار السياسة الأسبوعية بمشهد من الدكتور محمد حسين هيكل خرج الرافعي يتحدث عنها وعن غلبته فيها وصمت طه وهيكل عن الحديث عنها .

ويمضي الرافعي في مقاله العنيف يريد النيل ممن سفه قلمه، ونال من مقدرته، عامداً إلى الزجر حيناً وإلى السخرية حيناً آخر فيقول:

« ثم رأيتك تنحط في منزلة دون المنزلتين مما يدل على بعدك من الإنصاف وذهابك عن حقيقة النقد، فتزعم أن كل « جملة من جمل الكتاب تبعث في نفسك شعوراً قوياً أن الكاتب يلدها ولادة، وهو يقاسي في هذه الولادة ما تقاسيه الأم من آلام الوضع » كذا كذا، لقد نبغت في الخيال بعد أن قرأت « رسائل الاحزان » وستنبغ أكثر من هذا بعد أن تقرأ « السحاب الأحمر » الذي أهديتك إياه، على أني لو أردت أن آخذ معك في كتابتي هذا المأخذ، لجعلتك تتلوى من الكلام المؤلم على مثل أسنان الإبر، ولاستقبلتك بما لا تدري معه أين تذهب ولا كيف تتوارى كالإعصار الذي يأخذ عليك الجهات الأربع من آفاقها ».

ثم يزداد الرافعي شططاً في رده على طه حسين في قالب من التحدي أن يأتي بمثل عمله في فسحة من وقته فيقول:

« ولقد كتبت رسائل الأحزان في ستة وعشرين يوماً، فاكتب أنت مثلها في ستة وعشرين شهراً، وأنت فارغ لهذا العمل وأنا مشغول بأعمال كثيرة لا تدع لي من النشاط ولا من الوقت إلا قليلاً. وها أنا أتحداك أن تأتي بمثلها أو بفصل من مثلها، وإن لم يكن الأمر عندك في هذا الأسلوب الشاق عليك إلا ولادة وآلاماً من آلام الوضع كما تقول، فعليّ نفقات القابلة والطبيبة متى ولدت بسلامة الله ».

ويجيء الرافعي بنص آخر من مقال طه حسين في نقده رسائل الاحزان ثم يرد عليه، وكأن المسألة قد أخذت شكل المحاورة الكلامية المتسمة بالجفاف والعنف إلى درجة التلاحم بالأجسام والتضارب بقبضات الأيدي فيقول: ومنزلة رابعة هي أحط وأدنى من كل الثلاث، فقلت: « أنا أعلم أن الأستاذ الرافعي قد تكلف مشقة لا تعدلها مشقة في وضع هذا

الكتاب ... وهو تكلف العناء في طبعه ونشره، وأنفق مالاً في هـذا الطبع والنشر، فقد يكون من الإسراف في القسوة أن نعرض لعمل كهذا فيه مشقة وعناء ومال فنعلن أنه غير جيد ... الخ » فما أنت والمال والطبع والنشر، ولكن اعلم أن هذا الكتاب لم يمض على صدوره أربعون يوماً معدودة حتى رد كل ما أنفق عليه غرشاً غرشاً وسل كل طابعي الكتب العربية وكل المؤلفين هل اتفق لهم حادث واحد مثل هذا؟ ألا عدّ عن هذا الاسلوب، أسلوب شفقة الضرة على الضرة ».

والمقال طويل يأتي فيه الرافعي بفقرة لطه حسين في نقد كتابه ويرد عليها، وينال من الكاتب وفهمه ومنطقه وأسلوبه في الكتابة إلى درجة لعل طه حسين لم يتعرض لمثلها في حياته، ولئن كان الدكتور طه حسين شديداً نقده إلى درجـــة التحامل، ساخراً بجهود الكتاب إلى حـدّ الإجحاف، فإن الرافعي كان في رده أشد درجات وأقسى مرات، واستعمل من وسائل الطعن وأساليب العنف[1] ما لا يستعمله طه حسين وهو في أشد حالات غضبه، خاصة وأن المعركة حتى الآن كانت معركة شخصية لم تدخل بعـــد في نطاق المعركة المقدسة التي جعلت الرافعي يجعل منها واحدة من أشد المعارك الأدبية في تاريخ الفكر الإسلامي.

على أن المعركة تشتد أكثر وأكثر في نطاق المنهجية العلمية عندما أعلن الدكتور طه حسين في إحدى محاضراته عـــن « تأثير الوثنية واليهودية والنصرانية على الشعر العربي » نتيجتين خطيرتين هما: أنـه لا تأثير للوثنية واليهودية والنصرانية على الشعر العربي والجاهـلي منه بصفة خاصة، وأن ما وجد من الشعر مشتملاً على مبادئ للوثنية أو اليهودية أو النصرانية إنما هو مدسوس على من نسب إليهم وأنه لم يكن موجوداً في عصرهم. وأرجع الدكتور طه حسين هاتين النتيجتين إلى علتين: الاولى، أن الحكام

(١) راجع الفقرة الثانية ص ٦، والفقرة الثانية ص ١١٦ من المعركة.

المسلمين منعوا تداول كل شعر اشتمل على مبادئ هذه الديانات مما يخالف سنن الإسلام ومبادئه ، ومحوه جميعاً ، والثانية ، أن أهل هذه الملل بعد سكون حركة الفتوحات واستتباب السلم وتيقظ الحركة الفكرية في ميدان الأدب والعلم قد دفعهم تعصبهم لشعراء ملتهم السابقين الى التقول عليهم بما لم يقولوه ونسبة أشعـــار إليهم لم تكن من نسج بيانهم ولا هي من نتاج عقولهم .

ويتصدى لهذه الآراء قاض أديب هو الأستاذ عباس فضلي فيطلب إلى الدكتور طه بحق حرمة حرية البحث العلمي أن يفيده عن هـذه الاسئلة التي تدور بخلده في مقال بعنوان : « الدكتور طه حسين وما يقرره[1] » .

— من من ملوك المسلمين وحكامهم هو الذي أمر بوأد الشعر الوثني واليهودي والنصراني ومحوه ؟

— ومَن من أعوان هؤلاء الحكام الذي تولى ذلك ؟

— وكيف كانت طريقة المحو ؟

— وهل كتب لها النجاح في كل بلاد الإسلام ؟

— وهل لم تجد لها في البلاد الاخرى ملجأ إليه ؟

وكانت كل هـــذه الأسئلة من قبل الاستاذ القاضي عباس فضلي أسئلة استنكارية لانه تولى بنفسه من خـلال مقاله الإجابات التي تدل على خطأ القضايا التي أثيرت في محاضرة الدكتور طه حسين والنتائج التي ترتبت عليها ، ذلك أن الشعر كان يتناقل بالرواية وتعيه صدور الحفاظ وأكثرهم لا يعرفون القراءة والكتابة ، فاذا جـاز للحاكم أن يمحو شعراً مكتوباً فكيف السبيل لأن يمحو شعراً محفوظاً في صدور أهل تلك الملل ، وانتقاله إلى بيئتهم وأصحابهم ومعاشريهم .

---

(١) المعركة ص ٨١

وهل يمكن أن يسلم في راحة من الضمير أن ما نسب إلى شعراء هذه الملل منتحل كله وملفق كله . وإذا قيل جدلاً باحتمال الشك في هـــذه الأشعار المنسوبة إلى هؤلاء القوم ، فهل من سبيل عند الدكتور طه ليبين مميزات كل من الشعر الجاهـلي والأموي والعباسي . بحيث يمكن التفريق بين كل منهم في كل فن . وهل يحسن بالأستاذ أن يبين طباع كل شاعر ممن نسب اليهم هـذا الشعر كالأعشى وزهير وعبيد بن الأبرص وغيرهم من شعراء الجاهلية .

ويسوق الأستاذ فضلي دليلاً ضد نظرية الدكتور طـه وهي أن ديناً يحث على نشر العلم ويزهو نبيّه بقوله : « أنا مدينة العلم » يستحيل عقلاً أن يعمل على دثر آثار شعراء تلـك الديانات لمجرد مخالفة مبادئهم لمبادئه وقد جـاء في الكتاب العزيز « لـكم دينكم ولي دين » كما دلت الآثار على أن المسلمين كانوا على فهم تام بهذا المبدأ إذ بينما الخمر محرمـة تحريماً حاسماً فقد وسعت صدورهم أشعار الشعراء فيها ، بل هناك القصائد الكثيرة التي في الأغاني والعقد الفريد وغيرها ما هو صريح في مسائل الملامسة والغزل والمساحقة وغيرها من وسائل التعبير الصريحة ، وبالأخص ما خرج منها على آداب الدين ومبادئه ، ومـع ذلك لم يمنع تناولها ولا أمكن توقيف تسربها من قائليها إلينـا مع طول الفترة التي تفصل بين زمانهم وزماننا .

وتغلب طبيعة القاضي على طبيعة الأديب في نفس الأستاذ فضلي حينما يقول إنه لا يصحّ نسبة الكذب إلى الناس أو الرواة لغير ما علة ظاهرة ... كما أنه لا يتفق مع كرامة العلم واعتلاء كرسي الأستاذية أن يتبرع الأستاذ بسرد التهم جزافاً إلى طوائف وجماعات بغير حجة قائمـة عليهم تبعث اليقين إلى كل من عرضت عليه من أهـل الحصافة ، ومن باب أولى إن الأمانة تقضي بالتريث في الحكم بالإدانة في أية تهمة ، لأن من ألزم اللزوميات لمبادئ العلم رجوعها إلى قضايا يقينية وإلا فقدت قيمتها .

وإذا كانت هذه المبادئ الأولية المسلم بها في كل بحث علمي والواجب اتباعها عند الحكم على أية مسألة من المسائل ، فإن اتهام العرب من المسلمين أو حكام دولهم بأنهم محوا الشعر المشتمل على مبادئ لأهل الوثنية واليهودية والنصرانية تختلف عن مبادئ الدين الإسلامي هو قول لا يرتكن إلى شيء من الحقيقة اليقينية ولا يقوم الدليل على صحته .

ولا يكاد الأستاذ عباس فضلي ينتهي من الرد على ما قاله الدكتور طه حسين في شأن محو شعر الديانات السابقة على الإسلام ، حتى ينهض الأمير شكيب أرسلان للادلاء بدلوه في الموضوع ، بادئاً من حيث انتهى عباس فضلي ، عامداً إلى ضرب الأمثلة العديدة التي تدحض الآراء التي جاءت بمحاضرة الدكتور طه حسين ، ولم يجيء بعضها في مقال الأستاذ فضلي ، ويجعل الأمير شكيب لمقاله عنواناً متصلاً بطبيعة الموضوع وهو « التاريخ لا يكون بالافتراض ولا بالتحكم[1] » .

يقول الامير شكيب معلقاً على منهج الوصول إلى « حقائق تاريخية » على أساس من الافتراضات وهو منهج غربي لا يطبق إلا في حالات خاصة تنال مما يمت إلى العرب والمسلمين بأسباب « عندما يقوم واحد فيذهب إلى أن تاريخ حرب اليمامة محاط بالغموض ، وأن مقاتلة أبي بكر لأهل الردة لم تكن من أجل إقامة الدين بل من أجل تأسيس الملك ، وما أشبه ذلك من التوجيهات التي لم يقم عليها أدنى دليل ، نعلم أنه حاول أن ينهج مناهج المحصين فظن التمحيص مجرد الخروج على الإجماع ولو كان الإجماع صحيحاً ، فلم يصب المرمى[2] » .

ويستطرد الأمير شكيب فيستعمل كلمة (سانسير) الفرنسية وهي بمعنى

---

(١) المعركة ص ٨٧ وما بعدها .

(٢) المعروف بإجماع المؤرخين أن حرب الردة بدأت أصلاً عندما منع المرتدون الزكاة وهي الركن الثالث من أركان الاسلام ، فلم تكن المسألة تأسيس ملك ولكن محافظة على أركان الدين وجوهره .

الرقيب على المطبوعات ، فيقول : « وعندما يقوم آخر – يقصد الدكتور طه حسين – فيدعي أن السلف في صدر الإسلام وضعوا (سانسوراً) على الشعر الجاهلي المشرب مبادئ الوثنية أو النصرانية أو اليهودية ، نعلم أن هذه الدعوة مبنيّة على الافتراض والتخيل وأنها لا تستند على دليل – بل الواقع يناقضها من كل الجهات – وليس هناك أي دليل ضد حقيقة حرية الرواية وأن بابها كان مفتوحاً على مصراعيه ، وأن عصر الصحابة لم يعرف « رقيب » المطبوعات ولا « رقيب » الرواية ولا تكميم الأفواه ولا « دواوين التفتيش » بل كان ذلك كله لا بعضه يقع في روما والقسطنطينية على عهد القياصرة وحكم البابوات وغيرهم من ملوك فرنسا.»

وطبيعة النصوص التي بين أيدينا كلها تنقض الرأي الذي جاء في محاضرة الدكتور طه حسين . فقصة اعتناق النعمان بن المنذر للنصرانية لما في النصرانية من فضائل ودعوة إلى الخير والصدق رواها رواة مسلمون .

والإشادة بوفاء السموأل وأخلاقه جرت من عهد إلى عهد على ألسنة الرواة المسلمين حتى أصبح موضوعاً للأمثال فقيل : أوفى من السموأل . ولا زالت قصيدة السموأل التي يفخر فيها بيهوديته في كل كتب الأدب قديمه وحديثه .

وحتى قصائد المشركين في هجاء النبي لم يمنع أحد رواياتها ، وهل هناك أكثر جرأة على الرسول من قول الشاعر المشرك ابن الزبعرى في أحُد :

لعبتْ هاشمٌ بالدين وما نبأٌ جاء ولا وحيٌ نزلْ
ليْتَ أشياخي ببدْرٍ شهِدوا جَزَعَ الخزْرَجِ مِنْ وَقْعِ الأَسَلْ

وحملت الرواية الأبيات الكريهة التي قيل إنها جرت على لسان يزيد يوم جيء إليه برأس سيد الشهداء الحسين :

مُذ أقبلتْ تلك الرؤوسُ وأشرقتْ تلك الشمُوسُ على رُبَى جَيْرونِ
صاح الغرابُ فقلتُ : صِحْ أو لا تصح إني قضَيْتُ من النبيِّ ديوني

ولم يحذف المسلمون أثناء عزة الإسلام الأولى قول الشاعر النصراني الأخطل رغم تعريضه بأركان الإسلام :

ولستُ بصائمٍ رمضانَ عمري ولستُ بآكلٍ لحْمَ الأضاحي
ولستُ بقائلٍ ما عشْتُ يوماً قُبيْلَ الصبحِ حيَّ على الفلاح

لقد رويت كل هذه الأشعار وغيرها كثير لأشعار مشركين ويهود ونصارى ، والنصوص أمامنا كثيرة ، ولم يقل أحد أن رقيباً قد أعمل قلمه فيها ومنع روايتها أو كتابتها .

لقد ضمن الرافعي كتابه « المعركة بين القديم والجديد » مقالتيْ الأستاذ فضلي والأمير شكيب أرسلان ، وقد وضعها في ترتيب الكتاب بحيث تكونان سابقتين لمقالاته وإسهامه في الرد على الدكتور طه ، وقد كتب الرافعي في موضوع « محو شعر غير المسلمين » أربع مقالات كأنها شواظ من نار تفيض بالحجج القوية ، ولكنها في نفس الوقت مليئة بجميع أسباب النيل الشخصي من الدكتور طه حسين ، وكان يمكن للرافعي أن يكتفي بسرد أدلته على نسق مقال كل من عباس فضلي وشكيب أرسلان ويكسب المعركة ، ولكنه أدخل العداوة الشخصية التي كان يكنها لطه حسين — وكان طه أيضاً يكنّ مثلها له — في الموضوع ، فجاءت مقالاته في هذا السبيل نهجاً إلى الهجاء أقرب منها إلى الموضوعية العلمية .

كتب الرافعي مقالات أربع تحت عناوين « إلى الجامعة المصرية » ، « وإلى الجامعة أيضاً » و « شهد شاهد من أهلها » و « فلسفة كمضغ الماء » .

ولعل أخف هذه المقالات جميعاً من ناحية النيل الشخصي من طه حسين ، مقالة « إلى الجامعة المصرية »(١) ، التي يستفتحها بقوله : « قرأت في بعض الحكم هذه الكلمة : تحرز من سكر السلطان وسكر المال وسكر العلم

(١) المعركة ص ١١٣

وسكر المنزلة . ولست أعرف أحداً قد سكر من هذه الأربع حتى عربد وخرج إلى السخف والهذيان غير الأستاذ المربع ... الدكتور طه حسين منذ ولي تدريس الأدب في الجامعة »

ويستطرد الرافعي في الحملة على الدكتور طه مفرعاً أسباب السكر التي افتتح بها مقاله « سكر الدكتور طه لأنه سُلم إلى وزارة المعارف مع الجامعة بعقد واحد ، وهذا سكر السلطان ، ثم حثوا له من خزانة الدولة قبل أن يسمعوا منه حرفاً في تاريخ الأدب أو يعرفوا له وزناً فيه أو يبلوا منه بلاء ، وتلك سكرة المال ، ثم ابتدع للجامعة علماً يلقيه على من يذهب إليه من عرض الطريق وإن كان لا يميز بين أبي جهل وأبي زرع ، فجاءت من ذلك سكرة العلم ، ورأى مع هذا أنه قارٌّ في منزلته ، ويريدون أن يجعلوه آمناً من العزل ممنوعاً من الصرف ، فتم له سكر المنزلة » .

ويمضي الرافعي بعد ذلك في أسلوب حاد يشكك في علم طه حسين ومنزلته مع صفات أخرى يمكن الرجوع إليها في المقال ثم يتوجه إلى إدارة الجامعة بهذه الاسئلة :

١ — هل قرر أستاذها أن المسلمين محوا شعر النصارى واليهود ومنعوا روايته خوفاً على الإسلام ، فمن أجل ذلك لم ينته إلينا من شعرهم شيء ؟

٢ — وأنه لا يوجد شعر جاهلي بل هو مصنوع بعد الإسلام ، وأن هذا الجاهلي لا يستشهد به على القرآن ، بل القرآن هو الذي يحتج به على الشعر ؟

٣ — وأن العصر الجاهلي الذي ضاع شعره قد حفظ لأن القرآن الكريم يمثله ؟

٤ — وأن الغزل المروي لامرئ القيس هو لعمر بن أبي ربيعة ؟

وبعد أن يسخر الرافعي من الجامعة ومن طه حسين يختم مقاله بتشطير لبيت المتنبي عن مصر :

« وماذا بمصر من المضحكات » وحسبك طه حسين بها
« ولكنه ضحك كالبكا » على علمها وعلى كتبها

ومن أخف ما قيل في نقد طه حسين في هذه المقالات الأربع قول الرافعي في مقاله « فلسفة كمضغ الماء »[1] :

« ومن العجيب أن أستاذ الجامعة الدكتور طه حسين لم ينتهج إلا الطريقة التي لا تلتئم مع طبيعة هذا التاريخ ، فهو يبحث دائماً عن العلة في أحد شيئين : إما في غير معلولها ، وهذا خطأ كبير ، وإما في معلولها بعد أن يغيره على ما يتوهم ، وذلك شر من الأول ، ومثل هذا إن سمي بحثاً وسمي فلسفة في التاريخ لا يمكن البته أن يسمى تاريخاً ، ولا يخرج منه إلا كلام مستفيض هو على كل حال كلام قائله ، وعلى قدر من عقله وذكائه واطلاعه وطريقة فهمه ، لا بحسب التاريخ ورجاله وعلله ، فيكون الأستاذ كأنما يدرس فناً من الكلام بعض مادتـه من التاريخ لا فناً من التاريخ بعض مادته من الكلام » .

أما بقية المقالات وما ضمت من فقرات ، وما حوت من معان وجمل ، فكانت الموضوعية فيها تنتمي إلى الجزئية وكانت أسباب الهجاء فيها تنتمي إلى الكلية ، ولو أنها صيغت بحججها وقرائنها بعيدة عن التحامل الشخصي لكانت أفضل ، ولكن يبدو أن الغضب كان مستبداً بالرافعي والحفيظة غالبة عليه لأن طه حسين ما ترك له إنتاجاً إلا ونال منه ، وكان الرجل بحكم بعده عن مراكز الضوء محتاجاً إلى التشجيع والكلمة الطيبة لا إلى التعويق والكلمة الساخرة مع ما هو عليه من نبوغ يحسه في نفسه وعبقرية يلمسها الناس فيه .

(٤)

معركة كتاب الشعر الجاهلي :

كل هذه المساجلات العنيفة التي جرت بين الرافعي وشكيب أرسلان وعباس فضلي من ناحية وبين طه حسين من ناحية أخرى أخـذت مكانها

---

(١) المعركة ص ١٣٣ وما بعدها .

هذا العنيف وكتاب الشعر الجاهلي لم يظهر بعـــد ، بما حوى من آراء أقامت قيامة علماء المسلمين وأدبائهم وأقعدتهم .

والحق أن المعركة والأمر كذلك وابتداء من تلك اللحظة لم تكن بين الرافعي وحده وبين طه حسين ، ولكنها كانت بين جمهور المؤمنين وعلى رأسهم الرافعي صاحب أقوى قلم بينهم وبين طه حسين ، ذلـك أن طه حسين قد زعم لنفسه ولغيره من الكتاب الحق في أن يتجرد من دينه(١) ليحقق مسألة علمية أو رأياً أدبياً أو رواية تاريخية ، وأنكر هجرة سيدنا ابراهيم وولده إسماعيل إلى مكة وفي ذلك تكذيب للقرآن الكريم ، كما وصف القرآن بالتحايل وخلق هذه القصة لإثبات الصلة بين اليهود والعرب وبين الإسلام واليهودية ، وأورد طه حسين في كتابه ان بناء اسماعيل وابراهـيم للكعبة ليس إلا مجرد أسطورة ، مكذباً بذلك آيات الكتاب العزيز ، وزعم أيضاً أن القراءات ليست منقولة عن النبي ولكنهـــا من اختلاف لهجات العرب ، كما أورد الدكتور طه آراء غير لائقة حول شعر الأنصار في الذود عن حياض النبي ، وشعر قريش في هجاء الرسول ممـا ينال من رسول الإسلام والفكرة الإسلامية ذاتها إلى غير ذلك مما أشرنا إليه عن النزعات التي حاربت العقيدة .

لقد انبرى للرد على الدكتور طه حسين عدد كبير من العلماء والأدباء منهم الأمير شكيب أرسلان والقاضي الأستاذ عباس فضلي ، والشيخ محمد الخضر حسين ، والأستاذ محمد لطفي جمعه والاستاذ محمد فريد وجدي والدكتور محمد أحمد الغمراوي والشيخ محمد الخضري والشيخ محمد أحمد عرفة وكثرة وافرة من علماء المسلمين ، غير أن مصطفى صادق الرافعي خص طـه حسين ببضعة

---

(١) النظرية ليست من ابتكار الدكتور طه حسين ولكنها لعالم الاجتماع اليهودي الفرنسي «دوركايم» ومعروف أن كثرة من علماء اليهود يبتكرون مثل هذه الأفكار ويصوغونها صياغة «علمية» وينشرونها بين جمهرة الدارسين لتشكيكهم في معتقداتهم ومقدساتهم ، والأمثلة كثيرة في هذا المجال .

وعشرين مقالاً بعضها في دحض القضايا التي جاءت في كتاب الشعر الجاهلي والبعض الآخر نيل من الدكتور طه حسين نفسه وتقريع له وتشهير به ، ومن الطريف أن الرافعي عمد في بعض مقالاته إلى اصطناع أسلوب كليلة ودمنة ومنهجه ، الأمر الذي جعل كثيرين من القراء يزدادون شغفاً بمقالاته التي كانت تنشر في جريدة « كوكب الشرق » آنذاك .

ليس من شك في أن مقالات الرافعي في هدم كتاب الشعر الجاهلي كانت أخطر المقالات التي كتبت في هذا السبيل وأشدها مراساً وأنفذها في تأليب الناس عليه ، ذلك أن ثقافة الرافعي الدينية والأدبية — وحسبنا في ذلك كتابه « إعجاز القرآن » — كانت تسمح له بأن يكون فارس الحلبة في هذه المعركة المستعرة الأوار . ومن تقرير الحقيقة أن الدكتور طه حسين لم يستطيع أن يجادل الذين واجهوه بالنقد فآثر الصمت أول الأمر ثم ما لبث أن أعلن توبته في خطاب بعث به إلى مدير الجامعة .

لقد بدأت المعركة بادئ ذي بدء دينية محضة ، فدين الناس وعقيدتهم معتدى عليهما ، ثم شاءت الظروف أن تعطيها وجهاً سياسياً كاد يطيح بالوزارة المعاصرة للمعركة وكان يرأسها عدلي باشا يكن ، ثم انتهت المسألة قضائياً بجمع الكتاب وإعدامه ومحاكمة طه حسين وفصله من الجامعة[1].

ولعل أخطر المقالات التي هدم الرافعي بها مزاعم « الشعر الجاهلي » هي « قال إنما أوتيته على علم ، بل هي فتنة » ومقال « أستاذ الآداب والقرآن » ومقال « موقف حرج لوزارة المعارف » و « طه حسين ابن الجامعة البكر » ، « عصبية طه حسين على الإسلام » ، ففيها تعقب الرافعي جميع آراء طه حسين رأياً رأياً ، وأخذ يدحضها بالحجة الدامغة ويهدمها بالدليل الملموس من واقع كتب مؤرخي الأدب العربي ، ويرد أفكاره إلى

---

(١) عاد الدكتور طه حسين بعد ذلك بسنوات قليلة أستاذاً بالجامعة وظل بها إلى أن عيّن مستشاراً لوزارة المعارف « التربية والتعليم » المصرية عام ١٩٤٣ .

أصحابها من فئة المستشرقين الذين جعلوا هدفهم الطعن على الإسلام والتشكيك في القرآن لغير ما سبب إلا حقد دفين على هذا الدين وخدمة للاستعمار الذي يشجعهم ويمولهم .

لقد كانت أولى مقالات الرافعي في معركة « الشعر الجاهلي » تشعر بإرهاصات العنف الذي ينتظر الكتاب ومؤلفه إذ كان عنوانها « قال إنما أوتيته على علم ، بل هي فتنة[1] » .

ألم يسجل الرافعي في افتتاح الكتاب جملته التي تؤذن بالشدة والعنف حين قال : « فإن كان فيه — أي في الكتاب — من الشدة أو العنف أو القول المؤلم أو التهكم. فما ذلك أردنا ولكنا كالذي يصف الرجل الضال ليمنع المهتدي أن يضل ، فما به زجر الأول ولكن عظة الثاني » .

إن الرافعي يبرّ بوعيده في أول مقال عن الكتاب حين يقول في إحدى فقراته : « وإنه لولا ضعف خيال الدكتور طه وبعده من الصناعة الفنية في الأدب واستسلامه لتقليد الزنادقة وبعض المستشرقين الذين لا يوثق برأيهم ولا بفهمهم في الآداب العربية ، ثم لولا هذه العصبية المقوتة التي نشأت فيه من هاتين الصفتين إلى صفات أخرى يعرفها من نفسه حق المعرفة ، لكان قريباً من الصحة فيما يرى ، ولتدبر الأمور بأسبابها القريبة منها ، واستعان عليها بما يصلحها ، ولتوقى بذلك جناية التهجم التي هي في أكثر أحوالها علم الجهلاء ، وقوة الضعفى ، وكياسة الحمقى وعقل الممرورين » .

ويحمل الرافعي على العصبية التي توجد عند بعض العلماء فتفسد علمهم وتسيء إلى شخصيتهم قائلاً :

« على أن العصبية هي دائماً نصف الجهل وإن كانت في أعلم الناس وأذكاهم ، وقديماً أفسدت من تاريخ الأدب العربي أكثر مما أفسد الغلط

---

(١) المعركة ص ١٢٨ وما بعدها .

والجهل معاً ، وقد نصوا على أن ذهاب الواضح الجلي من الأدب الذي لا يمترى فيه ، إنما يكون على اثنين ، أحدهما : من لم يكن مرتاضاً بالصناعة متدرباً بالنقد ، بصيراً بما يأتي ويدع ، والثاني : الرجل العالم يعرف أنه يعرف ثم تحمله العصبية على دفع العيان وجحد المشاهد ، فلا يزيد على التعرض للفضيحة والاشتهار بالجوز والتحامل[1] » ثم يمضي الرافعي في تصوير المواصفات التي يجب أن تتوفر في شخصية من يمكن أن يكون أستاذاً للأدب وناقداً أدبياً استطراداً في قوله :

« هذا في العالم المتدرب المرتاض ، فكيف بالعصبية في العالم القائم على ركن واحد من ثلاثة أركان ؟ فإن أستاذ الآداب يجب أن يجمع إلى الإحاطة بتاريخها وتقصي موادها ذوقاً مهذباً مصقولاً ، وليس يمكن أن يأتي له هذا الذوق إلا من إبداع في صناعتي الشعر والنثر ، ثم يجمع إلى هذين الإحاطة والذوق ، تلك الموهبة الغريبة التي تلف بين العلم والفكر والمخيلة ، فتبتدع من المؤرخ الفيلسوف الشاعر العالم شخصاً فوق هؤلاء جميعاً ، هو الذي نسميه الناقد الأدبي » .

بعد هذه القضايا التي ساقها الرافعي في شكل مقدمات يدلف إلى حميم حميم موضوع الجدال وهو كتاب الشعر الجاهلي ، وكان أول شيء بحث عنه في ثنايا الكتاب هو موضوع محو المسلمين شعر النصارى واليهود فوجد أن الدكتور طه قد أجرى فيه تعديلاً خفف من حدته وأدخل عليه بعض الحذف والاحتراس ، ثم كرر الرافعي الحجج التي ساقها كل من الأستاذ عباس فضلي والأمير شكيب أرسلان مع إضافات أتى بها ليقيم بها حججاً جديدة أمام قضية حذف شعر النصارى واليهود .

ثم يثير الرافعي بعد ذلك القضايا التي تمس الدين مما ورد في كتاب

---

(١) يشير الى ترديد الجاحظ لأهل الفطن في قولهم : ان محض العمى التقليد في الزندقة ، لأنها إذا رسخت في امرىء تقليداً أطالت جرأته واستغلق على أهل الجدل إفهامه .

الشعر الجاهلي ويردّ عليهـا في عنف ، ويسفهها في سخرية ، وهو في كل ذلـــك أو بعضه لم يرحم المؤلف وكال له من أصناف الصفات المهينة الشيء الكثير .

يقول الرافعي في معرض الحديث عن الكتاب ومؤلفه : « من أقبح ما في كتاب الدكتور طه حسين أنـه يعلن في مقدمته تجرده من دينه عند البحث ، يريد أن يأخذ النشئ بذلك » ويأتي الرافعي بنص جملة طه حسين في ذلك وهي « يجب حين نستقبل البحث عن الأدب العربي وتاريخه أن ننسى قوميتنا وكل مشخصاتنا ، وأن ننسى ديننا وكل مـــا يتصل به » ويستطرد الرافعي قائلاً معلقاً على هذا الرأي : وهذا لعمري هو منتهى الجهل ، فإن هناك فرقاً بين البحث عن حقيقة فلسفية محضة ، وبين البحث عن حقيقة أدبية تاريخة قائمة على النص وقول فلان فلان ، وإذا هو نسي دينه (وتأمل هذه العبارة) فماذا يكون من أثر هذا التاريخ ما دامت المادة التاريخية لم تجتمع له كما أسلفنا ، ومـا دام الأستاذ مبتلى بالنقص من كل جهة [1] .

ويرد الرافعي على قضية اختلاف لهجات العرب وما ذهب إليه الدكتور طه حسين من أنها أثرت في الشعر، وأنه لما كان شعر الجاهلية ليس فيه شيء منها فهو موضوع بعد الإسلام .

يسخر الرافعي سخرية شديدة من هـذا الرأي الذي ذهب إليه طه حسين ، ويقول مستهزئاً : فما هي اللهجات يا أستاذ الجامعة ؟ كان ينبغي أن تستقريها قبل أن تعترض بها ، فإنك لو فعلت لرأيتها في الجملة لا تغير شيئاً من أوزان الشعر ، ويستطرد الرافعي في بحث علمي يرد بـه على طه حسين ، ويضرب الأمثلة من المأثور للذي قيـــل بلهجات العرب كنطق القاف كافاً عند بعض بني تميم في قول الشاعر :

---

(١) المعركة ص ١٤١ مقال ؛ قال إنما أوتيته على علم .

ولا أكول لكدر الكوم قد نضجت   ولا أكول لباب الدار مكفول

يقصد لا أقول لقدر القوم ... الخ .

ويضرب الرافعي مثلاً آخر من لغة حمير ، وهي إبدال لام التعريف ميماً كقولهم :

ليس من امبر امصيام في امسفر ، والمراد ليس من البر الصيام في السفر .

ومن ثم فتأثير اللهجات على الوزن والتقطيع الموسيقى والبحر والقافية أمر خاطئ .

وفي مقال « أستاذ الآداب والقرآن » يستهل الرافعي حملتـــه بقول صديق من أدباء المسيحيين : « ويحـــكم أيها الأدباء الكتاب الذين أقاموا القيامة على رسالة الأستاذ الشيخ علي عبد الرزاق ، فإن هذه الرسالة إنما هي تسبيح لله في جنب كتاب طه حسين الذي درسه في الجامعة » ويرد الرافعي على الصديق الأديب المسيحي قائلاً : « وكتاب طه حسين هو تسبيح لله في جنب ما يكون فيَ نفس طه حسين ، فلولا دين الحكومة والقضاء والنيابة — كما يقول هو في كتابه — لكان قد هدم السماء والأرض وترك الآخر يلعن الأول ، ولافترى بـين يديه ورجليه ويسرته ويمناه ، وما فوق ومـا تحت ، سخطة على الدين وكتابه ، وعلى الإسلام ونبيه ، وعلى الأمة وعلمائها » .

إن الرافعي أكثر عنفاً مما توقعنا حين قرأنا إنذاره في صدر الكتاب ، ولكنه كان بدوره يدافع عن عقيدة آمن بها ، وكتاب وهبه كل القداسة والإجلال ، وهو في مجال المقارنة بين شخص علي عبد الرزاق وطه حسين يقول في هامش المقال « ويخيل إلينا أن بعض الناس لهم قوة على تنويم إبليس تنويماً مغناطيسياً ، فالأستاذ البليغ الذكي الشيخ علي عبد الرزاق نوَّم إبليس وتلقى بعض آرائه، أما طه حسين فنوَّمه إبليس » .

بهذا الاسلوب وأشد منه يصل الرافعي إلى القول الجريء على القرآن الذي أثبته الدكتور طه حسين في كتابه ص ٢٦ بقوله :

« للتوراة أن تحدثنا عن ابراهيم واسماعيل ، وللقرآن أن يحدثنا عنهما أيضاً ، ولكن ورود هذين الاسمين في التوراة والقرآن لا يكفي لإثبات وجودهما التاريخي ، فضلاً عن إثبات هذه القصة التي تحدثنا بهجرة اسماعيل وابراهيم إلى مكة . ونحن مضطرون أن نرى في هـــذه القصة نوعاً من الحيلة في إثبات الصلة بين اليهود والعرب من جهة ، وبين الإسلام واليهودية والتوراة والقرآن من جهة أخرى » .

ويستبدّ الغضب بالرافعي فيقول[1] : فانظر إلى هذه الوقاحة في قوله « للقرآن أن يحدثنا » كأنه زعم زاعم له أن يقول أو لا يقول ، وإذا لم يكف النص في كتاب سماوي تدين به الأمة كلها لإثبات وجود المنصوص عليه فمـا بقي معنى لتصديقه » ويردد الرافعي الآية الكريمة « وإذ يرفعُ إبراهيمُ القواعِدَ مِنَ البيْتِ وإسماعيل » .

ويورد الرافعي لطه حسين نصاً يفهم منه أنه كانت لقريش نهضة وثنية دينية وأخرى مادية تجارية ، وحاولت قريش أن تبحث لنفسها عن أصل تاريخي فتقبلت أسطورة بناء الكعبة كما قبلت روما أسطورة يونانية مشابهة ، يقول طه حسين ص ٢٨ من كتابه :

« فقريش إذن كانت في هذا العصر ناهضة نهضة مادية تجارية ، ونهضة دينية وثنية ، وهي بحكم هاتين النهضتين كانت تحاول أن توجد في البلاد وحدة سياسية وثنية مستقلة ... وإدا كان هـذا حقاً ، ونحن نعتقد أنه حق ، فمن المعقول أن تبحث هذه النهضة الجديدة لنفسها عن أصل تاريخي قديم يتصل بالأصول التاريخية الماجدة التي تحدثت عنها الأساطير ، وإذن

---

(١) المعركة ص ١٤٦ ، مقال : أستاذ الآداب والقرآن .

فليس ما يمنع قريشاً من أن تتقبل هذه « الاسطورة التي تفيد أن الكعبة من تأسيس اسماعيل وابراهيم ... كما قبلت روما قبل ذلك ولأسباب مشابهة « أسطورة » أخرى صنعها اليونان تثبت أن رومة متصلة بإينياس بن بريام صاحب طروادة » .

يقول الرافعي معلقاً [١] : انتهى كلام الجامعــة المصرية يعني الجامعة في شخص أستاذها « ومعناه الصريح أن قريشاً قبلت الأسطورة الخرافية التي تثبت أن الكعبة من بناء اسماعيل وابراهيم ، وأخذها مَنْ وضع القرآن عن قريش لأنه منهم ، وبذلك تجزم الجامعة المصرية أن في القرآن كذباً وتلفيقاً ، لأن الاسطورة كما يقول أستاذها صفحة ٢٩ « حديثة العهــد ظهرت قبل الإسلام واستغلها الإسلام لسبب ديني » أي فهي كذب صريح يعلم الإسلام أنه كذب ، ويتغفل بــه العرب لسبب ديني ، فماذا بقي من هذا الدين الذي يتناول الخرافة المخترعة قبــل الإسلام بقليل ويوردها في كتابه على أنها منزلة من السماء وأنها وحي يوحى ؟ » .

ويستطرد الرافعي ممسكاً بقبضته عنق « الشعر الجاهلي » : « وتماماً على هذه الخرافة يقول أستاذ الجامعة في صفحة ٨٠ » فهو – يعني القرآن – يذكر التوراة والإنجيل ، ويجادل فيهما اليهود والنصارى ، وهو يذكر غير التوراة والإنجيل شيئاً آخر ، وهو صحف ابراهيم ، ويذكر غــير دين اليهود ، والنصارى ديناً آخر هو ملة ابراهيم ، هو هــذه الحنيفية التي لم نستطع إلى الآن أن نتبين معناها الصحيح ، وإذا كان اليهود قد استأثروا بدينهم وتأويله ، وكان النصارى قد استأثروا بدينهم وتأويله ، ولم يكن أحد قد احتكر ملة ابراهيم (تأمل) ولا زعم لنفسه الانفراد بتأويلها ، فقد أخذ المسلمون يردون الإسلام في خلاصته إلى دين ابراهيم » .

ويعلق الرافعي في مقام الذود عن حمى دينه قائلاً [٢] : « ولكن أهم

---

(١) المصدر السابق ١٤٧ (٢) المعركة ١٤٨ ، ١٤٩ مقال أستاذ الآداب والقرآن .

المسلمون الذين زعموا هذا أم نزل ذلك في قرآنهم في قوله تعالى (ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِليكَ أن اتَّبِعْ مِلَّةَ ابراهِيمَ حَنِيفاً وما كانَ من المشْرِكِين) إلى آيات أخرى ؟

فإذا كان ذلك من فعل المسلمين فالقرآن كذلك من صنعهم عند أستاذ الجامعة ، وهذا الأستاذ يشير بالحنيفية التي لم يفهم الصحيح إلى ما ورد في الحديث من قوله ﷺ : «بعثت بالحنيفية السمحة السهلة». وقد تكررت هذه اللفظة في الحديث ، فكيف سمعها العرب ورواها العلماء ولم يفهموها ، وكيف يكون ذلك وهي مبينة على آيات كثيرة وردت في القرآن مثل قوله تعالى « ما كانَ ابراهِيمُ يهودياً ولا نَصْرَانِياً ولكِنْ كان حَنِيفاً مُسْلِماً » وقوله « وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً ممن أَسْلَمَ وَجْهَهُ لله وهو مُحْسِنٌ واتَّبَعَ مِلَّةَ إبرَاهِيمَ حَنِيفاً » إلى آيات كثيرة كلها نص قاطع في أن معنى الحنيف إنما هو الذي مال عن الشرك والتشبيه والتجسيد مما يزعمه اليهود والنصارى والمشركون — والحنف في اللغة : الميل ، وكان العرب يقولون في كل من تعبد واعتزل الأوثان : إنه تحنف ، وكل من حج واستقبل البيت سموه حنيفاً ، لأنه بيت ابراهيم ، ثم توسع الإسلام في الكلمة على سنته في الألفاظ الإسلامية المعروفة ، فالمعنى الصحيح للحنيفية أنها الشريعة النقية التي لا شوب فيها من الإلحاد والشرك ، والتي تعدل بالناس إلى الله ، وتوجه الخلق إلى الخالق وحده ، وانظر كيف يقول الله « مَا كانَ إبرَاهيمُ يَهُودياً ولا نَصْرَانِياً » ثم يزعم أستاذ الجامعة أن قصة ابراهيم « حيلة » في إثبات الصلة بين اليهود والعرب ، وبين الإسلام والمسيحية وبين التوراة والقرآن » .

وبهذه الطريقة المعتمدة على ثقافة دينية واسعة كان الرافعي يردّ على « التهور » الذي ورد في « الشعر الجاهلي » أو على القضايا التي لم يفهمها صاحب الشعر الجاهلي إما عن عدم معرفة بها أو تجاهل لها .

ولكن الرافعي كان يعمد أيضاً إلى طريقة التهكم والسخرية ، يصوغ من خلال أسلوبها ردوده على طه حسين ، وهي الأخرى ردود تعتمد على

المنطق ومفهومه حيناً وعلى الأسانيد التاريخية والأدبية حيناً آخر، من ذلك رده على طه حسين حول سورة الروم[1] :

« والطامة الكبرى في ص ٢٢ إذ يزعم الأستاذ أن وجود سورة في القرآن تسمى سورة الروم دليل على أن العرب لم يكونوا في عزلة سياسية ، بل هم أصحاب سياسة متصلة بالسياسة العامة ، وقد أخذت ذلك من قوله تعالى (ألم غُلِبت الرُّومُ في أدنَى الأرْضِ وهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ في بِضْعِ سِنِين) كأنه يعني أن هذا التاريخ كان معروفاً في أهل السياسة من وزارة خارجية قريش ... فأخذه القرآن عنهم كما زعم الرجل في ابراهيم واسماعيل ، وغفل أستاذ الجامعة الذي لا يفهم عن قوله تعالى (وهُم مِنْ بَعْدِ غَلَبِهم سَيَغْلِبُون) فلم يدر أن هذا إنباء بالغيب يدخل في باب المعجزة ، لا في باب التاريخ ولا في باب السياسة ، فذكر الروم في القرآن وما يجري مجراها من قصص الأمم إعجاز من النبي الأمي في هذه الأمة الأمية ، فهو بذلك دليل على جهل تلك الأمة وبداوتها ، لا على علمها وحضارتها ، ولن يكون القرآن دليلاً على علم العرب وحضارتهم ومعرفتهم بالتاريخ واتصالهم بالسياسة كما يقرر طه حسين في الجامعة إلا إذا كان القرآن الكريم كلام النبي الذي جاء به ولم يكن وحياً ولا تنزيلاً ، فلتنظر الجامعة أين يذهب أستاذها الـ ... في قوله ص ٢٣ : «وكيف يستطيع رجل عاقل أن يصدق أن القرآن ظهر في أمة جاهلة همجية » وهل نصدق طه حسين فيما يستنتج بفكره العقيم من أن العرب كانوا أمة متحضرة راقية ، وكانوا أصحاب علم ودين وسياسة متصلة بالسياسة العامة ، أم نصدق النبي ﷺ في قوله : « إنا أمة أمية لا نحسب ولا نكتب » ومن أين تجيء الحضارة ويأتي العلم وتستقيم السياسة مع جهل الأمة بالكتابة والحساب » .

المهم أن الرافعي قد تتبع آراء طه حسين في الشعر الجاهلي رأياً رأياً

(١) المعركة ص ١٠٥ مقال : أستاذ الآداب والقرآن

فيما لا يتفق مع الإسلام ، أو يتنافى مع عقيدة القرآن أو يخالف سنّة الرسول أو يتعسف مع وقائع التاريخ أو يتحيفها أو يبالغ في المواقف التاريخية أو يشوهها أو يلوي أعناقها ، أو يتضارب مع المشهور المأثور المحكم من أخبار الأدب ونصوصه ، أو ما كان فيه تحامل على الرعيل الأول من الصحابة من مهاجرين وأنصار ، أو ترهات المستشرقين وأكاذيبهم ، إلى غير ذلك من حشو الكتاب ، فعل الرافعي كل ذلك في أناة وصبر ، ولكنه بدا وكأن بإحدى يديه سوطاً وبالأخرى سيفاً ، فعمد إلى عنيف الكلم وجارح القول آخذاً خصمه بكل أسباب الشدة التي لا تلين والدأب الذي لا يستكين حتى أصبحت مقالاته في هذا الشأن سجلاً تاريخياً لهذه المعركة العنيفة الضارية .

وما أن انتهى الرافعي من مقالاته سالفة الذكر أو بعضها ، وفرغت جماعة كبار العلماء من تقريرها في إدانة الكتاب وصاحبه حتى سارع الدكتور طه حسين مسطراً كتاباً إلى مدير الجامعة يذكر فيه أنه لم يقصد إهانة الدين أو الخروج عليه ، يقول في بعضه « وأنا أوكد لعزتكم أني لم أرد إهانة الدين ولم أخرج عليه ، وما كان لي أن أفعل ذلك وأنا مسلم أومن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ... وأؤكد لعزتكم أن دروسي في الجامعة خلت خلواً تاماً من التعرض للديانات لأني أعرف أن الجامعة لم تنشأ لمثل هذا .

وأنا أرجو أن تتفضلوا فتبلغوا هذا البيان من تشاؤون وتنشروه حيث تشاؤون » .

لا شك أن الرافعي الكاتب الإسلامي ورائد الفكرة الإسلامية في أدبنا الحديث قد خرج بالدين من المعركة منتصراً ، وهو في ذلك صاحب فضل ، فلولا مقالاته الكثيرة التي نبهت الناس وحركت حميتهم الدينية لكان من الممكن للانزلاقات التي تردى فيها كتاب الشعر الجاهلي أن تأخذ شكل الحقائق العلمية وتدرس الآن في معاهدنا وجامعاتنا ، ولكن حجة الرافعي

الدامغة وأثر مقالاته في النفوس حركت الجماهير بحيث جعلت القضاء طرفاً في المعركة فصادر الكتاب ووأد ما فيه من أفكار لعل الدكتور طه حسين بل من المؤكد أنه يتبرأ اليوم من شططها وانزلاقاتها .

على أن الأمر الذي لا ينبغي لنا أن نهمله وقد آثرنا أن ننهي الحديث عن هذه الفتنة التي أصبحت في ذمة التاريخ والتي قاد الرافعي المعركة التي وأدتها وقضت عليها ، نقول إنه لا ينبغي لنا أن نهمل الإشارة إلى لون جديـــد من الأدب جرى على قلم الرافعي وكان ثمرة من ثمرات المعركة ، هذا اللون الجديد هو المقالات التي حاكى الرافعي بها أسلوب كليلة ودمنة ، ومن هـــذه المقالات الطريفة مقالات عناوينها : « فلما أدركه الغرق » و « واضرب لهم مثلاً[1] » و « أعمالهم كرماد اشتدت به الريح[2] » و « قال دمنة[3] » و « ذو الاقفال[4] » وأخرى بعنوان « فيلسوفة النمل » و « مسلم لفظاً لا معنى » و « المجدد الجريء » .

إن كل مقال من هـــذه المقالات كانت تؤدي غرضاً معيناً في نطاق المعركة ، كان في بعضها اعتدال وقصد ، وكان في بعضها الآخر شدة واندفاع وعنف ، وهي أمور اقتضتها في وقت ما طبيعة اقتناع الرافعي بقدسية المعركة ، وقد يكون التشفّي أيضاً وارداً في النطاق ، ونحن نختار واحدة من هذه المقالات التي أنشئت بعد أن قدم الدكتور طه حسين لمدير الجامعة خطاباً يعلن فيه أنه لم يقصد بالإسلام سوءاً ، يقول الرافعي[5] .

« عندي نسخة من « كليلة ودمنة » ليس مثلها عند أحد ، ما شئت من مثل إلا وجدته فيها ، وقد رجعت إليها اليوم ١٣ مايو سنة ١٩٢٦ فأصبت فيها هذه الحكاية : قال كليلة ، أما تضرب لي المثل الذي قلت يا دمنة ؟ ، قال دمنـــة : زعموا أن سمكة في قـــدر ذراع كانت في غدير ، فلما سال بها

---

(١) تحت راية القرآن ٢٢٦
(٢) المصدر السابق ٢٧٠
(٣) الكتاب ٢٨٥
(٤) نفس المصدر ٣١٥
(٥) نفس المصدر ١٦٦

السيل جرى بها الماء إلى نهر قريب ، فدخلها الغرور ، فقالت : هذا لعمري ميراث أبي قد كنت عنه غافلة ، وما أكثر ما يضيع التهاون والعجز ، ثم أنها لبثت في النهر ما شاء الله حتى خرج بها التيار إلى البحر فقالت : يا ويلتا أعجزت كل هذا العمر عن ميراث أعمامي ! ثم أنها ما زالت في ميراث أعمامها حتى قذف بها الماء إلى المحيط فاتسع لها منه ما يسعها ، فقالت : قبح الله العجز ولو من كسل وهوينى ، لقد كدت أسلب ميراث أجدادي ! لولا أن من دمهم فيّ ما لم يزل يدفعني ولم يزل يسمو بي ، ثم إنها طفت يوماً على الماء فإذا الأسطول الإنجليزي[1] يمخر العباب إلى جبل طارق في عشر بوارج وعشرين مدرعة ومائة سفينة طوربيد وخمسين غواصة ، فطار بها الغيظ قطعاً وقالت : من هذا الوقح المتهجم على ميراث أجدادي لا يخشى أن يقتحم عليّ وقد حميت هذا الملك من حيث يجري الماء إلى حيث يبلغ الماء ؟ ثم إنها شدت نحو الاسطول وهي تخبط بذنبها من الغيظ تريد أن تضربه بهذا الذنب ضربة تلوي به ، ولكن الأسطول كان بعيداً ، ثم إنه كان سريعاً ففاتها ، فقالت : أولى لك ، ما نجا بك والله إلا حدّة الهرب وسرعة الفرار !.

قالت دمنة : ثم اضطجعت على الماء تسكن من غضبها فنامت واسترخت فمر بها زورق صيد ، فما أحست إلا والشبكة قد أخذتها ، فغاصت في الماء وجعلت تختبط عالية سافلة لا ترى مذهباً ولا مفراً ، فلما أعياها ذلك وبلغ منها الجهد قالت : أيتها الشبكة : دعيني ، فوالله ما قلت إن المحيط ميراث أجدادي ولا البحر ميراث أعمامي ولا النهر ميراث أبي !.

قال كليلة : فمثل من هذا يا دمنة ؟ قالت : « مثل طه حسين في كتابه لمدير الجامعة » .

---

(١) كان الأسطول الإنجليزي أكبر أسطول في العالم على زمن الرافعي .

والذي يقصد إليه الرافعي أن طه حسين لم يكتب لمدير الجامعة إلا بعد أن ضيق عليه وحل به ما حـل بالسمكة التي أدعت ما ليس لها ثم عدلت عن ادعائها حيناً وقعت في الشبكة. لقد عمد الرافعي إلى مناقشة الحادثة بعـد أن أجرى الحكة على لسان دمنة ، وهكذا صنع في بقية المقالات التي كتبها على هذه الشاكلة.

والحق أن هــذا اللون جديد من أدب الرافعي أراد أن يكثر من نماذجه ليجعل منه كتاباً كاملاً ، ولكن المنية عاجلته قبل أن يحقق أمنيته.

مهما يكن القول فإن كتاب « تحت راية القرآن » بما حوى من أحداث جدلية ونماذج كتابية إسلامية ، ودفاع عن روح العقيدة – إذا أغضينا بعض الشيء عن أسلوب العنف وضراوة القول – يضع الرافعي في مكانته اللائقة على رأس كتّاب الفكرة الإسلامية في عصره ، بـل وفي عصور أخرى من عصور التاريخ ماضيه وقادمه.

الفصل الرابع
المقالة الإسلامية

بدأ الرافعي كاتب مقالة قبل أن يكون مؤلف كتاب أو محقق بحث ، ولعله استفتح حياته كاتب مقالة وودعها أيضاً كاتب مقالة ، والرافعي في أسلوب كتابته ومنهج تفكيره يعلو على طاقات الفهم عند كثير من الناس حتى عند بعض هؤلاء الذين رزقوا نصيباً من الفهم والإدراك .

ولقد أحسن محمد سعيد العريان تلميذ الرافعي وصاحبه حين وصف أدب الرافعي في نطاق ما أسلفنا بقوله[1] « والرافعي عند طائفة من قراء العربية أديب عسر الهضم ، وهو عند كثير من هذه الطائفة متكلف لا يصدر عن طبع ، وعند بعضهم غامض معمى لا تخلص إليه النفس ، ولكنه عند الكثرة من أهل الأدب وذوي الذوق البياني الخالص أديب الأمة العربية المسلمة ، يعبر بلسانها وينطق عن ذات نفسها ، فما يعيب عليه عائب إلا من نقص في وسائله ، أو كدرة في طبعه ، أو لأن بينه وبين طبيعة النفس المسلمة التي ينطق الرافعي باسمها حجاباً يباعد بينه وبين ما يقرأ روحاً ومعنى » .

ولعمر الحق لقد أصاب سعيد العريان كبد الحقيقة وهو يصف الرافعي الكاتب ، فهذه سماته وصفاته ، وتلك أعماقه وأغواره ، لا يستطيع أن يغوص إليها فيقتنص دررها إلا من كان له في دنيا الأدب مكنة ، وفي مجال الحكمة إدراك ، وعلى تفاهة السطحية خصومة واستعلاء .

---

(١) تصدير سعيد العريان لوحي القلم ١/٧

إن الذي يقرأ الأدب الديني للرافعي في بعض مقالاته مثل البلاغة النبوية ، أو حقيقة المسلم أو وحي الهجرة أو سمو الفقر أو الانسانية العليا أو الإشراق الإلهي أو أيها المسلمون أو اليمامتان أو قرآن الفجر أو كفر الذبابة (بضم الكاف) أو غيرها من المقالات الأدبية الإسلامية التي سنعرض لها بعد قليل يجد أن الرافعي روح شفافة حلقت في سماء دنيانا لحقبة قصيرة من الزمن نثرت علينا من سمائها أسمى المعاني في فهم الإسلام عقيدة ودينا وحكماً وتشريعاً ، وفتحاً واتساعاً ، وسماحة وعدلاً ، وتنظيم مجتمع وأسلوب حياة .

ولقد شدت بلاغة الفتى مصطفى صادق الرافعي انتباه الإمام الشيخ محمد عبده ، الذي جمع إلى صفته الدينية ملكة أدبية فكتب إلى الرافعي في شوال ١٣٢١ هـ الذي يوافق ديسبر سنة ١٩٠٣ م أي قبل ست وستين عاماً ونيف يقول له مخاطباً إياه بلفظ البنوة « لله ما أثمر أدبك ، ولله ما ضمن لي قلبك ، لا أقارضك ثناء بثناء ، فليس ذلك شأن الآباء مع الأبناء ولكني أعدّك من خلص الأولياء، وأقدّم صفك على صف الأقرباء.

وأسأل الله أن يجعل للحق من لسانك سيفاً يمحق الباطل ، وأن يقيمك في الأواخر مقام حسان في الأوائل والسلام » .

لقد استجاب الله لدعاء الأستاذ الإمام فقد كان لسان الرافعي وقلمه سيفاً أرسى الحق ومحق الباطل ، وطرق كل ما يمكن طرقه في نطاق الفهم الإسلامي مضموناً وسياسةً وجدلاً وتوجيهاً وفلسفةً وعقيدة .

(١)

المضمون الاسلامي في المقالة الرافعية :

لقد قدم الرافعي في عديد من مقالاته ما يمكن أن نطلق عليه بلغة العصر الحديث « بانوراما إسلامية » بحيث ينفذ بالإنسان المعاصر إلى زوايا

إسلامية عديدة لم تكن تخطر على باله وهو يتمثل الفكرة الإسلامية ، كما تناول في نفس الوقت قضايا يعرفها بعض المثقفين المسلمين عن طريق التعميم دون التفصيل والجزئية دون الكلية . ويعالج الرافعي القضايا التي يتطرق إليها بعد أن يعمد إلى اختيارها علاجاً ينحو فيه نحو الإقناع المنطقي، معلقاً بشفافية المؤمن وأسلوب الأديب ، مما يمكن أن يجعل هذه المقالات ومثيلاتها فيما يستقبل من فصول نوعاً فريداً من الأدب الديني الرفيع .

ففي مقال « الإشراق الإلهي وفلسفة الإسلام »[1] يتحدث الرافعي عن الدين والنبي – أيّ نبي – بل هو يربط بين الحياة والدين والنبي ربطاً أخاذاً في أسلوب يفيض رقة وسمواً كأنه شلّالات من النور دافقة ترطب القلوب وتنضر الحواس . يقول الرافعي :

« كما تطلع الشمس بأنوارها فتفجر ينبوع الضوء المسمى النهار ، يولد النبي فيوجد في الإنسانية ينبوع النور المسمى الدين ، وليس النهار إلا يقظة الحياة تحقق أعمالها ، وليس الدين إلا يقظة النفس تحقق فضائلها » .

« والشمس خلقها الله حاملة طابعه الإلهي في عملها للمادة تحول به وتغير ، والنبي يرسله الله حاملاً مثل هذا الطابع في عمله للروح تترقى فيه وتسمو ، ورعشات الضوء من الشمس هي قصة الهداية للكون في كلام من النور ، وأشعة الوحي في النبي هي قصة الهداية لإنسان الكون في نور من الكلام » .

« والعامل الإلهي العظيم يعمل في نظام النفس والأرض بأداتين متشابهتين : أجرام النور من الشموس والكواكب ، وأجرام العقل من الرسل والأنبياء ، فليس النبي إنساناً من العظماء يُقرأ تاريخه بالفكر معه المنطق ، ومع المنطق الشك ، ثم يدرس بكل ذلك على أصول الطبيعة البشرية العامة ،

---

(١) وحي القلم ٣/٢ وما وبعدها .

ولكنه إنسان نجمي يقرأ بمثل « التلسكوب » في الدقة ، معه العلم ، ومع العلم الإيمان ، ثم يدرس بكل ذلك على أصول طبيعته النورانية وحدها » .

ويمضي الرافعي في الحديث عن النبي وكيفية مجيئه وضرورة وجوده من أجل نقاء الحياة ، في أسلوب فلسفي شفاف ، ولأول مرة في الكتابة الدينية تكون الفلسفة بهذا اليسر والنقاء وسرعة الدخول إلى القلب عن كل طريق .

يقول الرافعي مستطرداً :

« ويجيء النبي فتجيء الحقيقة الإلهية معه في مثل بلاغة الفن البياني ، لتكون أقوى أثراً وأيسر فهماً وأبدع تمثيلاً ، وليس عليها خلاف من الحس ، وهذا هو الأسلوب الذي يجعل إنساناً واحداً فنَّ الناس جميعاً ، كما تكون البلاغة فنَّ لغة بأكملها ، هو الشخص المفسر إذا تعسف الناس الحياة لا يدرون أين يؤمنون منها ، ولا كيف يهتدون فيها ، فتضطرب الملايين من البشرية اضطرابها فيما تنفض عنه وتتهالك فيه من أطماع الدنيا ، ثم يُخلق رجلٌ واحد ليكون التفسير لما مضى ويأتي ، فتظهر به حقائق الآداب العالية في قالب من الإنسان العامل المرئي أبلغ مما تظهر في قصة متكلمة مروية .»

ويستطرد الرافعي في مقاله هـذا الذي بدأه بالتعميم ثم ينتهي إلى التخصيص حين يقف عند النبي محمد ﷺ ، وعند الدين الإسلامي فيبين جانباً من رسالة الإسلام إزاء البشر ، وخلق المساواة ، وتمييز الفضيلة لصنع مجتمع كريم يقوم على الحب والمودة مع ضرورة وجود القوة فيقول :

« وهو دين يعلو بالقوة ويدعو إليها ، ويريـد إخضاع الدنيا وحكم العالم ، ويستفرغ همـه في ذلك ، لا لإعزاز الأقوى وإذلال الأضعف ، ولكن للارتفاع بالأضعف إلى الأقوى ، وفرق مـا بين شريعته وشرائع القوة ، أن هذه إنما هي قوة سيادة الطبيعة وتحكمها ، أما هو فقوة سيادة

الفضيلة وتغلبها ، وتلك تعمل للتفريق ، وهو يعمل للمساواة ، وسيادة الطبيعة وعملها للتفريق هما أساس العبودية ، وغلبة الفضيلة وعملها للمساواة هما أعظم وسائل الحرية ».

ويعمد الرافعي إلى مناجاة روحية للنبي العظيم ﷺ ، وإلى ضرورة الاتصال الروحي به في كل يوم مرات عديدة حتى يكون مسلم اليوم كمسلم صدر الإسلام ، يتمثل الرسالة السامية في كمال فلسفتها مبرأة عن كل دخيل عليها من عادات اندست فيها فشوهت وجهها الوضيء ، وأساءت إلى سماتها الرفيعة ، فالرسول عند الرافعي وعند كل مسلم هو الهادي والقائد والزعيم ، ومن ثم كانت الضرورة تدعو إلى دوام الاتصال بالهادي القائد الزعيم . يقول الرافعي :

« وعجيب أن يجهل المسلمون حكمة ذكر النبي العظيم خمس مرات في الآذان كل يوم ينادى باسمه الشريف ملء الجو ، ثم حكمة ذكره في كل صلاة من الفريضة والسنة والنافلة ، يهمس باسمه الكريم ملء النفس . وهل الحكمة من ذلك إلا الفرض عليهم ألا ينقطعوا من نبيهم ولا يوماً واحداً من التاريخ ، ولا جزءاً واحداً من اليوم ، فيمتد الزمن مهما امتد والإسلام كأنه على أوله ، وكأنه في يومه لا في دهر بعيد ، والمسلم كأنه مع نبيه بين يديه ، تبعثه روح الرسالة ، ويسطع في نفسه إشراق النبوة ، فيكون دائماً في أمره كالمسلم الأول الذي غير وجه الأرض ، ويظهر هذا المسلم الأول بأخلاقه وفضائله وحميته في كل بقعة من الدنيا مكان إنسان هذه البقعة ، لا كما نرى اليوم ، فإن كل أرض إسلامية يكاد لا يظهر فيها إلا إنسانها التاريخي بجهله وخرافاته وما ورث من القدم ، فهنا المسلم الفرعوني ، وفي ناحية المسلم الوثني ، وفي بلد المسلم المجوسي ، وفي جهة المسلم المعطل ، وما يريد الإسلام إلا نفس المسلم الإنساني ».

والرافعي في نطاق ثقافته الإسلامية كَلِفٌ بجوانب شخصية الرسول العظيم ، مغرم بتجلية أعماقها قدر استطاعته ، وقدر ما في رسوخ فكره

من خصوبة تؤتي ثماراً. نظر الرافعي إلى الرسول ﷺ فوجده فقيراً، كانت مرحلة من الفقر لا تمكن صاحبها من أن يقتني ثوبين معاً، وكان فقراً يجعل طعامه وأهله الشعير لعدة أيام، وفقراً يجعله يربط الحجر على بطنه يوماً ما، وفقراً يجعله ينتقل إلى رحاب ربه ودرعه مرهونة عند يهودي في ثلاثين صاعاً من شعير. ولكن كان لهذا الفقير رسالة هزت الدنيا وخلدت عليها إلى يوم يبعثون، وكان هذا الفقير من السمو بحيث يتمنى كل إنسان أن يكون في فقر محمد، وله بعض صفات محمد، إن هذا الفقر يوحي إلى الرافعي أن يكتب مقالته العظيمة «سمو الفقر في المصلح الاجتماعي الأعظم» يبين فيها أي فقر سامٍ كان ذلك الفقر، وأي فقر رائع ذلك الذي نظم صاحبه النفس البشرية وانتشلها من وهدة المادية التي كانت متردية فيها إلى أسمى درجات الكمال النفسي والاكتمال الروحي، فلننظر كيف استجمع الرافعي كل أسباب بلاغته وحبه وفنائه في الرسول الأعظم وهو يصف هذا الفقر الفريد الذي عاش فيه أعظم إنسان[1].

«كان النبي ﷺ على ما يصف التاريخ من الفقر والقلة، ولكنه كان بطبيعته فوق الاستغناء، فهو فقير لا يجوز أن يوصف بالفقر، ولا تناله المعاني النفسية التي تعلو بعرض من الدنيا وتنزل بعرض، فما كانت به خلة تحدث هدماً في الحياة فيرممها المال، ولا كان يتحرك في سعي ينفق فيه من نفسه الكبيرة ليجمع من الدنيا، ولا كان يتقلب بين البعيد والقريب من طمع أدرك أو طمع أخفق، ولا نظر لنفسه في الحسبة والتدبير لتدر معيشته فيحتلبها ذهباً أو فضة، ولا استقر في قلبه العظيم ما يجعل للدينار معنى الدينار، ولا للدرهم معنى الدرهم، فإن المعنى الحي لهذا المال هو إظهار النفس رابية متجسمة في صورة تكبر على السعة والغنى، والمعنى الحي للفقر من المال إبراز النفس ضئيلة منزوية في صورة تصغر على قدر من الضيق والعسرة.

---

(١) وحي القلم ٢/٨ وما بعدها.

إن فقره ﷺ كان من أنـه يتسع في الكون لا في المال ، فهو فقر يعد من معجزاته الكبرى التي لم يتنبه إليها أحد إلى الآن ، وهو خاص به ، ومن أين تدبرته رأيته في حقيقته معجزة تواضعت وغيرت اسمها ، معجزة فيها الحقائق النفسية والاجتماعية الكبرى وقد سبقت زمنها بأربعة عشر قرناً ، وهي اليوم تثبت بالبرهان معنى قوله ﷺ في نفسه « إنما أنا رحمة مهداة » .

ثم يطرق الرافعي في حديثه عن فقر الرسول بعض المذاهب المعاصرة من شيوعية واشتراكية ، ويعرف بها على طريقته ، ولكن الإصلاح الاجتماعي العظيم قد جاء على يد المصلح الاجتماعي الفقير الذي هو علاج مشاكل هذا العصر لأنه رحمة مهداة ، ويمضي الرافعي على رسله قائلاً :

« هـــذا المصلح الاجتماعي الأعظم يلقي فقره اليوم درساً على الدنيا العلمية الفلسفية ، لا من كتاب ولا فكر ، ولكن بأخلاقه وعمله وسيرته ، إذ ليس المصلح من فكر وكتب ، ووعظ وخطب ، ولكنه الحي العظيم الذي تلتمسه الفكرة العظيمة لتحيا فيه ، وتجعـل له عمراً ذهنياً يكون مصرّفاً على حكمها ، فيكون تاريخه ووصفه هو وصف هذه الفكرة وتاريخها » .

لكأني بالرافعي يريد أن يغمز بعض المذاهب الاجتماعية المعاصرة المنبثقة من أفكار مكتوبة لها بريق يجلب الأنظار ولكنها عند التطبيق لا تؤتي الثمرة التي أرادت الفكرة أن تتمخض عنها ، ذلك أنها أرضية ، أما فلسفة محمد وإصلاحه الاجتماعي فمستمدة من السماء ، وهـــا هو الرافعي يفصح عن ذلك أكثر من ذي قبل فيقول :

« ونظرة نبينا ﷺ إلى هـــذا الوجود نظرة شاملة مدركة لحقيقة اللانهاية ، فيرى بداية كل شيء مادي هو نهايته في التو واللحظة ، فلا وجود له إلا عارضاً ماراً ، فهو في اعتباره موجود غير موجود ، مبتدئ منته معاً ، وبذلك تبطل عنده الأشياء المادية وتأثيرها ، فـــلا تتصل بنفسه البالية (أي الشيء المادي) إلا من أضعف جهاتها ، ويجد لهـا الناس في

حياتهم الشجرة والفرع والثمرة ، ومـــا لها عنده هو جذر ولا فرع ، وبهذا لم يفتنه شيء ولم يتعلق به شيء » .

وفي نطاق المضمون الإسلامي يجري الرافعي موازنة بين آدم أبي البشرية ومحمد رسول البشرية عليهما الصلاة والسلام في إيجاز وعمق من حيث طبيعة كل منهما فيقول :

« وكانت الدنيا تطول الناس وتتقاصر عنه ، وكانت منقطعة النماء وهو ذاهب في نموه الروحي ، وكأنما هو صورة أخرى من آدم عليه السلام ، فكلاهما لمس بنفسه الحياة جديدة خالية مما جمـــع فيها الزمن وأهله من طمع وشره ، وجاء آدم ليعطي الأرض ناسها من صلبه ، وجاء محمد ليعطي الناس قوانينهم من فضائله ، فآدم بشخصه هو دنيا بعثت لتتسع ، ومحمد بشخصه هو دنيا بعثت لتنتظم » .

« على أن فقر الرسول لا يدخل في باب الزهد ، كما فهم بعض الذين يقرأون التاريخ النبوي ولا يفهمونه لأنهم قرأوه فيما يرى الرافعي « بأرواح مظلمة تريهم ما ترى العين إذا اختلط الظلام وليس الأشياء ، فقراءات مجملة لا تفصيل لهـا ، مفرغة لا تبيين فيها ، وما بها من ذلك شيء غير أنها تتراءى في بقية من البصر لا تغمرها . وهل الزهـد إلا أن تطرد الجسم عنك وهو معك ، وتنصرف عنه وهو بك متعلق ؟ فتلك سخرية ومثلة ، وهي في رأيي تشويه للجسم بروحه ، وقد تنعكس فتكون من تشويه الروح بجسمها ... ولقد كان ﷺ يملك المال ويجده ، وكان أجود به من الريح المرسلة ، ولكنه لا يدعه يتناسل عنده ، ولا يتركه ينبت في عمله ، وإنما كان عمله ترجمة لإحساسه الروحي »..

ومن قضايا المضامين الإسلامية معجزة الإسراء والمعراج ، والرافعي لا يترك مثل هذه القضية دون أن يطرقها بعمق وفهم ، معتمداً على الآيات

القرآنية الكريمة ، والأحاديث النبوية الشريفة ، وفهمه الشخصي للمواقف الدينية من واقع معايشته لها ، ومن الطريف أن الرافعي يستفتح مقاله عن الإسراء والمعراج – الذي اختار له عنواناً يمت إلى الإعجاز بسبب فجعله « فوق الآدمية[1] » – بهذه الجمل الاستفهامية الاستنكارية :

« كيف يستوطئ المسلمون العجز ، وفي أول دينهم تسخير الطبيعة ؟
كيف يستمهدون الراحة ، وفي صدر تاريخهم عمل المعجزة الكبرى ؟
كيف يركنون إلى الجهل ، وأول أمرهم غايات العلم ؟
كيف لا يحملون النور للعالم ونبيهم هو الكائن النوراني الأعظم ؟

ثم يتطرق الرافعي إلى القصة نفسها التي اختص به الرسول دون غيره من النبيين فيقول :

« قصة الإسراء والمعراج هي من خصائص نبينا محمد ﷺ ، هذا النجم الإنساني العظيم ، وهو النور المتجسد لهداية العالم في حيرة ظلماته النفسية ، فإن سماء الإنسان تظلم وتضيء من داخله بأغراضه ومعانيه . والله تعالى قد خلق للعالم الأرضي شمساً واحدة تنيره وتحييه ، وتتقلب عليه بليله ونهاره ، بيد أنه ترك لكل إنسان أن يصنع لنفسه شمس قلبه وغمامها وسحائبها وما تسفر به وما تظلم فيه ، ولهذا سمي القرآن نوراً لعمل آدابه في النفس ، ووصف المؤمنين بأنهم « يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم » وكان أثر الإيمان والتقوى في تعبير القرآن أن يجعل الله للمؤمنين نوراً يمشون به » .

على أن الأمر الذي يستوقف النظر في مقال الرافعي وفي منطقية الإسراء والمعراج مع كونه معجزةً كبرى قوله :

« وفي علماء عصرنا من يفكر في الصعود إلى القمر ، وفيهم من يعمل

---

(١) وحي القلم ٢/٣١ وما بعدها .

للمخاطبة مع الأفلاك ، وفيهم من تقع له العجائب في استحضار الأرواح وتسخيرها[1] ، وكل ذلك أول البرهان الكوني الذي يلزم العلم ، فيضطره في يوم ما إلى الإقرار بصحة الإسراء والمعراج »

لا شك أن الرافعي كتب ذلك بدافع من إيمانه وإن كان التسليم بالمعجزات لا يحتاج إلى العلم ، فالمعجزة قدرة ربانية عليا تستعصي على قدرة البشر ، ولو فعلها البشر ما صارت معجزة ، ومن ثم فإننا نختلف مع الرافعي حين حاول أن يخضع معجزة الإسراء والمعراج للمنهج العلمي ، خاصة وأن الرافعي يؤمن بأن معجزة الإسراء والمعراج حدثت بالجسم والروح معاً ، وليس رؤيا كما ذهب بعض المفسرين .

ومن الاحداث الإسلامية الكبرى التي هزت جنبات الدنيا هجرة الرسول ﷺ من مكة إلى المدينة ، وهي حدث يحتفل المسلمون بذكراه كل عام في مشارق الأرض ومغاربها ، وفي كل ذكرى تنشأ خطب ، وتكتب مقالات ، وتنشد قصائد ، وما نفد المعين الذي يمد الخطيب والكاتب والشاعر بمعانيهم الجديدة المتجددة كل عام ، وكان أمراً طبيعياً أن يسهم الرافعي بقلمه وفكره وإيمانه في هذه المناسبة ، ومن الأمور التي تلفت النظر أن مقال الرافعي هذا ، كان أول مقال تنشره له مجلة الرسالة ، فكان أجمل استفتاح لمرحلة جديدة في حياة أديبنا القلمية ، وأطيب استهلال للتعامل مع كبرى مجلات العالم العربي الأدبية ، وكانت الرسالة تغتنم المناسبات الجليلة مثل عيد الهجرة ، ومولد الرسول وما إليها فتصدر أعداداً خاصة تستكتب فيها كبار كتاب زمانهم ، فكانت مقالة الرافعي هذه التي أسماها « وحي الهجرة[2] » إسهامه في العدد السنوي الخاص بالهجرة .

---

(١) قضية تحضير الارواح تحتاج إلى كثير من النقاش لما يعتورها من أمور تجعل التسليم بها ضرباً من المجازفة العقلية والدينية .

(٢) وحي القلم ٢/١٧

يصور الرافعي في إحدى فقرات مقاله ظهور الإسلام في إيجاز رائع مع نظرات عميقة إلى فلسفة الأحداث فيقول في بساطة أخاذة :

« نشأ النبي ﷺ في مكـة ، واستنبئ على رأس الأربعين من سنه ، وعبر ثلاث عشرة سنة يدعو إلى الله قبـل أن يهاجر إلى المدينة . فلم يكن في الإسلام أول بدأته إلا رجل وأمرأة وغلام ، أما الرجل فهو هو ﷺ ، وأما المرأة فزوجه خديجة ، وأما الغلام فعلي ابن عمه أبي طالب. ثم كان النمو في الإسلام بحرّ وعبد ، أما الحر فأبو بكر ، وأما العبد فبلال . ثم اتسق النمو قليلاً قليلاً ببطء الهموم في سيرها وصبر الحر في تجلده ، وكأن التاريخ واقفٌ لا يتزحزح ، ضيق لا يتسع ، جامد لا ينمو ، وكأن النبي ﷺ أخو الشمس يطلع كلاهما وحـده كل يوم ، حتى إذا كانت الهجرة من بعد ، فانتقل الرسول إلى المدينة بدأت الدنيا كأنما مر بقدمـه على مركزها فحركها ، وكانت خطواته في هجرته تخط في الأرض ، ومعانيها تخط في التاريخ ، وكانت المسافة بين مكة والمدينة ومعناها بين المشرق والمغرب » .

إن للرافعي نظرات ثاقبة في فلسفة التاريخ ، إنه بعد أن يعدد جوانب حياة الرسول وجهاده قبل الهجرة ، يرى أن هذه الثلاثة عشر عاماً في مكة إنما هي مقدمة إلهية لتاريخ الإسلام في الأرض ، وهو محق في قوله واستنتاجه ، فالصبر والكفاح والإيمان ، ثم الأذى والمقاطعة والامتهان ومحاولة قتله ﷺ ، كانت المقدمـة الصعبة للانطلاق المقدس الموفق الذي عم خيره ونوره الخافقين ، يقول الرافعي :

« فهذا تاريخ ما قبل الهجرة في جملة معناه ، غير أني لم أقرأه تاريخاً ، بل قرأت فيه فصلا رائعاً من حكمة إلهيـة ، وضعه الله كالمقدمة لتاريخ الإسلام في الأرض ، مقدمة من الحوادث والأيام تحيا وتمر في نسق الرواية الإلهية المنطوية على رموزها وأسرارها ، وتظهر فيها رحمـة الله تعمل بقسوة ، وحكمـة الله تتجلى في غموض ، فلو أنت حققت النظر لرأيت

تاريخ الإسلام يتألّه في هذه الحقبة بحيث لا تقرأه النفس المؤمنة إلا خاشعة كأنها تصلي ، ولا تتدبره إلا خاضعة كأنها تتعبد » .

وبعد أن يشير الرافعي إلى ثبات الرسول في دعوته رغم كل ما أحاط به في مكة من أسباب الأذى ، يربط الرافعي بين هـــذه المواقف وما ينبغي أن ينشأ عليه المسلم أصالة وسلوكاً وأخلاقاً وثباتاً فيقول، وما أروع ما يقول :

« أليست تلك العوامل الأخلاقية هي هي التي ألقيت في منبع التاريخ الإسلامي ليعب منها تياره فتدفعه في مجراه بين الأمم ، وتجعل من أخص الخصائص الإسلامية في هــذه الدنيا ، الثبات على الخطوة المتقدمة وإن لم تتقدم ، وعلى الحق وإن لم يتحقق ، والتبرؤ من الأثرة وإن شحت عليها النفس ، واحتقار الضعف وإن حكم وتسلط ، ومقاومة الباطل وإن ساد وغلب ، وحمـل الناس على محض الخير وإن ردوا بالشرّ ، والعمل للعمل وإن لم يأت بشيء ، والواجب للواجب وإن لم يكن فيه كبير فائدة ، وبقاء الرجل رجلاً وإن حطمه كل ما حوله » .

وينهي الرافعي مقاله في عيد الهجرة قائلاً :

« تلك هي المقدمة الإلهية للتاريخ ، وكان طبيعياً أن يطّرد التاريخ بعدها حتى قال الرشيد للسحابة وقـــد مرت به : أمطري حيث شئت فسيأتيني خراجك » .

(٢)

أدب السياسة الاسلامي :

لم يكن قلم الرافعي وفكره وعواطفه بمعزل عن تيارات السياسة التي بلغت ذروة خضمها وجيشانها في فترة الحرب العالمية الأولى وما بعدها ، وهي الفترة التي تعرضت لهـــا الخلافة الإسلامية في الآستانة إلى الزلزال

الشديد الذي أودى بها ، وأغلق صفحة من تاريخ السياسة الإسلامية بخيرها الكثير ، وشرها القليل .

لقد كانت الخلافة في مجدها محوراً تدور في فلكه الأقطار الإسلامية متجمعة ، مما كان يكسب المسلمين قوة ومنعة ، ويجعل المتربصين بالإسلام يترددون مرات عديدة قبل أن يبيتوا له أمراً ، أو يصوبوا نحوه سهماً ، وآية ذلك أن الصهيونية العالمية حاولت عدة مرات أن تأخذ إذناً من الخليفة في الآستانة بإقامة وطن قومي يهودي في فلسطين ، فكان يغلق الباب في وجهها كل مرة ، ولما استبد اليأس بها لم تجد بداً من اللجوء إلى الوسائل الشيطانية حتى تطيح بالخليفة وبالخلافة جميعاً وبذلك يمهد أمامها السبيل لإقامة الدولة التي تريد[1] .

على أنه كان للخلفاء أنفسهم مساوئ ومباذل مثل إفقار الأقطار الإسلامية واستنزاف خيراتها والخلود إلى الشهوات داخل القصور من خمر ونساء . والحق أن العيب هنا لم يكن في الخلافة وإنما كان في الخلفاء أو بعضهم .

وإذا كان اليهود قد سعوا إلى القضاء على الخلافة بغية الوصول إلى مآربهم في انشاء دولة لهم ، فقد كان الغرب الصليبي الذي يكره العرب ويمقت المسلمين يرى أنه صاحب ثأر عند المسلمين ينبغي أن يقضي ، ومن ثم فقد كانت الخلافة التي تمثل شوكة في حلقه ينبغي أن تكون موضوع الثأر بإيقاع الهزيمة بها والقضاء عليها ، فحين هزم الحلفاء تركيا في الحرب العالمية الأولى ، هبت أوربا تطالب بإخراج المسلمين من الآستانة ، وتبنت الصحف البريطانية هذه الحركة الكريهة المتعصبة ، ووقع مائة وخمسون من أعضاء البرلمان الانجليزي عريضة تطالب حكومتهم بذلك ، كما طالب رئيس أساقفة كانتربري مع عدد من رجال الدين الانجليز حكومتهم

---

(١) التكبير على منكري النعمة ص ١٦٦ وما بعدها .

بنفس الشيء ، وأرسل أسقف مدينة نيويورك بالنيابة عن مائة أسقف أمريكي برقية إلى أسقف كنتربري يشكرونه على نشاطه في « الحروب الصليبية » ضد الأتراك لإخراجهم من الآستانة .

بل إن الصحف البريطانية تزيد الأمر وضوحاً في إضفاء صفة الصليبية على الحرب في الشرق الأوسط حين تنشر صورة للورد أللنبي وهو عائد من فلسطين وتكتب تحتها عبارة «العودة من الحروب الصليبية»، ويصرح الفرنسي الجنرال بيير كيللر في كتابه « القضية العربية في نظر الغرب » بأن علاقات فرنسا بالشرق الأوسط تعود إلى عهد الحروب الصليبية[1]. وتأخذ عداوة الغرب ضد الإسلام الشكل الصليبي المحض حين يدلي الجنرال أللنبي عند دخوله فلسطين بعد هزيمة الأتراك بتصريحه المشهور: « لقد انتهت الحروب الصليبية » ، ويؤكد هذا المعنى ولكن في وقاحة مليئة بالحقد والتشفي الجنرال الفرنسي جورو حين يغزو دمشق ويتجه إلى قبر صلاح الدين ، ويدفع باب قبر الزعيم الثاوي في التراب منذ ثمانية قرون قائلاً : لقد عدنا يا صلاح الدين .

لم يكن شيء من هذا ليحدث لو أن الخلافة كانت باقية ، ولم يكن لمسلمي الآستانة أن يتربص بهم ، وأن تجري المؤامرات لطردهم من ديارهم كما حدث في الأندلس منذ قرون ، وكما حدث في فلسطين منذ سنين ، الأمر الذي جعل الشعراء في العالم الإسلامي بعامة وفي مصر بخاصة يشعرون بالغصة ويبكون مدينة المآذن ومسجد آيا صوفيا فيقول حافظ ابراهيم[2] :

أيا صوفيا حان التفرق فاذكري ... عهود كرام فيك صلّوا وسلّموا
إذا عدتِ يوماً للصليب وأهلِه ... وحلّى نواحيكِ المسيحُ ومريمُ

---

(١) الاتجاهات الوطنية ٢/٢٠٠،١٩

(٢) ديوان حافظ ٢/٨٨

ودقّتْ نواقيسٌ وقـــام مزمّر من الروم في محرابـــه يترنمُ
فلا تنكري عهدَ المآذن إنه على الله من عهد النواقيس أكرمُ

المهم أنه في خـــلال تلك الأيام المظلمة التي سقطت فيها الآستانة ، وأصبح الخليفة فيها تحت رحمة الغزاة ، يبدو للمسلمين أمل جديد منبعث من الانتصار الذي حازه مصطفى كمال على اليونان وتحريره الأناضول كله منهم ، فتدق طبول الفرح لهذا القائد المظفر المرتقب إعزازاً للإسلام من جديد ، ويتسابق الشعراء إلى تمجيده بقصائد تفيض كلها عاطفة وتقديراً وحباً وإعجاباً ، ولعل أشهرها قصيدة شوقي التي شبهه فيها بخالد بن الوليد ، وشبه معاركه بمعارك صلاح الدين ، وشبه يوم الانتصار بيوم بدر وفيها يقول :

الله أكبر كم في الفتح من عجبِ يا خالدَ الترك جدّدْ خالد العربِ
حذوْتَ حرب الصلاحيين في زمن فيه القتالُ بـلا شرعٍ ولا أدبِ
يومٌ كبدرٍ فخيلُ الحقّ راقصةٌ على الصعيدِ وخيلُ الله في السُّحبِ

وتلتف بنفس شوقي شاعر الإسلام روحانية تغلف أعطافه وفرحة تعم مشاعره تفاؤلاً بهذا الذي تصور أن الخلاص قـد جاء على يديه ، وعزة الإسلام رهن التماعات مهنده فيضمي قائلاً :

أخرجتَ للناسِ من ذلّ ومن فشلٍ شعباً وراء العوالي غيرَ منشعبِ
لما أتيتَ ببـدر من مطالعهـــا تلفتَ البيتُ في الأستار والحجبِ
وهشّت الروضةُ الفيحاءُ ضاحكةً إلى المنـوّرةِ المسكيَّة التربِ
ومسّت « الدار» أزكى طيبها وأتتْ بابَ الرسولِ فمسّتْ أشرفَ العتبِ
وأرّجَ الفتحُ أرجاءَ الحجازِ وكم قضى الليـاليَ لم ينعمْ ولم يطبِ
وأزيّنت أمهاتُ الشرق واستبقتْ مهارجُ الفتح في الموْشيّةِ القشُبِ
هزت « دمشق » « بني أيوب » فانتبهوا يهنئون « بني حمدان » في « حلب »
ومسلمو الهند والهندوسُ في جذلٍ ومسلمو مصرَ والأقباطُ في طربِ
ممالكٌ ضمها الإسـلامُ في رحمٍ وشيجةٍ وحواها الشرقُ في نسبِ

وتتتابع الأحداث بسرعة ، ذلك أن الخليفة وحيد الدين يعلن عصيان مصطفى كمال أثناء حرب الأناضول ، وحين ينتصر هذا الأخير يعلن عزل الخليفة وفصل الدين عن الدولة كمقدمة لمشروعاته الخطيرة التي لم يتنبأ بها أحد من أنصاره الكثيرين . ويعين ولي العهد عبد المجيد خليفة مجرداً عن أية سلطة ، ويرى الكثرة في هــذا التصرف رجوعاً إلى طبيعة الخلافة الإسلامية الشورية ، ويرى آخرون أن ذلـك ابتداعاً واعوجاجاً وينتصر شوقي لمصطفى كمال وينشئ قصيدته الطويلة الكافية [1] مهاجماً فيها السلطان وحيد الدين ، مبشراً الخلافة بعهد جديد مثيـل لعهد أبي بكر وعمر ، لا عهد معاوية ولا ملك الروم وفيها يقول مخاطباً الخلافة :

قــلْ للخلافــةِ قولَ باكٍ شمسها ... بالأمسِ لمــا آذنتْ بــدلوكِ
يا جذْوةَ التوحيدِ هل لك مطفئٌ ... واللهُ جــلّ جلالُـهُ مذكيكِ
خَلَتِ القرونُ وأنتِ حربُ ممالكٍ ... لم يغفُ ضـدُّك أو ينمْ شانيكِ
يرميكِ بالأمم الزمــانُ ، وتارةً ... بالفــردِ واستبدادِهِ يرميـكِ
عودي إلى ما كنتِ في فجرِ الهدى ... « عمرٌ » يسوسك و « العتيقُ » يليكِ
إن الذين توارثوك على الهــدى ... بعـدَ « ابن هندٍ » طالما كذبوكِ
لم يلبسوا بُرْدَ النبيِّ وإنمــا ... لبسوا طقوسَ الرُّومِ إذْ لبسوكِ

غير أن هذه القصائد الرائعة التي قالها شوقي والتي أنشدها غيره من معاصريه مثـل حافظ وعبد المطلب ومحرم ، كانت نوعاً من حسن الظن بالرجل الذي صار دمية في يــد اليهود من أبناء الدونمة الذين تظاهروا بالاسلام وانسلكوا في أدق وظائف دولة الخلافــة متواطئين مع الغرب الأوربي صاحب الثأر الصليبي الذي سبقت الإشارة إليه متحالفين مـع الماسونية التي ترتبط أسبابها ارتباطاً كاملاً بالصهيونية ، ساعين إلى القضاء على مظهر التكامل الإسلامي في شخص الخلافـة ، مستغلين رجلاً عرف

---

(١) الشوقيات ١/١٩٦ وما بعدها .

بالإنحراف والتهور والبعد عن أسباب الدين والخلق يحمل إسماً إسلامياً هو « مصطفى كمال » .

لقد حذر مصطفى صبري شيخ الإسلام في تركيا من هذه الحركة الجديدة التي بدت علامات الانحراف الأولى في تصرفاتها ، وجاء الرجل إلى مصر فاراً من السلطات الكمالية ، ولكن بعض دعاة اللادينية ، ومعهم بكل أسف وكيل الازهر هاجموا الرجل هجوماً عنيفاً . ثم تتطور الأمور ويذيع السلطان وحيد الدين — الهارب من الكماليين — بياناً يذكر فيه أنـــه هاجر إلى حيث يستطيع الدفاع عن مقدسات المسلمين ، ويفضح تصرفات الكماليين وتربصهم بالإسلام واعتناقهم الإلحاد ويضرب أمثلة لذلك بأنهم أباحوا زواج المسلمات بالنصارى ، وحرموا تعدد الزوجات وأخرجوا نساء المسلمين متبرجات إلى الرقص والبارات ، وأخرجوا تعليم القرآن والدين من برامج الدراسة ، ومنعوا الأتراك من الحج إلى بيت الله الحرام ، وأحلوا الحروف اللاتينية محل الحروف العربية ، ثم ينذر بأن دين الإسلام وشمس الشريعة والتوحيد سوف تغرب عما قليل من سماء الأناضول [١] .

إن مصطفى كمال يلغي الخلافـة وينشئ دولة ملحدة ، فيصحو الذين أعجبوا به وأحسنوا الظن بنشاطه الأول ، وتصدر الصحف طافحة بالنقمة عليه والغضب منه ، ويكتب أمين الرافعي في جريدته « الأخبار » يصف الإجراءات التي اتخذت مع الخليفة ، وهي تطابق تماماً الخطط الصهيونية التي أصبح العرب والمسلمون يعرفونها في زماننا ، وتنشر جريدة الأهرام مقالاً بعنوان « ياغربة الإسلام في موطنه » يقول منشئها : « ما استطاع أعداء الإسلام أشد ما كانوا به ائتماراً ، وأعدى ما كانوا عليه عدواناً ، وأصدق ما كانوا رغبة في الكيد له والنكاية فيه ، أن يبلغوا منه ما بلغه هؤلاء الكماليون على مرأى ومسمع من المسلمين جميعاً » [٢]

(١) الاتجاهات الوطنية ٢/٥ ٤ (٢) المصدر السابق ٢/٣٧ — ٣٩

وأخـــذ الذين أحسنوا الظن بالطاغية الصهيوني والذين هاجموا شيخ الإسلام مصطفى صبري يأسفون لموقفهم ويبرأون من محطم الرابطة الإسلامية ، ومن هؤلاء وكيلا الأزهر الشيخ محمد شاكر والشيخ محمد حسنين والشاعر أحمد محرم وشوقي الذي أنهكه الحزن على وأد الخلافة واغتيالها فأنشأ رائعته الحائية التي نعاها فيها إلى المسلمين قائلاً[1] :

عادتْ أغاني العرس رجْعَ نُواحِ	ونُعيتِ بين معالِمِ الأفراحِ
كُفِّنْتِ في ليلِ الزفافِ بثوْبه	ودُفنتِ عند تبلُّجِ الإصباحِ
شُيِّعْتِ من هلعٍ بعبرةِ ضاحكٍ	في كلّ ناحيــةٍ وسكرةِ صاحِ
ضَجّتْ عليكِ مآذنٌ ومنابرٌ	وبكتْ عليكِ ممالكٌ ونواحِ
الهندُ والهةٌ ومصرُ حزينةٌ	تبـكي عليكِ بمدمـعٍ سحّاحِ
والشامُ تسألُ والعراقُ وفارسٌ	أمحا من الأرضِ الخلافةَ ماحِ
حَسَبٌ أتى طولُ الليالي دونَهُ	قـدْ طاحَ بين عشيةٍ وصباحِ
وعلاقةٌ فُصِمَتْ عُرَى أسبابِها	كانتْ أبرَّ عـلائقِ الأرواحِ

ويحمل شوقي في قصيدته الحزينة على الرجـل الذي تآمر على الخلافة بليل ، وكان قبل ذلك يحسن الظن به ، ويصفه بالضلال والعربدة والوقاحة والإباحية ، وكان شوقي صادقاً الصدق كله في قوله مستطرداً :

بكتِ الصلاةُ وتلك فتنةُ عابثٍ	بالشرعِ عربيدِ القضاءِ وَقَاحِ
أفتى خُزَعْبَلَةً وقال ضلالةً	وأتى بكفرٍ في البـلادِ بَراحِ
إنّ الذين جرى عليهم فِقْهُهُ	خُلِقوا لفقهِ كتيبــةٍ وسلاحِ
إنْ حدّثوا نطقوا بخُرْسِ كتائبٍ	أو خُوطِبوا سمعوا بِصُمِّ رماحِ
أستغفرُ الأخلاقَ لستُ بجاحدٍ	مَنْ كنتُ أدفعُ دونه وألاحي
ما لي أطوّقُهُ الملامَ وطالما	طوقْتُهُ المأثورَ من أمداحي
أأقولُ مَنْ أحيا الجماعةَ ملحدٌ ؟	وأقولُ مَنْ ردَّ الحقوقَ إباحي ؟

---

(١) الشوقيات ١/١١٤

الحقُّ أوْلى من وَلِيّكَ حُرْمَةً   وأحقُّ منكَ بنصرةٍ وكِفاحِ
فامدحْ على الحقِّ الرجالَ ولمهمو   أو خلِّ عنكَ مواقفَ النصّاحِ

إن مصطفى صادق الرافعي الصادق إسلامه الكامل إيمانـــه يعيش أحداث عصره هذه التي تتعلق بمصير الإسلام وتمثـل مرحلة حرجة من مراحل حياة المسلمين، فيسهم في المعركة إسهام المحارب بقلمه، المجاهـد بروحه الذي لم يتسرع إلى دق الطبول وإطـلاق البخور للشيطان الذي جاء أول ما جاء في شكل بطـــل غازٍ مصلح. يقرأ الرافعي ما فعله صنيعة الصهيونية العالمية بالإسلام والمسلمين في تركيا وما عبثت يداه بشرعة الله فيمتشق قلمه ويكتب مقاله الخطير «تاريخ يتكلم»[١]

لقد شن الرافعي على مصطفى كمال حملة شعواء، عمد فيها إلى التلميح إليه دون التصريح باسمه، وصاغ مقاله في قالب حلم مزعج جرت أحداثه مع الحاكم بأمر الله الخليفـة الفاطمي الذي نسبت إليه أمور أدخلته في روع كثير من الناس مدخلاً غير كريم، ولم يكن الحاكم بأمر الله الذي اتخذ الرافعي منه رمزاً في منامه إلا الطاغية التركي.

ونحن وإن كانت لنا تحفظات شديدة على رأي الرافعي في الخليفة الفاطمي الذي لم يأخذ حقه من الدراسة الواعية المتعمقة بعد، فإن الرافعي كان يقصد شن الحرب القلمية على أتاتورك، إسهاماً منه في معركة الإيمان المقدسة ضد من اعتدى على حرمات الإسلام مدفوعاً بتوجهات الصهيونية العالمية، التي جعلت من رجل سكير لا يفيق زعيماً ومصلحاً وغازياً. لقد ملأ الرافعي في حلمه هـذا الذي جعله إطاراً لمقاله عشر مجلدات حفظها كلها بعد أن دونها، وقد رمز بكل ما فيها من نقائص ومعائب وانحرافات إلى مصطفى كمال، فمن ذلك قوله في المجلد الثاني معرضاً بالصفة اليهودية في مصطفى كمال للشائعة التي تقول إن أمه يهودية، أو للحقيقة التي تقول

---

(١) وحي القلم ٢/٢٢٧ – ٢٣٩

أنه كان المعول الذي استعملته جماعة الدونمة اليهودية في هدم الخلافة :

« أظهر الطاغية أن الله يؤيد بــه الإسلام ، ليتألف الجند والشعب ويستميلهم إليه ، وكان في ذلك لئـيم الكيد ، دنيء الحيلة يهودي المكر ، فأمر بعمارة المدارس للفقه والتفسير والحديث والفتيا ، وبذل فيها الأموال ، وجعل فيها الفقهاء والمشايخ ، وبالغ في إكرامهم والتوسعة عليهم والتخضع لهم ، ودخل في ظـلال العمائم ، وأحضر لنفسه فقيهين مالكيين (اثنين لا واحداً) يعلمانه ويفقهانه ، وكان أشبه بمريد مع شيخ الطريقة يتسعد به ويتيمن ، أشرف ألقابه أنه خادم العمامــة الخضراء ، وأسعد أوقاته اليوم الذي يقول له فيه الشيخ : رأيتك في الرؤيا ورأيت لك » .

ثم يشير الرافعي إلى انقلاب مصطفى كمال على المسلمين بعد أن تظاهر بأنه منهم ولهم ، وبعــد أن منحوه ثقتهم وكالوا له المدائح وأسباب الحمد ، فيقول :

« وكانت هذه المعاملة الإسلامية الكريمة من هــذا الطاغية هي بعينها ربا للفافة اليهودية في مخه ، تصلح بإقراض مائه وفيها نية الخراب بالستين في المائة ، فإنه ما كاد يتعرف بالناس وإقبالهم عليه وثقتهم بــه ، حتى طلبت اللفافة اليهودية رأس‌المال والربا ، فأمرهم بهدم تلك المدارس وإخرابها ، وأبطل العيدين وصلاة الجمعة ، وقتل الفقهاء ، وقتل معهم فقيهيه وأستاذيه ، وعاد كالمريد المنافق مع شيخ الطريقة ، يقول في نفسه : إن هناك ثلاثة تعمل عملاً واحداً في الصيد : الفخ ، والعمامة ، واللحية » .

وتشتد حملة الرافعي على الطاغية الذي بغى على الدين ورجاله ، فيحقـِّرُه ويحتقره ويغضّ من شأنه أمام جمهور الناس بقوله :

« إن هــذا الطاغية ملك حاكم يستطيع أن يجعل حماقته شيئاً واقعاً فيقتل علماء الدين بإهلاكهم ، ويقتل مدارس الدين بإخرابها ، ولو استطاع أن يشنق من المسلمين كل ذي عمامة في عمامته لفعل ، ويبلغ من كفره أن

يتبجح ويرى هذا قوة ، ولا يعلم أنه لهوانه على الله قد جعله كالذبابة التي تصيب الناس بالمرض ، والبعوضة التي تقتل ، والقملة التي تضرب بالطاعون فلو فخرت ذبابــة أو تبجحت قملة ، أو استطاعت بعوضة لجاز أن يطن طنينه في العالم!! هل فعل أكثر مما تفعل؟ »

ثم يعود الرافعي إلى السخرية من الطاغية وتمجيد الاستشهاد في سبيل الإسلام حين يقول :

« لقد أودى بأناس يقوم إيمانهم على أن الموت في سبيل الحق هو الذي يخلدهم في الحق ، وأن انتزاعهم بالسيف من الحيـاة هو الذي يضعهم في حقيقتها ، وأن هذه الروح الإسلامية لا يطمسها الطغيان إلا ليجلوها .

إنه والله مـــا قتل ولا شنق ولا عذب ، ولكن الإسلام احتاج في عصره هذا إلى قوم يموتون في سبيله ، وأعوزه ذلـك النوع السامي من الموت الأول الذي كان حياة الفكر ومادة التاريخ ، فجاءت القملة تحمل طاعونها .

لقد أحياهم في التاريخ ، أما هم فقتلوه في التاريخ ، وجاءهم بالرحمـة من جميـع المسلمين أما هم فجاؤوه باللعنة من المسلمين جميعاً » .

وتحت عنوان « المجلد الثالث » من مقال الرافعي في الحملة على الطاغية التركي الذي ناصب الإسلام العداء يقول الكاتب السياسي المسلم :

« يرى هذا الطاغية أن الدين الإسلامي خرافة وشعوذة على النفس ، وأن محو الأخلاق الإسلامية العظيمة هو نفسه إيجاد أخلاق ، وأن الإسلام كان جريئاً حين جاء فاحتل هذه الدنيا : فلا يطرده من الدنيا إلا جرأة شيطان كالذي توقح على الله حين قال (فبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أجْمعِين) ولهذا أمر الناس بسبّ الصحابة ، وأن يكتب ذلك على حيطان المساجد والمقابر والشوارع !! أخزاه الله ! أهي رواية تمثيلية يلصق الإعلان عنها في مكان ، لو سمع لسمع المساجد والمقابر والشوارع تقول : أخزاه الله !! » .

ويقول الرافعي من جملة ما عرض به لمصطفى كمال في « المجلد الرابع » عن أسباب محاولته هدم الإسلام :

« فهو يحاول هـدم الإسلام لأنه دين العفة ودين صون المرأة ، يلزمها حجاب عفتها وإبائها ، ويمنعها الابتذال والخلاعة ، ويعينها أن تتخلص ممن يشتهيها ولو كان الحاكم ، إنه يمقت هذا الدين القوي كما يمقت اللص القانون ، فهو دين يثقـل على غريزته الفاسقة ، ولكل غريزة في الإنسان شعور لا مهنأ لها إلا أن يكون حراً حتى في التوهم ، وهـل يعجب السكير أو يرضيه أو يلذه كما يعجبه أن يرى الناس كلهم سكارى ، فينتشي هو بالخمر ، وتسكر غريزته برؤية السكر » .

« وما زال رأي الفساق في كل زمن أن الحرية هي حرية الاستمتاع ، وأن تقييد اللذة إفساد للذة » .

وكان المتمرد التركي في مجال الهدم التي دفع إليه ، قد اتخذ إجراءات بقطع صلة الأمة التركية بكل قديم من دين وتراث وعادات وتقاليد ، فحمل الرافعي عليه في « المجلد السابع » من مقاله قائلاً :

« يزعم الطاغية أنـــه سيهدم كل قديم ، وإني لأخشى والله أن يأمر الناس في بعض سطوات جنونه : أن كل من كان له أب أو أم يبلغ الستين فليقتله لتخلص الأمة من قديمها الإنساني » .

« كأنه لا يعرف أنه إنما يتسلط على أيام معاصريه لا على التاريخ ، ويحكم على طاعـــة قومه وعصيانهم لا على قلوبهم وطباعهم وميراثهم من الأسلاف ، فما هو إلا أن يهلك حتى ينبعث في الدنيا شيئان : نتن رمَّته في بطن الأرض ، ونتن أعماله على ظهر الأرض ، إن هذا الرجل المسلط ، كالغبار المستطار ، لا يكنس إلا بعد أن يقع » .

وتمضي حملة الرافعي تجاه المتمرد التركي على القيم الإسلامية الذي حاول القضاء على روحانية أمته ، فيسطر تحت « المجلد الثامن » .

« لا يرضى الطاغية إلا أن يمحق روحانية الأمة كلها ، فلا يترك شيئاً روحانياً يكون له في أعصاب الناس أثر من الوقار ، وبمن يستظهر — ويله — إذا محقت روحانية الأمة وأشرفت نزعتها الدينية على الانحلال ؟ كأنه لا يعلم أن حقيقة الوجود لأمة من الأمم إنما تستمد من إيمانها بالمثل الأعلى الذي يدفعها في سلمها إلى الحياة بقوة ، كما يدفعها في حربها إلى الموت بقوة ، وكأنه لا يعلم أن التاريخ كله تقرره في الأرض بضعة مبادئ دينية. سيعلم إذا نشبت حرب بينه وبين دولة أخرى أنه كسر أشد سيوفه مضاء حين كسر الدين !! »

وانبعاثاً من فتنة مصطفى كال وما فعله بالشعب التركي المسلم من شنّ الحرب على عقيدته وحملة التشويه على تراثه ، وتقبيح وجهه ومظهره وعاداته وتقاليده ولغته وكتابته ، عمد إلى تغيير غطاء الرأس وجعله القبعة ، كل ذلك ليس لمجرد تقليد الغرب ، ولكن لقطع أية صلة يمكن أن تربط تركيا بحقيقتها المسلمة ، وهو يصدر في ذلك مع جماعته عن تعصب مقيت لا يعرف التعقل أو التروي ، حتى ان واحداً من جماعته الغالين في تعصبهم ضد كل ما هو شرقي ، الآخذين بكل ما هو أوربي لمجرد أنه أوربي ، قال في أحد كتبه : إنا عزمنا على أن نأخذ كل ما عند الغربيين حتى الالتهابات التي في رئتيهم والنجاسات التي في أمعائهم[1].

لو تذرع الكماليون في بعض تغييراتهم — ومن بين ذلك القبعة — إلى سبب اجتماعي أو صحي لما كان في الأمر شذوذ مستنكر، ولكن الدعوة إلى لبس القبعة كان الهدف منها الابتعاد بالأمة التركية حتى من حيث الزي والمظهر عن كل ما يربطها بالإسلام بوشيجة شكلية أو صلة معنوية.

(١) الاتجاهات الوطنية ٢/٢٢٠ عن موقف العقل والعلم والعالم لشيخ الإسلام مصطفى صبري ٣٩٦/١ هامش.

لم يكد الكماليون يقدمون على مـــا أقدموا عليه حتى رأينا صدى تصرفاتهم ينعكس في سرعـة غريبة على بعض الذين يكنون للإسلام في مصر عداوة وبغضاء مثل محرر السياسة الأسبوعية ومحرر المقتطف والأستاذ سلامة موسى .

لقد كانت السياسة الأسبوعية متطرفة كل التطرف في الدعوة إلى لبس القبعة بدلاً من الطربوش وتذرعت ببعض الأسباب التي زعمت أنها تتصل بالصحة العامة والجو المصري[1] ، وبنفس الحماس اندفعت جريدة المقتطف في الدعوة إلى « التبرنط » ولم يكن ذلـــك غريباً منها بحكم ارتباطها بالاستعمار[2] . وبحماسة أشد وأكثر اندفع الأستاذ سلامة موسى في الدعوة إلى القبعة لتهافته الشديد على كل ما هو أوربي ونفوره الأشد من كل ما هو شرقي أو إسلامي على ما مر بنا في صفحات سابقة من هذا الكتاب ، وعلى مـــا ورد بالتفصيل في كتابه « اليوم والغد » الذي أوردنا طرفاً من اتجاهاته عند الحديث عن « الرافعي زماناً » ، ولعل الأستاذ سلامة موسى كان الداعية الوحيد بين دعاة القبعة الذي كانت دعوته تفتقر إلى المنطق والعدل ، فقد كان يرى أن لبس القبعة يجعلنا والأجانب أمـة واحدة ، وأنه لا يلبس القبعة إلا كل متحضر ، كما كان يريد للمصريين أن يلبسوا القبعة لسبب في غاية من الطرافة وهو ألا يعمـــد السائحون إلى تصويرنا كأننا أمة عربية ، ويغضب الأستاذ سلامة موسى كثيراً لأن الحركة الداعية إلى اصطناع القبعة غطاء للرأس قد قاومها الزعماء وقتلوها في مهدها .

والحق أن الدعوة إلى ارتـــداء القبعة في الظروف التي ظهرت فيها واتخاذها غطاء للرأس لم تكن بريئة ، كما لم تكن غاياتها صحـة الرأس ووقايتها من الشمس كما ذهب بعض الماكرين من الداعين إليها ، إذ لو كان السبب حقيقة صحياً لما كان في هذه الدعوة شيء يعتبر موضعاً للاعتراض

---

(١) عدد ٣ يوليو ١٩٢٦

(٢) عدد أول أغسطس ١٩٢٦

وإنما كانت الغاية منهـــا حرب المظهر الإسلامي واستحضار المظهر الذي يعاكسه ويخفيه .

ولقد فطن إلى ذلك كاتبنا مصطفى صادق الرافعي وإلى أن الدعوة إلى « التبرنط » إنما هي امتداد لواحـد من اتجاهات الإلحاد المتعددة في الدعوة الكمالية وإلى أن الذين يدعون إليها لم يكونوا – في نطاق العقيدة – فوق مستوى الشبهات ، فسارع إلى كتابة مقاله « سر القبعة » وفيه أزاح الستار عن المؤامرة التي نصب كائنهـــا خصوم العقيدة الإسلامية وعرّى مقاصدهم وسخر بهم سخرية شديدة مليئة بالمرارة والاتهام .

ومقال « سر القبعة » واحد من ثلاثة عشر مقالاً كتبها الرافعي مسلسلة تحت عنوان كبير هو « أحاديث الباشا » عالج في كل حلقـة من الثلاث عشرة حلقة التي تضمهـــا السلسلة موضوعاً دينياً أو وطنياً أو سياسياً أو أخلاقياً .

وكان لهذا الباشا سكرتير – أو كما يسميه الرافعي « صاحب سره » – صديق لكاتبنا ينقـل إليه آراء الباشا ، أو بالأحرى ، الآراء التي يجريها الرافعي على لسانه ، فلقد كان هذا الباشا « ذكياً أديباً ، غير أن ملابسته للسياسة الدائرة على محورها جعلت نصف ذكائه من الذكاء ونصفه من المكر »[1] ومن خلال الذكاء والمكر المتقاسمين عقـل الباشا استطاع أن يبدي رأيه في كثير من المسائل وأن يعالج عدداً من المشاكل بروح النصفة والمنطق والبرهان . يقول الرافعي في مقال « سر القبعـة »[2] على لسان سكرتير الباشا مميطاً اللثام عن الأهداف الخبيثة من وراء فكرتها ، وليس من وراء مجرد ارتدائها :

« تجمعت في مصر حركة بعقب أيام البدعة التركية ، حين لم تبق لشيء

(١) انظر مقال الطماطم السياسي : وحي القلم ٢/٢٨٣

(٢) وحي القلم ٢/٣٢٢

هناك قاعدة إلا القاعدة الواحدة التي تقررها المشانق ، فمن أبى أن يخلع العمامة عن رأسه خلعوا رأسه ومن قال : لا انقلبت (لا) هـذه مشنقة فعلق فيها ».

« وكانت فكرة اتخاذ القبعة في تركيا غطاء للرأس قد جاءت بعـد نزعات من مثلها كما يجيء الحذاء في آخر ما يلبس من الملابس ، فلم يشكّ أحد في أنها ليست قبعة على أكثر مما هي طريقة لتربية الرأس المسلم تربية جديدة ليست فيها ركعة ولا سجدة ، وإلا فنحن نرى هذه القبعة على رأس الزنجي والهمجي والأبله والمجنون ، فما رأيناها جعلت الأسود أبيض ، ولا عرفناها نقلت همجياً عن طبعه ، ولا زعم أحد أنها أكملت العقل الناقص أو ردت العقل الذاهب ، أو انقلبت آلة لحـل مشكلات الرأس البليد أو غصبت الطبيعة شيئاً وقالت : « هذا لحاملي دون حامل الطربوش والعمامة » .

إن الرافعي يعارض في كلماته هذه مصطفى كمال الذي أرغم الشعب التركي على لبس القبعة ، ويعرض بسلامة موسى الذي بارك دعوة « التبرنط » وأضفى صفات التمدن على كل من يلبسها سواء أكان أبيض أو أسود أو هندي أو صيني أو ياباني ، أنه ما دام قد « تبرنط » فإنه — من وجهة نظر سلامة موسى — أخذ من المدنية بكل أسبابها .

ويستطرد الرافعي في رده على بدعة مصطفى كمال وعلى حجج الذين الذين ساروا في ركبه قائلاً :

« وقـد احتجوا يومئذٍ لصاحب تلك البدعة أنه لا يرى الوجه إلا المدنية ، ولا يعرف المدنية إلا مدنية أوربا ، فهو يمثلها كما هي في حسناتها وسيئاتها ، وما يحل وما يحرم ، وما يكون في حاجة إليه ، وما يكون في غنى عنه ، حتى لو كان الأوربيون عوراً بالطبيعة لجعل هو قومـه عوراً بالصناعة ليشبهوا الأوربيين » .

وينعطف الرافعي إلى الرد على بعض المصريين الذين تهوروا « وأخذوا

يدعون إلى « التقبع » في مصر إحتذاء بتركيا » وهنا يجري الحديث على لسان الباشا بعد أن سأله سكرتيره الرأي في وصول هـذه البدعة إلى مصر ، فيقول الباشا في سخرية لطيفة مريرة جارحة :

« ويحهم : ألا يخجلون أن نكون نحن المصريين مقلدين للتقليد نفسه ، إن هذه بدعة تنحط عندنا درجة عن الأصل ، فكأنها بدعتان » ثم يضحك الباشا ويقول :

« كان في القديم رجل سمع أن البصل بالخلّ نافـع للصفراء ، فذهب إلى بستان يملكه ، وقال لوكيله : ازرع بصلاً بخل ... هكذا يريدون من القبعات تخرج لهم تُرْكاً بأوربيين » .

« ليست هذه القبعة في تركيا هي القبعة ، بل هي كلمة سب للعرب وردٌ على الإسلام ضاقت بها كل الأساليب أن تظهرها واضحة بيّنة ، فلم يف بها إلا هذا الأسلوب وحده ، وهي إعلان سياسي بالمناوأة والمخالفة والانحراف عنا واطراحنا ، فإن الذي يخرج من أمته لا يخرج منها وهو في ثيابها وشعارها ، فبهذا انفتح لهم باب الخروج في القبعة دون غيرها مما يجري فيه التقليد أو يبدعه الابْتكار ، وإلا فأي سرّ في هذه القبعات ، ومتى كانت الأمم تقاس بمقاييس الخياطين !! » .

ويمضي الرافعي على لسان الباشا مستنكراً التقليد الأعمى ، داعياً إلى الأصالة إذا لم يكن بد من التجديد ، رافضاً القبعة بالطريقة التي أرادت أن تجيء بها أو أن تفرض علينا بها ، منتهياً في صراحة إلى أنها ليست مما يتفق مع رأس مسلم :

« أكُتِبَ علينا أن نظـل دهرنا نبحث في التقليد الأعمى ؟ وألا يحيا الشرقي إلا مستعبداً ينتظر في كل أموره من يقول له أشرع لي ؟ إن بحثنا فلنبحث في زيّ جديد نتميز به ، فتكون القوى الكامنة فينا وفي طبيعة أرضنا وجوّنا هي التي اخترعت لظاهرها مـا يجعله ظاهرها ، كما

يخرج زور الأسد لِبْدَة الأسد غاية في المنفعة والجمال والملاءمة ».

« أنا ألبس ما شئت ، ولكن عند القبعة أجد حداً تقف إليه ذاتيتي الفردية ، فلا أرى ثمة موضع انفراد ، ولكن موضع مشاكلة ، ولا أعرف صفة منفعة لي بل صفة حقيقة مني ، ويعترضني من هناك المعنى الذي يصير به النوع إلى الجنس ، والواحد إلى الجماعة ، وما دمت مسلماً أصلي وأركع وأسجد ، فالقبعة نفسها تقول لي : دعني فلست لك ».

وبعد أن يقرر الرافعي أن القبعة الأوربية على رأس المسلم المصري تهتك أخلاقي أو سياسي أو ديني أو كل ذلك جميعاً ، وأن الذين لبسوها لم يلبسوها إلا بعد أن تهتكت الأخلاق الشرقية الكريمة ، وتحلل أكثر عقدها واختلطت الحدود في الحرية وفي اللغة ، يقول :

« ومن اختلاط الحدود تجيء القبعة على رأس المسلم ، وما هي إلا حد يطمس حداً ، وفكرة تهزم فكرة ، ورذيلة تقول لفضيلة ها أنا ذي قد جئت فاذهبي ».

ومن الموضوعات السياسية الإسلامية التي أسهم الرافعي في ميدانها بقدر من طاقة قلمه وفيض عاطفته ودفق بيانه ، محنة فلسطين التي بدأت سياسيًّا منذ أن جعل الوزير الانجليزي « بلفور » من نفسه مالكاً لأرضها وسمائها ورقاب أهليها فمنحها لليهود بتصريحه المشهور ، والواقع أنه لا بلفور ولا بريطانيا ولا اليهود مجتمعين كان باستطاعتهم سرقة فلسطين لو أن العرب كانوا أعدوا للأمر عدته ، بل المؤسف أنه في الثلاثينيات من هذا القرن وقبل أن تُغتال فلسطين ببضعة عشر عاماً ، كان العرب من أهليها يحارب بعضهم بعضاً على أرضها بينما العدو اليهودي والعدو البريطاني يتربصان بالأرض وبأصحاب الأرض جميعاً ، وأما هؤلاء الذين لم يتورطوا في الصراع بين الفئات العربية بعضها البعض فقد كانوا آخذين بأسباب الترف القاتل الذي كانت تصدره أوربا ، مقبلين على اللذات متقاعسين عن تحقيق عظائم

الأمور ، إن الرافعي وقد أحسّ بخطورة الفترة التاريخية التي سبقت المحنة العربية الإسلامية والتي كان أحسّ بفطرته السليمة أنها سوف تكون محنة لا تقل عن المحن الكبرى التي ابتلي بها المسلمون عبر الدهور ، جعل مقاله في شكل نداء واستصراخ لشباب العرب ، وجعل عنوانه « يا شباب العرب » ، إنه يستهله بتقريع الشباب لتقاعسهم وانحلالهم وانصرافهم إلى الملذات وتهافتهم على كل رذائل أوربا فيقول(١) :

« يقولون إن في شباب العرب شيخوخة الهمم والعزائم ، فالشبان يمتدون في حياة الأمم وهم ينكمشون ...

وإن الهزل قد هوّن عليهم كل صعبة فاختصروها ، فإذا هزأوا بالعدو في كلمة فكأنما هزموه في معركة ...

وإن الشاب منهم يكون رجلاً تاماً ورجولة جسمه تحتج على طفولة أعماله .

ويقولون إن الأمر العظيم عند شباب العرب ألا يحملوا أبداً تبعة أمر عظيم .

ويزعمون أن هذا الشباب قد تمت الألفة بينه وبين أغلاطه ، فحياته هذه الأغلاط فيه ...

وأنه أبرع مقلد للغرب في الرذائل خاصة ، وبهذا جعله الغرب كالحيوان محصوراً في طعامه وشرابه وملذاته ...

ويزعمون أن الزجاجة من الخمر تعمل في هذا الشرق المسكين عمل جندي أجنبي فاتح ...

ويتواصون بأن أول السياسة في استعباد أمم الشرق ، أن يترك لهم الاستقلال التام في حرية الرذيلة .

ويقولون أنه لا بد في الشرق من آلتين للتخريب ، قوة أوروبا ورذائل أوروبا » .

---

(١) وحي القلم ٢/٢٤٩

وبعد أن يوجه الرافعي إلى شباب العرب هذا القدر من التقريع أو التقول عليهم يلتفت إليهم ويطلب منهم أن يكذبوا هذا الادعاء بالعمل والإرادة والواجب فيقول ماضياً في ندائه :

« يا شباب العرب : من غيركم يكذّب ما يقولون ويزعمون على هذا الشرق المسكين ؟

من غير الشباب يضع القوة بإزاء هذا الضعف الذي وصفوه لتكون جواباً عليه .

من غيركم يجعل النفوس قوانين صارمة تكون المادة الأولى فيها : قدَرنا لأننا أردنا .

ألا إن المعركة بيننا وبين الاستعمار معركة نفسية إن لم يقتل فيها الهزل قتل فيها الواجب ... » .

ثم يدفع الرافعي بالشباب إلى مواطن القوة الكامنة فيهم ويستنهض هممهم ويستشعرهم الحياة العزيزة أو الموت الكريم :

« الشباب هو القوة ، فالشمس لا تملأ النهار في آخره كما تملؤه في أوله ...

وفي الشباب نوع من الحياة تظهر كلمة الموت عنده كأنها أخت كلمة النوم .

وللشباب طبيعة أول إدراكها الثقة بالبقاء ، فأول صفاتها الاصرار على العزم .

وفي الشباب تضع كل شجرة من أشجار الحياة ثمارها ، وبعد ذلك لا تضنع الأشجار كلها إلا خشباً .

يا شباب العرب اجعلوا رسالتكم : إما أن يحيا الشرق عزيزاً وإما أن تموتوا » .

ويمضي الرافعي يولد معاني جديدة في ندائه لبعث القوة في الشباب ضارباً الأمثال من السلف الذي فتح الدنيا وملك أركان الأرض وما ذل

يوماً ولا خنع إلى أن ينتهي في بيانه إلى ميدان الكفاح والنضال فيقول:

« يا شباب العرب : كانت حكمة العرب التي يعملون عليها : اطلب الموت توهب لك الحياة ...

والنفس إذا لم تخش الموت كانت غريزة الكفاح أول غرائزها تعمل.

والكفاح غريزة تجعل الحياة كلها نصراً إذ لا تكون الفكرة معها إلا فكرة مقاتلة ...

غريزة الكفاح يا شباب هي التي جعلت الأسد لا يسمن كما تسمن الشاة للذبح .

وإذا انكسرت يوماً ، فالحجر الصلد إذا ترضرضت منه قطعة كانت دليلاً يكشف للعين أن جميعه حجر صلد » .

ومن مقالات الأدب السياسي الإسلامي عند الرافعي أيضاً ما كتبه حول نفس الموضوع ، أي ما كتبه حول محنة فلسطين بعنوان « أيها المسلمون[1] » . لعل الرافعي قد أحسّ أن المشكلة أكبر من أن تكون عربية فوضعها في إطارها الصحيح أي الإطار الإسلامي ، فوجّه نداءه هذه المرة إلى المسلمين قبل أن تصبح فلسطين محنة حقيقية يعيشها المسلمون منكسي الجباه ، لقد فهم الرافعي كما يفهم كل مسلم أن مشكلة فلسطين مشكلة إسلامية ولا شيء غير ذلك ، لقد كان يعلم — وهو المسلم الصادق — أن المسجد الأقصى للمسلمين جميعاً وليس للمسلمين العرب وحدهم ، وكان يعلم كذلك أن المسجد الأقصى هو أولى القبلتين ، كما كان يعلم أنه ثالث الحرمين ، وكان يقدر أن سقوط فلسطين سوف يشكل نكبة على الإسلام أمرّ من نكبة خروجه من الأندلس وصقلية وجزر البحر الأبيض ، لقد

---

(١) وحي القلم ٢/٢٦٠

أحس الرافعي بغريزة المسلم أن نكبة فلسطين سوف تكون نكبة إسلامية وليس فقط نكبة عربية . ومن هنا كان عنوان مقاله الثاني « أيها المسلمون » ، وليس « أيها العرب » فغالبية العرب مسلمون ، وليس كل المسلمين عرباً ، والمسجد الأقصى وبيت المقدس للمسلمين جميعاً .

يقول الرافعي في مقاله ، بل في ندائه واستغاثته[1] :

« أيها المسلمون ، ليست هـذه محنة فلسطين ، ولكنها محنة الإسلام ، يريدون ألا يثبت شخصيته العزيزة الحرة .

كل قرش يدفع الآن لفلسطين ، يذهب هناك ليجاهد هو أيضاً » .

ويذكر الرافعي أهل فلسطين الذين توقع لهم الطرد من ديارهم والتشريد والضياع ووصفهم بالإخوان المجاهدين ، المنكوبين ، المضطهدين فقال :

« أولئك إخواننا المجاهدون ، ومعنى ذلك أن أخلاقنا هي حلفاؤهم في هذا الجهاد .

أولئك إخواننا المنكوبون ، ومعنى ذلك أنهم في نكبتهم امتحان لضمائرنا نحن المسلمين جميعاً .

أولئك إخواننا المضطهدون ، ومعنى ذلـك أن السياسة التي أذلتهم تسألنا : هل عندنا إقرار الذل ؟

ماذا تكون نكبة الأخ إلا أن تكون اسماً آخر لمروءة سائر إخوته أو مذلتهم ؟

« أيها المسلمون ، كل قرش يدفع لفلسطين ، يذهب إلى هناك ليفرض على السياسة احترام الشعور الإسلامي » .

يمضي الرافعي في بيانه أو مقاله الإسلامي الخطير فيذكر البلاء الأسود

---

(١) وحي القلم ٢/٢٦٠ – ٢٦٣

الذي توقع أن يبتلي بـه الفلسطينيون ويصف خطر اليهود الذي أتى به الاستعمار والصليبية قائلاً :

« ابتلوهم باليهود يحملون في دمائهم حقيقتين ثابتتين من ذل المـاضي وتشريد الحاضر .

ويحملون في قلوبهم نقمتين طاغيتين ، إحداهما من ذهبهم والأخرى من رذائلهم .

ويخبئون في أدمغتهم فكرتين خبيثتين ، أن يكون العرب أقليـة ثم أن يكونوا بعد ذلك خدم اليهود .

وفي أنفسهم الحقـد ، وفي خيالهم الجنون ، وفي عقولهم المكر وفي أيديهم الذهب الذي أصبح لئيماً لأنه في أيديهم » .

ويلفت الرافعي النظر إلى جناية الإنجليز على فلسطين كثمرة للرشوة التي نالوها من اليهود فيقول :

« يقول اليهود : إنهم شعب مضطهد في جميع بـلاد العالم ، ويزعمون أن من حقهم أن يعيشوا أحراراً في فلسطين ، كأنها ليست من جميع بلاد العالم .

وقد صنعوا للإنجليز أسطولاً عظيماً لا يسبح في البحار ، ولكن في الخزائن .

أراد الانجليز أن يطمئنوا في فلسطين إلى شعب لم يتعود قط أن يقول أنا . ولكن لماذا كنستكم كل أمة من أرضها بمكنسة أيها اليهود ؟ »

ويلتفت الرافعي إلى المسلمين محذراً منبهاً إلى قوة الاسلام وعزة المسلم التي يمكن أن تمنع الشر قبل وقوعه بقوله :

« أجهلتم الإسلام ؟ الإسلام قوة كتلك التي توجد الأنياب والمخالب في كل أسد .

قوة تخرج سلاحها بنفسها لأن مخلوقها عزيز لم يوجد ليؤكل ، ولم يخلق ليذل .

قوة تجعل الصوت نفسه حين يزجر ، كأنه يعلن الأسدية العزيزة إلى الجهات الأربع .

ولئن كانت الحوافر تهيئ مخلوقاتها ليركبها الراكب ، إن المخالب والأنياب تهيئ مخلوقاتها لمعنى آخر » .

ويتوجه الرافعي – وقد أحسّ بالمصيبة في فلسطين وتنبأ بها – إلى جمهور المسلمين مستنهضاً هممهم محركاً نخوة العزة فيهم للجهاد بالمال والتبرع لإنقاذ الأرض العربية المسلمة وهو أضعف الإيمان قائلاً لهم :

« لو صام العالم الإسلامي كله يوماً واحـــداً وبذل نفقات هذا اليوم الواحد لفلسطين لأغناها .

لو صام المسلمون كلهم يوماً واحداً لإعانة فلسطين لقال النبي مفاخراً الأنبياء : هذه أمتي .

لو صام المسلمون جميعاً يوماً واحداً لفلسطين لقال اليهود اليوم ما قاله آباؤهم من قبل : إن فيها قوماً جبارين .

أيها المسلمون ، هذا موطن يزيد فيه معنى المال المبذول فيكون شيئاً سماوياً .

كل قرش يبذله المسلم لفلسطين يتكلم يوم الحساب يقول : يا رب أنا إيمان فلان » .

لقد صاغ الرافعي بيانه بكل جارحة بلاغية فيه ، وكل خاطرة مؤمنة في قلبه ، ولكن المسلمين لم يصوموا ولم يتحركوا ، وضاعت فلسطين ، وما أحسب أن رسول الله سوف يفاخر الأنبياء بهذا الجيل المتقاعس ، جيـل النكبة والهزيمة قائلاً : هذه أمتي .

وفي نطاق المفهوم السياسي للرافعي نجـــد أنه يؤمن بالوحدة العربية ولكن في إطار محوط بالإسلام ، لقد عاش الرافعي حياته كلها في زمان

احتلال الأنجليز لمصر ، ولقد رأى بعينيه وسمع بأذنيه كل أسباب الامتهان التي حلت بشعبه المستعبد المغلوب على أمره الغريب في وطنه المنبوذ على أرضه ، وإذا كان الإنجليز يحتلون الأرض التي ولد فيها وترعرع على أديمها وأخيراً دفن في ترابها ، فإن الشطر الثاني من أسرته الرافعية كان يعيش في أرض عربية أخرى هي لبنان حيث فعل الاحتلال الفرنسي بها أكثر مما فعل الإنجليز بمصر ، والاحتلال على كل حال مذلة للنفس وعبودية للشعب ، وتمريغ لكرامته في التراب .

لم يقف الأمر بالرافعي عند حد التفكير في عبودية مصر ولبنان ، ولكنه نظر إلى كل أقطار الأمة العربية فوجدها جميعاً تقع تحت نفس الامتهان والاستذلال ، فالعراق والسودان وفلسطين والخليج العربي والجنوب العربي يحتله الإنكليز ، وسورية وتونس والجزائر ومراكش يحتلها الفرنسيون ، وليبيا يحتلها الإيطاليون وكأنما قد كتب على الأرض العربية كلها أن يكون ترابها مباحاً للمستعمرين وأهلوها عبيداً للأوربيين .

فكر الرافعي في حاضر هذا الوطن العجيب ، وفكر أيضاً بحكم ثقافته ووطنيته وعلمه بالتاريخ في ماضي هذا الوطن ، فإذا حاضره عبودية واسترقاق ، وإذا ماضيه سيادة وسؤدد ، وربط بين الحاضر والماضي، فإذا عبودية الحاضر قد جاءت نتيجة للتفرق والتأخر والانحلال الأخلاقي وضعف الوازع الديني ، وإذا سؤدد الماضي كان نتيجة لوحدة الأرض وتماسك سكانها خلقياً ودينياً ، وإذا كلمة الحق عالية ، وروح العدالة مطبقة ، وحكم الشورى يظلل جميع المواطنين دون استثناء ، فانتهى إلى تبني فكرة الوحدة الإسلامية على الأرض العربية . ولا يكون الأمر عنده مجرد الإسلام شكلاً ، ولكنه يعني الإسلام موضوعاً ، بكل الفضائل والمزايا السياسية والاجتماعية المنبثقة عن شريعته الغراء من شورى وديموقراطية ومساواة ، بعيدة عن شعارات الغرب ومفاهيمه .

والرافعي يبني نظريته على فلسفة الفكرة الإسلامية التي تترجم عنها

الآية الكريمة « إنما المؤمنون إخوة » فيقول في مقاله : « نهضة الأقطار العربية [1] » :

« ولما كان المسلمون إخوة بنص دينهم ، وكانت مبادئهم واحـــدة ، ومنافعهم واحدة ، وكتابهم واحد ، فلا جرم كان من السهل — لو رجعوا إلى أخلاق دينهم وانتبذوا ما يصدهم عنها — أن يؤلفوا من الشرق كله دولاً متحدة يحسب لها الغرب حساباً ذا أرقام لا تنتهي ».

ويعمد الرافعي إلى تأكيد فكرته حول نهضة الشرق العربي في ظل الإسلام فيضيف إليها اللغة العربية . والعقيدة واللغة عند الرافعي توأمان لا يفترقان ، وهو يرى أن الاعتداء على واحدة منهما — حسبما مر بنا في صفحات سابقة — اعتداء على الأخرى ، وهو في ربطه بينهما حتى في مجال السياسة يقول :

« والذي أراه أن نهضة الشرق العربي لا تعتبر قائمة على أساس وطيد إلا إذا نهض بها الركنان الخالدان : الدين الإسلامي واللغة العربية ، وما عداهما فعسى ألا تكون له قيمة في حكم الزمن الذي لا يقطع بحكمه على شيء إلا بشاهدين من المبدأ والنهاية » .

ويرسم الرافعي للأمة دستور نهضتها وأساس بنائها في ظـل الأخلاق الإسلامية فيقول :

« وإذا كان لا بد للأمة في نهضتها من أن تتغير ، فإن رجوعنا إلى الأخلاق الإسلامية الكريمة أعظم ما يصلح لنا من التغيير وما تصلح بـه منه ، فلقد بعد مـــا بيننا وبين بعضها ، وانقطع ما بيننا وبين البعض الآخر ، وإذا نحن نبـذنا الخمر والفجور والقمار والكذب والرياء ، وإذا أنفنا من التخنث والتبرج والاشتهار بالمنكرات ، والمبالغة في المجون والسخف

---

(١) وحي القلم ١٩٨/٣ وما بعدها .

والرقاعة[1] ، وإذا أخذنا في أسباب القوة ، واصطنعنا الأخلاق المتينة من الإرادة والإقدام والحمية ، وإذا جعلنا لنا صبغة خاصة تميزنا من سوانا ، وتدل على أننا أهل روح وخلق ، إذا كان ذلك كله ، فلعمري أي ضير في ذلك كله ؟ وهل تلك إلا الأخلاق الإسلامية الصحيحة ، وهل في الأرض نهضة ثابتة تقوم على غيرها » .

لقد وضع الرافعي هنا الأسس التي تبنى عليها أمة صحيحة الجسم والعقل والوجدان ، لا يمكن لأسباب المرض والفناء أن تتسرب إليها ما كانت مستمسكة بهذه الأسباب ، ثم يذكر في مقاله النبوءة المحمدية التي انتهت بالشرق العربي إلى الاستذلال والخضوع للاستعمار الأوربي ، والأسباب التي تؤدي إلى هذا الخضوع والخنوع ، حينما قال الرسول ﷺ لأصحابه يوماً :

« كيف بكم إذا اجتمع عليكم بنو الأصفر[2] اجتماع الأكلة على القصاع ؟!! »

فقال عمر رضي الله عنه : « أمن قلة نحن يومئذٍ يا رسول الله أم من كثرة ؟ فيجيب الرسول : بل من كثرة ، ولكنكم غثاء كغثاء[3] السيل قد أوهن قلوبكم حب الدنيا » .

والإسلام في سماحته لا يغفل الأقلية غير المسلمة التي يحفظ لها كل حقوقها في التعبير والتملك ومزاولة الطقوس الخاصة بها والحفاظ عليها في إطار من الأمن ونطاق من العدل، وبالتالي فإن الرافعي لا يغفل شأن الأقلية غير المسلمة في إيمانه بالوحدة العربية الإسلامية فيقول :

« إن من خصائص هذا الدين الأخلاقي أنه صلب فيما لا بد للنفس الإنسانية منه إذا أرادت الكمال الإنساني ، ولكنه مرن فيما لا بد منه

---

(١) لكأن الرافعي يعيش بيننا الآن ويصف سوء حال كثير من شبابنا .
(٢) بنو الأصفر هم الروم والمقصود بهم الأوربيون .
(٣) الغثاء ما يحمله السيل من الهشيم والحطام الذي لا قيمة له ولا قوة فيه .

لأحوال الأزمنة المختلفة مما لا يأتي على أصول الأخلاق الكريمة ، وليس يخفى أنه لا يغني غناء الدين شيء في نهضة الأمم الشرقية خاصة ، فهو وحده الأصل الراسخ في الدماء والأعصاب ، ومتى نهض المسلمون وهم مادة الشرق ، نهض إخوانهم في الوطن والمنفعة والعادة من أهل الملل الأخرى »

والوطن الإسلامي العربي الذي يريده مصطفى صادق الرافعي ويبشر به ، وطن أصيل لا يقلد ولا يتهافت على الغرب ، فالتقليد الأعمى مذمة ومحطة ، ولكن لا بأس من الأخذ بأسباب الحسن وتطويره بما يجعله ملائماً لطبيعتنا الشرقية والدينية ، وليس على الرافعي في ذلك من بأس ، فإن الحضارة الإسلامية الرفيعة التي أضاءت جنبات الدنيا ونورت العقول وهذبت الأفهام ، لم تستنكف من أن تفيد من الكثير النافع في حضارات الأمم الأخرى السابقة لزمانها أو المعاصرة لها ، والرافعي تبعاً لذلك يقول :

« وإني أرى أنه لا ينبغي لأهل الاقطار العربية أن يقتبسوا من عناصر المدنية الغربية اقتباس التقليد ، بل اقتباس التحقيق ، بعد أن يعطوا كل شيء حقه من التمحيص ، ويقلبوه على حالتيه الشرقية والغربية ، فإن التقليد لا يكون طبيعة إلا في الطبقات المنحطة ، وصناعة التقليد وصناعة المسخ فرعان من أصل واحد ، وما قلد المقلد بلا بحث ولا روية إلا أتى على شيء في نفسه من ملكة الابتكار ، وذهب ببعض خاصيته العقلية » .

ثم يستدرك الرافعي قائلاً :

« على أننا لا نريد من ذلك ألا نأخذ من القوم شيئاً ، فإن الفرق بعيد بين الأخذ من المخترعات والعلوم ، وبين الأخذ من زخرف المدنية ، وأهواء النفس وفنون الخيال ورونق الخبيث والطيب ، إذ الفكر الإنساني إنما ينتج الإنسانية كلها ، فليس هو ملك لأمة دون أخرى ... فإن نحن أخذنا من النظامات السياسية فلنأخذ ما يتفق مع الأصل الراسخ في آدابنا من الشورى والحرية الاجتماعية عند الحد الذي لا يجور على أخلاق الأمة ولا يفسد مزاجها ولا يضعف قوتها » .

ومصطفى صادق الرافعي مؤمن بكل رأي قاله في هذا السبيل ، متفائل بنهضة الشرق وانفلاته من براثن الغرب ، وليس أدل على ذلك من قوله الذي صدّر به مقاله في هذا الشأن :

« لا ريب في أن النهضة واقعـــة في الأقطار العربية ، مستطيرة في أرجائها استطارة الشرر يضرم في كل جهة ناراً حامية ، ويستمد من كل ما يتصل به لعنصره الملتهب ، ولا ريب أن الشرق قد تفلّت من أوهام السياسة وخرافاتها ، وقد اختلف على الغرب بعد أن طابقه زمناً ، وتابعه مدة وعرفه بمقدار ما بلاه ، وكذبه بمقدار ما صدقه ، ونفر منه بمقدار ما أطمأن إليه . ولا ريب أن العقل الشرقي قـد تطور ، وأدرك معنى نكث العهد ، ونقض الشرط في السياسة الغربية ، وعلم أن ذلك هو بعينه العهد والشرط في هذه السياسة ما دامت المفاوضة والتعاقد بين الذئب والشاة » .

لقد تحقق الكثير مما تنبأ به الرفعي ونادى به وخطط له ، وإذا كان البعض من أبناء هذه الأمة – وهم قلة لحسن الحظ – لا يزالون يركضون وراء الغرب ويعزفون له أنغام الود على قيثارة الجهل ، فإن ذلك لم يقف عقبة في سبيل مسيرة الأمة نحو وحدتها المنشودة في ظل من العزيمة وإطار من الخلق ونبذ لكل سيطرة غريبة على تراب الوطن العربي أو عقول أبنائه .

ومجمل القول في هذا السبيل أن التقارب العربي الذي تم بتشجيع من الانجليز في أول الأمر وانتهى إلى الجامعة العربية الحالية ، كان من وجهة النظرة السياسية للرافعي ينبغي أن يكون اتحاداً كاملاً أو بالأحرى وحدة كاملة شاملة للأرض العربية والمواطنين العرب تحت راية الإسلام وشريعته وثقافته وحضارته . .

(٣)

أدب المحاجّة والمجادلة :

منذ مطلع هـــذا القرن والمراقب لما يجري في ديارنا يلمح في سهولة تيارات غريبة خافيــة حيناً وظاهرة أحياناً تنادي بالتخلص من عقيدة

الشعب ولغته وعاداته ، والتطاول على مقدساته ومحاولة تجريحها والنيل منها ، حدث هذا في الماضي وأدى إلى المعارك الشديدة الضارية التي خاضها الرافعي ببسالة وضراوة ضد المنادين بهذه الآراء حسبما بسطنا القول عند الحديث عن الدعوات التي تبناها الأساتذة طه حسين وسلامة موسى ولطفي السيد وغيرهم ممن قضى بعضهم وترك هـذه الدنيا ، وبقي البعض الآخر مستترداً أسباب التدين والإيمان والاعتراض على آراء سبق أن نادى بها ومعتقدات سلف له أن تبناها .

غير أنه في زحمة الأحداث الخطيرة المعاصرة لا تعدم الأمة من يقوم في ظلمة انشغال الناس بالحيوي من الأمور فينادي بأنه لا صلاح لهـذه الأمة إلا إذا تخلت عن عقيدتها ولغتها وتقاليدها ، وأذكر أن مقالاً من هذا النوع أو أكثر قد نشر في بعض صحفنا العربية ، وقد ظن هذا الكاتب او ذاك أنه يتابع رسالة معينة سلفت ثم ما لبثت أن طويت صفحتها في حياة من نادوا بها وقبل أن يغادروا دنيانا إلى دنيا الحق وعالم العدالة الأبدية .

لقد ظهرت هذه الدعوات إذن في حياة الرافعي وشملت التنكر للدين والقرآن واللغة والعادات ، ولقد ضربنا الأمثلة لكل دعوة من هـذه الدعوات وأصحابها ، وكانت هذه الدعوات نفسها سبباً في معارك تاريخية أدبية دينية كبرى مثـل معركة الشعر الجاهلي التي تمخضت عن كتاب « المعركة تحت راية القرآن » أو « بين القديم والجديد » للرافعي ، وغيره من كتب الذين أسهموا في المعركة .

غير أن الرافعي مرة أخرى وبعد مرور عشر سنوات على معركة « الشعر الجاهلي » يكتب مقالاً[1] يرد فيه على نفس دعوة الهـدم التي تستهدف اللغة والدين والعادات تحت عنوان « اللغة والدين والعادات باعتبارها من مقومات الاستقلال »[2] .

---

(١) كانت معركة الشعر الجاهلي سنة ١٩٢٦ ومقال « اللغة والدين والعادات » سنة ١٩٣٦

(٢) وحي القلم ٣/: ٣ وما بعدها .

فالرافعي يتناول الموضوع من ناحية قاتلة لخصومه لأنه ربط الالتزام باللغة والعقيدة والعادات بالاستقلال، وبالتالي فإن التخلي عن هذه العناصر الثلاثة هو دعوة للهدم والتعفن وسير في الانحلال والعبودية، والكاتب لا يطلق مجرد شعارات عاطفية، ولا ينادي بمجرد أفكار مثيرة كي يستهلكها العامة ويعجبوا بها، وإنما يقيم البرهان السليم على قوله، ويبسط الدليل المقنع على فكرته. ويجادل هؤلاء الذين عاصروه فيما نادوا به وسعوا إليه، في عمق وإيمان واستغناء، بل لعله صرع سلفاً بعض المعاصرين لنا الذين يظهرون في غمرة انشغال الأمة بأحداثها منادين بنفس الانحرافات وبنفس العبارات والكلمات.

إن الرافعي لا يرى أن مجرد تجمع شعب حول مجموعة من القوانين يمكن أن يشكل أمة، ولكن الذي يشكل أمة من الأمم هو «الكائن الروحي المكتن في الشعب، الخالص له من طبيعته، المقصور عليه في تركيبه».

ويزيد الرافعي الأمر وضوحاً حول الكائن الروحي الذي يخلق الأمة فيقول:

«وهذا الكائن الروحي هو الصورة الكبرى للنسب في ذوي الوشيجة من الأفراد، بيد أنه يحقق في الشعب قرابة الصفات بعضها من بعض، فيجعل للأمة شكل الأسرة، ويخلق في الوطن معنى الدار، ويوجد في الاختلاف نزعة التشابه، ويرد المتعدد إلى طبيعة الوحدة، ويبدع للأمة شخصيتها المتميزة، ويوجد لهذه الشخصية بإزاء غيرها قانون التناصر والحمية، إذ يجعل الخواطر مشتركة، والدواعي مستوية، والنوازع متآزرة، فتجمع الأمة كلها على الرأي: تتساند له بقواها ويشد بعضها بعضاً فيه، وبهذا كله يكون روح الأمة قد وضع في كلمة الأمة معناها».

هذا كلام فيه فكرة وفيه إبداع ومنطق وتسلسل، إنها أفكار رجل درس كيان نشأة الأمم وفلسفتها، وبقائها عزيزة وفنائها ذليلة، كل ذلك في ثوب من جمال القول، وفي إطار من رائع البيان، لا يكاد يستقيم لكاتب آخر غير الرافعي لمؤهلاته الدينية والبيانية والعقلية والوطنية.

ويربط الرافعي بين التسلسل المنطقي الذي ساقه للتعريف بالكائن الروحي الأمة وبين الدين واللغة والعادات فيقول :

« والخلق القوي الذي ينشئه للأمة كائنها الروحي ، هو المبادئ المنتزعة من أثر الدين واللغة والعادات ، وهو قانون نافذ يستمد قوته من نفسه ، إذ يعمل في الخير الباطن من وراء الشعور ، متسلطاً على الفكر ، مصرفاً لبواعث النفس ، فهو وحده الذي يملأ الحيّ بنوع حياته وهو طابع الزمن على الأمم ، وكأنه على وجه التحقيق وضع الأجداد علامتهم الخاصة على ذريتهم » .

وبعد هذا التعميم الذي عمد إليه الرافعي وجعل منه مقدمة للانطلاق إلى التخصيص ، يبدأ حديثه عن اللغة باعتبارها من مقومات الاستقلال ، إذا قويت قويت الأمة وإذا ذلت ذلت الأمة بل إن العكس أيضاً صحيح بمعنى أنه إذا عزت الأمة عزت لغتها وانتشرت ، وإذا ذلت الأمة ذلت لغتها وانحسرت . وليس من شك في أن هذا الرأي على جانب كبير من الصواب إن لم يكن هو الصواب نفسه ، ففي القرن الماضي والثلث الأول من هذا القرن كانت فرنسا على سبيل المثال دولة قوية الشخصية مرهوبة الجانب ، وكانت المدرسة الفكرية الفرنسية تسود العالم بجوانب ثقافتها ، فكانت اللغة الفرنسية هي لغة المحافل الدولية التي تلتقي على أرضها كافة شعوب الأرض حين تعوزها لغــة مشتركة للتفاهم ، فلما تخلى النصر عن فرنسا في الحرب العالمية الثانية وبالتالي نزلت مكانتها الدولية عن سابق درجتها ، وربحت النصر أمريكا أو اختطفته ، أصبحت اللغة الإنجليزية — وهي لغة أمريكا كما هو معروف — هي اللغة الدولية السائدة والتي يلتقي على أرضيتها شعوب الأرض يتفاهمون بها إذا عز التفاهم بلغة أخرى .

وفي تاريخ أمتنا العربية كان الأمر كذلك حينما كان العرب أصحاب القوة وأرباب الحضارة الإنسانية والقوامين على الثقافة العالمية ، بل لم تكن الأمم الأخرى تستعمل لغتنا لمجرد التفاهم بينها ، وإنما اتخذت كثير من

الشعوب اللغة العربية لغـة قومية لها ، فكان المتحدثون بها يعيشون على أرض تمتد من حدود الصين شرقاً حتى المحيط الأطلنطي غرباً بما في ذلك شواطئ أفريقيا وأوربا ، بل كان كثير من شباب شمال إسبانيا وجنوب فرنسا يتخذون العربية لغة للتفاهم بينهم أخذاً بأسباب الحضارة والمدنية .

وإذن فالرافعي حين يدافع عن اللغة ضد المغيرين عليها ممن يحاولون اغتيالها وهم في نفس الوقت يستعملونها في التفاهم والكتابة وحينما يربط بين لغة الأمة واستقلال الأمة ، فإنما هو بطل قومي يخوض معركة ضد أعداء القومية سواء أكان بعضهم قد أقدم على ذلك بحسن نية أو أقدم البعض الآخر وهو سيئ النية ممتلئ بالحقد والدخلة على أقدم وأقدس لغة تعيش اليوم على وجه الأرض .

يتحدث الرافعي عن اللغة وهي أولى العناصر الثلاثة — اللغة والدين والعادات — فيقول :

« وأما اللغة فهي صورة وجود الأمـة بأفكارها ومعانيها ، وحقائق نفوسها وجوداً متميزاً قائماً بخصائصه : فهي قومية الفكر ، تتحـد بها الأمة في صور التفكير وأساليب أخذ المعنى من المادة . والدقة في تركيب اللغة دليل على دقـة الملكات في أهلها ، وعمقها هو عمق الروح ودليل الحسّ على ميل الأمة إلى التفكير والبحث في الأسباب والعلل ، وكثرة مشتقاتها برهان على نزعة الحرية وطماحها » .

إن من واجبنا أن نقف طويلاً أمام هذا التحليل الدقيق الذي عمد إليه الرافعي عمداً وهو يربط بين اللغة وأفكار أهلها وملكاتهم ، ويجعل من عمقها دليلاً على ميل الأمة إلى التفكير والبحث والاستقصاء ، ولذلك فإن الذين نادوا بتشويه اللغة أو النيل منهـا لم يكونوا من الإلمام بها والإحساس بأسباب جمالهـا بحيث يستطيعون أن يصدروا أحكاماً بعيدة عن الانحراف والميل ، إنني لا زلت أذكر واحداً من الكتاب الذين لا

يفتأون ينادون بانخلاعنا من عقائدنا ولغتنا وعاداتنا حتى نواكب — من وجهة نظره — ركب الحضارة ، لم يستطع أن يفهم نصاً تاريخياً للجبرتي وليست لغة الجبرتي صعبة أو شبه صعبة ، فقد قرأ في الجبرتي أن الجنود الفرنسيين إبان الحملة الفرنسية على مصر كانوا يريدون اطلاق الأنثى ، فساقه عجزه من فهم اللغة التي يحاربها ويطلب الانخلاع منها إلى أن تعبير إطلاق الأنثى بمعنى أن تعطى حريتها وبنى على ذلك تمجيداً لفرنسا وحفاوة بالجنود الفرنسيين والغزو الفرنسي لمصر ، ولو أن لهذا الكاتب ثقافة لغوية على مستوى برامج المدارس الثانوية لعرف أن إطلاق الأنثى بمعنى مطلق أنثى لقضاء حاجة بهيمية منها ، وليس لمنحها حريتها كما هداه فهمه المحدود للغة .

وما دامت اللغة تضم هـذه الخصائص الرفيعة التي ساقها الرافعي ، فكان أمراً طبيعياً أن تكون هذه اللغة هدفاً للمستعمرين يحاربونها ويحاولون القضاء عليها وتشويهها والنيل منها واستعداء عملائهم من أبنائها عليها ، ولقـد مر بنا كيف تحالف ضدها مهندس الري الانجليزي ولكوكس والقاضي الانجليزي ولمور وأعداؤها من دعاة الفرعونية وأعـداء العروبة والإسلام ، وإذا نجح الاستعمار في القضاء على لغة شعب قطع أسباب صلته بماضيه ، ولعل ذلك كان الهدف الأول لمصطفى كمال حين دفعته الصهيونية العالمية إلى تغيير شكل الكتابة التركية من الحروف العربية إلى الحروف اللاتينية ، فضلاً أن اللغة نفسها ليست رابطة الأمة بماضيها وحسب ، وإنما هي رابطة أبناء الأب الواحد بعضهم ببعض .

إن الرافعي يوضح هذه القضية في قوله :

« لا جرم كانت لغة الأمة هي الهدف الأول للمستعمرين ، فلن يتحول الشعب أول ما يتحول إلا من لغته ، إذ يكون منشأ التحول من أفكاره وعواطفه وآماله ، وهو إذا انقطع من نسب لغته انقطع من نسب ماضيه ، ورجعت قوميته صورة محفوظة في التاريخ ، لا صورة محققة في وجوده ، فليس كاللغة نسب للعاطفة والفكر ، حتى إن أبناء الأب الواحـد لو

اختلفت ألسنتهم فنشأ منهم ناشئ على لغة ، ونشأ الثاني على أخرى ، والثالث على لغة ثالثة لكانوا في العاطفة كأبناء ثلاثة آباء » .

ويربط الرافعي بين عزة اللغة وعزة أبنائها وذلهم إن ذلت فيقول :

« وما ذلت لغة شعب إلا ذل ، ولا انحطت إلا كان أمره في ذهاب وإدبار ، ومن هذا يفرض الأجنبي المستعمر لغته فرضاً على الأمة المستعمرة ويركبهم بها ، ويشعرهم عظمته فيها ويستلحقهم من ناحيتها ، فيحكم عليهم أحكاماً ثلاثة في عمل واحد : أما الأول فحبس لغتهم في لغته سجناً مؤبداً ، وأما الثاني فالحكم على ماضيهم بالقتل ، وأما الثالث فتقييد مستقبلهم في الأغلال التي يضعها ، فأمرهم من بعدها لأمره تبع » .

وينتقل الرافعي إلى العنصر الثاني في مقومات استقلال الأمة ، وهو الدين ، فيتناوله من زاوية وظيفته الاجتماعية والإنسانية في الحفاظ على الأمة فيقول :

« والدين هو حقيقة الخلق الاجتماعي في الأمة ، وهو الذي يجعل القلوب كلها طبقة واحدة على اختلاف المظاهر الاجتماعية عالية ونازلة وما بينهما ، فهو بذلك الضمير القانوني للشعب ، وبه لا بغيره ثبات الأمة على فضائلها النفسية ، وفيه لا في سواه معنى إنسانية القلب » .

وكما ربط الرافعي بين ذل اللغة وذل الأمة ، فهو يجري نفس الربط بين ضعف الدين في الأمة وفساد روابطها الاجتماعية ، وإذا فسدت الروابط الاجتماعية في جسم الأمة ضعف كيانها وتحلل وأمكن للدخيل أن ينال منها وأن يغلبها على أمرها ويستعبدها . والعكس صحيح أيضاً لأن الدين رابطة مقدسة بين أبناء الأمة الواحدة ، وهو الذي ينظم هندستها الاجتماعية ويخلق من كل فرد فيها إنساناً فاضلاً ، ومواطناً صالحاً :

« وكل أمة ضعف الدين فيها اختلفت هندستها الاجتماعية ، وماج بعضها في بعض ، فإن من دقيق الحكمة في هذا الدين أنه لم يجعل الغاية

الأخيرة من الحياة غاية في هذه الأرض ، وذلك لتنظم الغايات الأرضية في الناس فلا يأكل بعضهم بعضاً ، فيقتني الغني وهو آمن ، ويفتقر الفقير وهو قانع ، ويكون ثواب الأعلى من أن يعود على الأسفل بالمبرة ، وثواب الأسفل في أن يصبر على ترك الأعلى في منزلته ، ثم ينصرف الجميع بفضائلهم إلى تحقيق الغاية الإلهية الواحدة التي لا يكبر عليها الكبير ، ولا يصغر عليها الصغير ، وهي الحق والصلاح والخير والتعاون على البر والتقوى » .

ويستطرد الرافعي على عادته مفرعاً من الأصل الذي اطمأن إلى ثباته وتأصله منتهياً إلى أن خير قوة لاستقلال الأمة والحفاظ عليه إنما هي قوة الدين نفسه ، فيقول :

« وما دام عمل الدين هو تكوين الخلق الثابت الدائب في عمله ، المعتز بقوته ، المطمئن إلى صبره ، النافر من الضعف ، الأبي على الذل ، الكافر بالاستعباد ، المؤمن بالموت في المدافعة عن حوزته ، المجزيّ بتساميه وبذله وعطفه وإيثاره ومفاداته ، والعامل في مصلحة الجماعة ، المقيد في منافعه وبواجباته نحو الناس — ما دام عمل الدين هو تكوين هذا الخلق — فيكون الدين في حقيقته هو جعل الحس بالشريعة أقوى من الحس بالمادة ، ولعمري ما يجد الاستقلال قوة هي أقوى له وأردّ عليه من هذا المعنى إذا تقرر في نفوس الأمة وانطبعت عليه »

وينهي الرافعي جـدله في ضرورة التدين لصون الاستقلال بهذه الجملة العميقة الدلالة :

« وهذه الأمة الدينية التي يكون واجبها أن تشرف وتسود وتعتز ، يكون واجب هذا الواجب فيها ألا تسقط ولا تخضع ولا تذل » .

وبعد أن استوفى الرافعي الحديث عن اللغة والدين في نطاق المحافظة على الاستقلال ، ينطلق إلى الركيزة الثالثة من ركائز الاستقلال ، وهي العادات ، وهو يرد بذلك حسبما أسلفنا على الفئة القليلة التي تنادي بتخلي

الأمـــة عن عاداتها لتلحق بركب التقدم ، ولكن الرافعي يرى كما يرى جمهرة المخلصين من أبناء الأمة أن المحافظة على العادات هي ركيزة من ركائز الاستقلال وأن التخلي عنها إنما هو خطوة إلى تحلل الأمة وتنكرها لماضيها ولتاريخها وللمعاني السامية التي لا بد لها من أن تتمسك بأهدافها ، ولذلك فهو يبدأ بتعريف وظيفتها في الأمة قائلاً :

« والعادات هي الماضي الذي يعيش في الحاضر ، وهي وحدة تاريخية في الشعب تجمعه كما يجمعه الأصل الواحد ، ثم هي كالدين في قيامها على أساس أدبي في النفس ، وفي اشتمالها على التحريم والتحليل ، وتكاد عادات الشعب تكون ديناً ضيقاً خاصاً به ، يحصّره في قبيله ووطنه ، ويحقق في أفراده الألفة والتشابك ، ويأخذهم جميعاً بمذهب واحد : هو إجلال الماضي ».

وللماضي وظيفة روحية كبرى في نفوس الشعوب الأصيلة ولذلك فإن « إجـلال الماضي في شعب تاريخي هو الوسيلة الروحية التي يستوحي بها الشعب أبطاله ، وفلاسفته ، وعلماءه وأدباءه ، وأهل الفن منه ، فيوحون إليه وحي عظائمهم التي لم يغلبهـا الموت ، وبهذا تكون صورهم العظيمة حيةً في تاريخه ، وحيةً في آماله وأعصابه » .

ويمضي الرافعي في حديثه عن العادات ومدى ربطها المواطن بوطنه ، ومتى كان المواطن مرتبطاً بالوطن كان حبــه له أشد وأعمق ، ومتى كان حبه هكذا ، رخصت حياته في سبيل الدفاع عنه والذود عن حياضه .

يقول مصطفى صادق الرافعي في بعض هذا السبيل :

« والعادات هي وحدها التي تجعل الوطن شيئاً نفسياً حقيقياً ، حتى ليشعر الإنسان لأرضه أمومة الأم التي ولدته ، ولقومه أبوة الأب الذي جاء به إلى الحياة . ليس يعرف هذا إلا من اغترب عن وطنه ، وخالط غير قومه ، واستوحش من غير عاداته ، فهناك يثبت الوطن نفسه بعظمة وجبروت ، وكأنه وحده هو الدنيا » .

وينهي الرافعي الحديث عن فكرة اللغة والدين والعادات كمقومات للاستقلال فيجمع ذلك كله في عبارات الإيجاز بعد أن وقف طويلاً عند كل ركيزة ويقول :

« وباللغة والدين والعادات ، ينحصر الشعب في ذاته السامية بخصائصها ومقوماتها ، فلا يسهل انتزاعه منها ، ولا انتساقه من تاريخه ، وإذا ألجئ إلى حال من القهر لم ينخذل ولم يتضعضع ، واستمر يعمل ما تعمله الشوكة الحادة ، إن لم تترك لنفسها ، لم تعط من نفسها إلا الوخز » .

ومن القضايا التي تصدى الرافعي لمواجتها ومجادلتها ووأدها في مهدها قضية الدعوة إلى مساواة المرأة بالرجل في الميراث ، والدعوة بهذا الشكل إنما تستهدف تعطيل ركن ركين من أركان الشريعة الإسلامية ، وهي تبعاً لذلك تعتبر تهجماً على الشريعة السمحة وتعريضاً بها ، وكان الذي نادى بهذه الفكرة الكاتب سلامة موسى ، ولقد سبقت الإشارة أكثر من مرة في فصول هذا البحث إلى مواقف عديدة لسلامة موسى تهجم فيها على الشرق واجترأ فيها الإسلام وعلى كل المظاهر والجواهر التي تتعلق به ، ولم يكن يصدر في تهجمه عن أصالة في أفكاره وإنما عن تقليد « مخلص » للغرب ، وما حديث « القبعة » ببعيد .

والرأي عندنا أن سلامة موسى كان يتذرع بالرغبة في تقليد الغرب حتى يلتمس أمام جمهور القراء سبباً للتهجم على عقائدنا وعاداتنا ولكن هذه الدعوة في حقيقتها كانت تصدر عن كراهية شديدة في نفسه للعروبة وللإسلام .

لقد كتب سلامة موسى في « السياسة الأسبوعية » نصاً لمحاضرة ألقاها في أحد المنتديات أتبعها بمقال في صحيفة « المقطم » دعا فيها إلى مساواة المرأة بالرجل في الميراث ، وكانت حجج الكاتب فيما دعا إليه واهية متخاذلة ، بل لعلها تدعو الى الإشفاق لا إلى الإقناع ، بل إنه من المرجح

أن صاحب الفكرة نفسه لم يكن مؤمناً بما ساقه من حجج للتدليل عليها وإلا عد في حساب نفسه وحساب الناس من البلهاء ، والذي لا شك فيه أنه لم يكن كذلك .

فمن الحجج التي ساقها سلامة موسى في دعوته إلى مساواة المرأة بالرجل في الميراث ، بجرد التقليد الدقيق لأوربا أو حسب تعبيره « إن المصلح المثمر عندنا هو مقلد لأوربا لا غش في تقليده » . وإذا كان المقلدون لأوربا يأخذون دائماً القشور دون الجوهر فلا بأس عنده في ذلك ولا ضرر ، ذلك أنه « معتقد أن الأمة التي تشرع في اتخاذ المدنية الحديثة يجب أن تبدأ بالقشور ... لأنها أسهل عليها من اللباب بل هي لا تستطيع غير ذلك » .

إن الرافعي في مقاله « المرأة والميراث »[1] يسخر من رأي سلامة موسى في « أن المصلح المثمر هو مقلد لأوربا لا غش فيه » ويستدرك الرافعي ساخراً : « وما هو الغش في التقليد ؟ هو أن تستعمل رأيك وفكرك فتدع وتأخذ على بيّنة في الحالين ، وأن تأبى أن تحمل على طبيعتك الشرقية ما لا تصلح عليه ولا تقوم به ، وإذا انقلبت أوربا شيوعية أو إباحية وجب ألا نغش في التقليد ، وإذا كانت الشمس لا تطلع ستة أشهر في بعض جهات أوربا وتطلع في مصر كل يوم وجب أن يكون المصري أعمى ستة أشهر » .

والرافعي يلقي على سلامة موسى بكل ثقله في تسفيه رأيه والسخرية منه ، وهو يعمد في بعض ذلك إلى اغتنام فرصة أن سلامة موسى لا ينتمي إلى الإسلام ، وهي نفس الوسيلة التي كان يلجأ إليها جرير الشاعر في الحملة على خصمه الأخطل ، فلقد كان جرير مسلماً كما هو معروف وكان الأخطل نصرانياً ، ومهما كان رأينا في استغلال الرافعي لهذه الظاهرة في منازلته سلامة موسى ، فإن الدافع إليه قد يكون من قبيل السخرية

---

(١) وحي القلم ٣/٥٨ ؛

وليس من قبيل الإقناع ، ذلك أن الرافعي قد ساق من الحجج على فساد دعوة سلامة موسى ما يكفي للقضاء عليها وعلى كل دعوة مماثلة لها كما سوف يأتي فيما يستقبل من سطور ، ولكن لعل الرافعي في استغلاله نقطة الضعف هذه عند سلامة موسى إنما اعتبر ذلك من قبيل « التكتيك الجدلي » الذي يتبعه بسيل من البراهين الدامغة . يقول الرافعي ساخراً بمن حاول هدم ركن الشريعة في الميراث :

« ولا ريب أن حضرته — أي سلامة موسى — لا يفهم الدين الإسلامي لأنه ليس من أهله ، فهو يقرنا على ذلك ، وهو بذلك يقرنا على أنه متطفل في اقتراحه ، وأن الذي يقرأ في محاضرته قوله : « أن الطبقة الغنية في الأمة هي التي تقرر ديانة الأمة » يستيقن أنه لا يفهم ديناً من الأديان ، وأنه قصير النظر في أمور الاجتماع وأبواب السياسة ، وأن يمينه وشماله وأمامه ووراءه إن هي إلا جهات الزمام الذي ينقاد فيه ، فلا شخصية له ، وإنما يتابع وينقاد للآراء التي يترجم فيها بلا نقد ولا تمييز » .

ونحن نعتقد أن الرافعي بعباراته السابقة التي سخر فيها من سلامة موسى ورماه من خلالها بالجهل والتقليد إنما أراد أن يعاقبه على جرأته للنيل من مقدسات لا يحق له أن يتجرأ عليها . قد يكون الرافعي صادقاً في تقريره أن سلامة موسى لا يفهم الدين الإسلامي لأنه ليس من أهله ، ولكن ليس كل غريب عن الدين الإسلامي لا يفهمه ، فكثير من غير المسلمين فهموه وقدروه حق قدره ، ففي العصور الحديثة كان مرقص باشا فهمي في مصر في مقدمة من يفهمون الشريعة الإسلامية ويقدرونها ، وفي أوربا كان السير توماس أرنولد من خيرة من يفهمون الإسلام ويقدرونه ، بل إن واضعي الدستور الفرنسي الحديث كانوا يضعون أمامهم كتب الشريعة الإسلامية يقتبسون منها وهم يخططون لهذا الدستور ، بل إن هناك اتفاقاً بين المشرعين الأوربيين على أن أرقى نظام للمواريث هو نظام الميراث الذي جاءت به الشريعة الإسلامية ، سواء أطبقوه في بلادهم أم لم يطبقوه .

وإذن ففساد دعوة سلامة موسى ليس منبعها أنه لا يدين بالإسلام بل أصلها أنه يكره الإسلام – كما هو واضح في أكثر ما كتب – ويكيد لشريعته متذرعاً بتقليد أوربا .

على أن الرافعي لا يلبث أن يأتي بالحجج الموضوعية في الرد على دعوة سلامة موسى في طلب المساواة بين الرجل والمرأة في الميراث ، حجج قائمة على العقل والمنطق والعدل وقد تقمص الرافعي في سردها شخصية الفقيه العالم الرياضي الفيلسوف المنطقي الذي يتحلى فوق ذلك كله بروعة الأسلوب الدقيق المنساب السهل الممتنع ، وهو يسوق في هذا السبيل حججاً أربع تجمع إلى الكشف عن عظمة التشريع الإسلامي جدلاً اجتماعياً رائعاً ، وسوق رأي مهاجم الشريعة ثم الرد عليه بحيث تساقطت حجج سلامة موسى الواحدة بعد الأخرى كما تتساقط أوراق الشجر في الخريف .

والحجة الأولى التي ساقها الرافعي رداً على سلامة موسى ومن دار دورته « أن ميراث البنت في الشريعة الإسلامية لم يقصد لذاته ، بل هو مرتب على نظام الزواج فيها ، وهو كعملية الطرح بعد عملية الجمع لإخراج نتيجة صحيحة من العمليتين معاً ، فإذا وجب للمرأة أن تأخذ من ناحية ، وجب عليها أن تدع من ناحية تقابلها ، وهذا الدين يقوم في أساسه على تربية أخلاقية عالية ، ينشئ بها طباعاً ، ويعدل بها طباعاً أخرى ، فهو يربأ بالرجل أن يطمع في مال المرأة ، أو يكون عالة عليها ، فمن ثم أوجب عليه أن يمهرها ، وأن ينفق عليها وعلى أولادها ، وأن يدع لها رأيها وعملها من أموالها ، لا تحد إرادتها بعمله ولا بأطماعه ولا بأهوائه [١] وكل ذلك لا يقصد منه إلا أن ينشأ الرجل عاملاً كاسباً ، معتمداً على نفسه ، مشاركاً في محيطه الذي يعيش فيه ، قوياً في أمانته ، منزهاً في مطامعه ، متهيأً لمعالي الأمور ، فإن الأخلاق كما هو مقرر يدعو بعضها

(١) لقد انفردت الشريعة الإسلامية دون سواها – تكريماً للمرأة – باعطاء المرأة الحرية الكاملة في التصرف بأموالها دون تدخل من الرجل زوجاً كان أو غير زوج .

إلى بعض ، ويعين شيء منها على شيء يماثله ، ويدفع قويها ضعيفها ، ويأنف عاليها من سافلها » .

ويسوق الرافعي حجته الثانية في دحض دعوة سلامة موسى والدونمة التركية ، وقصر النظر الأوربي ، ويثبت بالمنطق أن المساواة الفعلية بين الرجل والمرأة إنما هي في نظام المواريث الإسلامي وأن الرجل سوف يكون محل ظلم صارخ فيما لو تمت المساواة التي يدعو إليها سلامة موسى .

يقول الرافعي : « للمرأة حق واجب في مال زوجها ، وليس للرجل هذا الحق في مال زوجه ، والإسلام يحث على الزواج ، بل يفرضه ، فهو بهذا يضيف إلى المرأة رجلاً ويعطيها حقاً جديداً ، فإن هي ساوت أخاها في الميراث مع هذه الميزة التي انفردت بها ، انعدمت المساواة في الحقيقة ، فتزيد وينقص ، إذ لها حق الميراث وحق النفقة ، وليس له إلا مثل حقها في الميراث إذا تساويا » .

وفي مقام الحجة الثالثة التي يسوقها الرافعي نجده يتبع أرقى أساليب الجدل العلمي حين يضع أمام القارئ وجهة نظر خصمه ثم يرد عليها ، إن سلامة موسى يطالب بأن يكون للرجل حقاً في أن تنفق المرأة عليه ، وأن تدفع له المهر ، ثم تساويه في الميراث ، وهو رأي لا نستطيع إزاءه أن نمنع ابتسامة شفقة عليه . إنه في الحقيقة يذكرنا بالطريق الذي سلكته يد « جحا » إلى أذنه . ولكن لنترك للرافعي أن يرد بفكره وقلمه على رأي خصمه ، فذلك حقه هو قبل أن يكون حقنا نحن . يقول الرافعي باسطاً بعض رأي سلامة موسى راداً عليه :

« فإن قلت كما يقول سلامة موسى : إن في الحق أن تنفق المرأة على الرجل ، وأن تدفع له المهر ثم تساويه في الميراث . قلنا : إذا تقرر هذا وأصبح أصلاً يعمل عليه ، بطل زواج كل الفقيرات وهن سواد النسوة إذ لا يملكن ما يمهرن به وما ينفقن منه ، وهذا ما يتحاماه الإسلام ،

لأن فيه فساد الاجتماع وضياع الجنسين جميعاً ، وهو مفض بطبيعته القاهرة إلى جعل الزواج للساعة واليوم وللوقت المحدود ، ولإيجاد لقطاء الشوارع ، بدلاً من أن يكون الزواج للعمر وللواجب ولتربية الرجل على احتمال المسؤولية الاجتماعية بإيجاد الاسرة وإنشائها ، والقوام عليها والسعي في مصالحها » .

وينظر الرافعي نظرة واسعة إلى الأمة جميعاً في مقام التشريع ، وليس إلى الرجل وحده أو إلى المرأة وحدها ، ويقلب دعوة سلامة موسى رأساً على عقب فيقول مستطرداً :

« من هنا وجب أن ينعكس القياس إذا أريد أن تستقيم النتيجة الاجتماعية التي هي في الغاية لا من حق الرجل ، ولا من حق المرأة ، بل من حق الأمة ، وما نساء الشوارع ونساء المعامل في أوربا إلا من نتائج ذلك النظام الذي جاء مقلوباً ، فهن غلطات البيوت المتخربة والمسؤولية المتهدمة ، وهن الواجبات التي ألقاها الرجال عن أنفسهم فوقعت حيث وقعت » .

ويسوق الرافعي حجته الرابعة في اطار من الحكمة البالغة ، حين يرى أن المرأة إذ تدع نصف حقها في الميراث أو في واقع الأمر حين تنص الشريعة على أن يكون نصيبها مساوياً لنصف نصيب أخيها ، فهي في الواقع تتركه لزوج أخيها التي تركت بدورها نصيباً مماثلاً لزوجة أخرى تزوجت من عضو آخر من أعضاء المجتمع وهكذا دواليك . يقول الرافعي :

« ثم ان هناك حكمة سامية ، وهي أن المرأة لا تدع نصف حقها في الميراث لأخيها يفضلها به إلا لتعين بهذا العمل في البناء الاجتماعي ، إذ تترك ما تتركه على أنه لامرأة أخرى هي زوج أخيها ، فتكون قد أعانت أخاها على القيام بواجبه للأمة ، وأسدت للأمة عملاً آخر أسمى منه بتيسير زواج امرأة من النساء » .

ويستطرد الرافعي في شيء من الانفعال وقد وقر في قلبه الإيمان الكامل بما أورد من حجج وما ساق من أدلة قائلاً :

« فأنت ترى أن مسألة الميراث هـذه متغلغلة في مسائل كثيرة ، لا منفردة بنفسها ، وأنها أحكم الحكمة إذا أريد بالرجل رجل أمته وبالمرأة امرأة أمتها ، فأما إذا أريـد رجل نفسه وامرأة نفسها ، وتقرر أن الاجتماع في نفسه حماقـــة ، وأن الحكومة خرافة ، وأن الأمر ضلالة ، فحينئذٍ لا تنقلب آية الميراث وحدها ، بل تنقلب الحقيقة » .

وبعد أن ينتهي الرافعي من مقارعة خصمه بالجدل الموضوعي ، يلذ له أن ينال منه تسفيهاً لرأيه وتسخيفاً لفكرته وتعريضاً بتفكيره وسطحيته قائلاً :

« ومما يعجب له أن سلامة موسى يتكلم في محاضرته كأن كل الوالدين ذوو مال وعقار ، فنصف الأمة على هذا محروم نصف حقه ، وكأنه لا يعرف أن السواد الأعظم من الناس لا يترك مـا يورث ، لا على الربع ولا على النصف ، وأن كثيراً ممن يموتون عن ميراث لا يحيا ميراثهم إلا أياماً من بعدهم ، ثم يذهب في الديون ، إذ لا تركة مـع دين ، وكثيرون لا يسمن ميراثهم ولا يغني ، فلم تبق إلا فئات معينة من كل أمة لا يجوز أن تنقلب من أجلها تلك الحكمة الاجتماعية التي هي من حظ الأمة كلها لقيام بعض الأخلاق عليها » .

ويضرب الرافعي غريمه ضربة أخيرة في أمانته الفكرية وذاتيته العقلية حين يصفه بالمترجم بدلاً من أن يصفه بالكاتب أو المحاضر فيقول :

« ومما تشمئز له النفوس الكريمة قول المترجم في محاضرته : فلو كانت الفتيات يرثن مثـل إخوتهن الذكور ، لكان في ثروتهن إغراء للشبان على الزواج » ويستطرد الكاتب المفكر قائلاً :

« إن الدين الإسلامي لا يعرف مثل هذا الاسفاف في الخلق ولا يقره ، بل هو يهدمه هدماً ، ويوجب على كل رجل أن يحمل قسطه من المسؤولية ما دام مطيقاً إن كره أو رضي ، ولعمري إن تلك الكلمة وحدها من كاتبها لهي أدل على اسم المحل من بضاعة المحل » .

ومن أدب المجادلة والمحاجة عند الرافعي مقاله « درس من النبوة »[١] ذلك أن عدداً كبيراً من أعداء الإسلام الحاقدين على رسوله العظيم قد زعموا أن الرسول العظيم قد استكثر من النساء لأهواء نفسية وأغراض جثمانية مادية واستجابة لشهوة أو غرض ، كثير من هؤلاء إما مبشر حقد على الإسلام لأنه يقف عقبة كؤود في سبيل نشاطه ، أو ملحد وجد في رسالة محمد الجدار السميك الذي على حافته تتكسر دعوته المارقة الفاسدة ، ومن ثم أخذوا ينقبون حول الرسول ورسالته لعلهم يجدون شيئاً يجرحون به الدعوة ورسولها ، فهيأ لهم خيالهم السقيم أنهم بترديدهم لتعدد زوجات الرسول قد يصيبون منفذاً للنيل من الإسلام ورسول الإسلام .

إن الرافعي في الرد على الكائدين للإسلام عن طريق محاولة تجريح شخصية رسول الإسلام يستفتح مقاله بهذا الخبر :

« قالوا انه لما نصر الله تعالى رسوله ورد عنه الأحزاب وفتح عليه قريظة والنضير[٢] ، ظن أزواجه ﷺ أنه اختص بنفائس اليهود ، وذخائرهم ، وكن تسع نسوة : عائشة وحفصة وأم حبيبة ، وسودة وأم سلمة ، وصفية ، وميمونة ، وزينب ، وجويرة ، فقعدن حوله وقلن : يا رسول الله بنات كسرى وقيصر في الحلى والحلل ، والإماء والخول ، ونحن على ما تراه من الفاقة والضيق ، وآلمن قلبه بمطالبتهن له بتوسعه الحال ، وأن يعاملن بما تعامل به الملوك وأبناء الدنيا أزواجهم فأمره الله تعالى أن يتلو عليهن ما نزل في أمرهن من تخييرهن في فراقه ، وذلك قوله تعالى :

« يا أيها النبيُّ قلْ لأزْواجِكَ إنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الحياةَ الدُّنيا وزينَتَها فتَعالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وأُسَرِّحْكُنَّ سراحاً جميلا[٣] ، وإنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللهَ ورسُولَه والدَّارَ الآخِرَةَ فإنَّ اللهَ أعَدَّ للمُحْسِنَاتِ منْكُنَّ أجْراً عظيماً » .

---

(١) وحي القلم ٦٣/٢ وما بعدها .
(٢) حيان ليهود المدينة .
(٣) السراح . الطلاق - ومتعة الطلاق ما تعطاه المطلقة .

قالوا : وبدأ ﷺ بعائشة ، — وهي أحبهن إليه — فقال لها : « إني ذاكر لك أمراً ما أحب أن تعجلي فيه حتى تستأمري أبويك » قالت : ما هو ؟ فتلا عليها الآية : قالت : أفيك أستأمر أبوي ؟ بل اختار الله تعالى ورسوله .

ثم تتابعن كلهن على ذلك ، فسماهن الله « أمهات المؤمنين » تعظيماً لحقهن ، وتأكيداً لحرمتهن ، وتفضيلاً لهن على سائر النساء » .

إن مصطفى صادق الرافعي يحسن الاستهلال حين يعرض لموضوع جدلي أو لتثبيت فضيلة دينية أو لدفع تهمة أو فرية ، ويقرر الرافعي أن أمر الرسول من قبل ربه أن يخير زوجاته جميعاً بين الطلاق حتى يجدن ما يبغين من دنيا المرأة وبين العيش معه « فلا يكنّ إلا في طبيعة أخرى تبدأ من حيث تنتهي الدنيا وزينتها » .

يخضع الرافعي هذا الخبر للتحليل العادل والفهم السليم كي ينتهي إلى النتيجة الطبيعية في حق الرسول ونفي التهمة الباغية التي حاول أعداؤه وخصوم دينه أن يلحقوها به فيقول بادئ ذي بدء :

« فالقصة نفسها رد على زعم الشهوات ، إذ ليست هذه لغة الشهوة ، ولا سياسة معانيها ، ولا أسلوب غضبها أو رضاها ، وما ههنا تمليق ولا إطراء ولا نعومة ، ولا حرص على لذة ، ولا تعبير بلغة الحاسة ، والقصة بعد مكشوفة صريحة ليس فيها معنى ولا شبه معنى من حرارة القلب ولا أثر ولا بقية أثر من ميل النفس ، ولا حرف أو صوت حرف من لغة الدم ، وهي على منطق آخر غير المنطق الذي تستمال به المرأة ، فلم تقتصر على نَفْي الدنيا وزينة الدنيا عنهن ، بل نفت الأمل في ذلك أيضاً إلى آخر الدهر ، وأماتت معناه في نفوسهن بقصر الإرادة منهن على هذه الثلاثة : الله في أمره ونهيه ، والرسول في شدائده ومكابدته ، والدار الآخرة في تكاليفها ومكارهها ، فليس هنا ظرف ولا رقة ولا عاطفة ،

ولا سياسة لطبيعة المرأة ، ولا اعتبار لمزاجهـا ، ولا زلفى لأنوثتها ، ثم هو تخيير صريح بين ضدين لا تتلون بينهما حالة تكون منهما معاً ، ثم هو عام لجميع زوجاته لا يستثنى منهن واحدة ولا أكثر » .

ويمضي الرافعي مستخرجاً برهاناً لاحقاً من برهان سابق ، نافياً فكرة المتعة عن الرسول مهيأ الأسباب في نطاق تحليل منطقي يقبله العقل ويرضاه الصواب فيقول :

« وبرهان آخر ، وهو أن النبي ﷺ لم يتزوج نساءه لمتاع ممـا يمنع الخيال به ، فلو كان وضع الأمر على ذلـك ، لما استقام ذلك إلا بالزينة وبالفنّ الناعم في الثوب والحلية والتشكل ... وقد كان نساؤه ﷺ أعرف به ، وها هوذا ينفي الزينة عنهن ، ويخيرهن الطلاق إذا أصررن عليها . فهل ترى في ذلك صورة فكر من أفكار الشهوة ، وهل ترى إلا الكمال المحض ؟ وهل كانت متابعة الزوجات التسع إلا تسع برهانات على الكمال ؟ » .

وينتهي الرافعي بالقصة التي ساقها في مستهل مقاله بمثل اجتماعي رائع يستفاد — في عالم الأسرة — من الرسول في علاقته بزوجاته ، بحيث يمكن لكل أسرة تسير على هدى بيت النبوة أن تعيش في كنف السعادة التي من عناصرها الإخلاص والعفة والصراحة والقناعة . يقول الرافعي في ذلك :

« ولباب هذه القصة أن النبي ﷺ يجعل نفسه في الزواج المثل الشعبي الأكمل كما هو دأبه في كل صفاته الشريفة ، فهو يريد أن تكون زوجاته جميعاً كنساء فقراء المسلمين ، ليكون منهن المثـــل الأعلى للمرأة المؤمنة العاملة الشريفة التي تبرع البراعة كلها في الصبر والمجاهدة والإخلاص والعفة والصراحة والقناعة ، فلا تكون المرأة زينة تطلب زينة لتتم بها في الخيال ، ولكن إنسانية تطلب كمالها الإنساني لتتم به في الواقع ... » .

« ليست قصة التخيير هـذه مسألة من مسائل الغنى والفقر في معاني المادة ، ولكنها مسألة من مسائل الكمال والنقص في معاني الروح ، فهي

صريحة في أن النبي ﷺ أستاذ الإنسانية كلها واجبه أن يكون فضيلة حيّة في كل حياة ، وأن يكون عزاء في كل فقر ، وأن يكون تهذيباً في كل غنى ، ومن ثم فهو في شخصه وسيرته القانون الأدبي للجميع » .

ويختم الرافعي مقاله الطويل الذي انتخبنا بعض فقراته ومعانيه بحكمة خالدة جعلها آخر ما يستخرج من القصة في درس النبوة :

« بحسب المؤمن إذا دخل داره أن يجد حقيقة نفسه الطيبة ، وإن لم يجد حقيقة كسرى ولا قيصر » .

لقد كان بوسع الرافعي أن يضيف حقائق أخرى يقذف بها في وجه المتطاولين على مقام النبوة فيسكتهم ويرمي بها في أسماعهم فيلجمهم ، منها أن النبي لم يعدد في الزواج إلا بعد وفاة أم المؤمنين خديجة الكبرى ، وكان عمره ﷺ آنذاك حوالي الخمسين ، وهي مرحلة من السن لا تسمح بشهوة الجسد ورغبة الجنس إلا بقدر بحيث تكفيه زوجة واحدة ، وكان يمكن للرافعي كذلك في هذا المقام أن يحكي خبر كل زيجة وأسبابها وظروفها التي ستنتهي كلها إلى أن الرسول ﷺ كان يبغي بذلك إلغاء عادات جاهلية متأصلة ، ويبني تشريعاً سمحاً لحياة اجتماعية فضلى ، هذا بالاضافة إلى أن الرسل متميزون على الخلق ولا يجري عليهم ما يجري على سائر الناس ، خاصة وأن محمداً ﷺ لم يعرف بنقيصة ولم تؤخذ عليه مؤاخذة واحدة في حياته كلها من قبل أعدائه قبل أوليائه ، ومن كانت هذه صفاته ، وكان ذلك مسلكه ، لا يجري وراء شهوة ، ولا يتعقب نزوة .

على أن الرافعي بقضيته في تخيير الرسول – بأمر ربه – زوجاته بين حياة الرسالة وحياة النعيم وتحليله لها ، وتفصيله لمضمونها ، وتقديمه لأهدافها ، قد سلك في طريق الجدل الفكري سبيل الإقناع لغير ذوي المرض ، واتبع نهج الإفحام للذين في قلوبهم دخلة على رسول الإسلام ورسالة الإسلام .

لقد ذكرنا أن التطاول على الإسلام ومقدساته كان ولا يزال نهجاً يسير فيه المنحرفون والزنادقة ، وموضوعاً يلج أبوابه كل ذي حفيظة على الإسلام أو كل مغمور يبغي شهرة وكل متخلف ينشد صيتاً ، ولو كان ثمن هذه الشهرة وذلك الصيت لعنة الأجيال على صاحبه واحتقارهم له وازدرائهم لدعوته ، إن مثل هؤلاء كمثل الذي يقتل عظيماً لكي تنشر الصحف اسمه وتردد الاذاعات سيرته ولو كان النشر مقروناً باللعنة ، والترديد مشفوعاً بالسباب ثم تكون نهايتهم العقاب الصارم عدالة القضاء والمجتمع .

من ذلك القبيل ما فعله السيد حسن القاياتي حين نشر مقالاً في صحيفة « كوكب الشرق » القاهرية في ٢٧ اكتوبر سنة ١٩٢٢ تهجم فيه على الأسلوب القرآني حينما أجرى موازنه بين قول عربي مأثور هو « القتل أنفى للقتل » وبين الآية الكريمة « وَلَكُمْ فِي القِصَاصِ حَيَاةٌ يا أُولِي الأَلْبَاب » وذهب الكاتب إلى تفضيل الجملة المأثورة على الآية الكريمة .

لم يقرأ الرافعي المقال فور صدوره لأنه كان يعيش في طنطا ، وجريدة « كوكب الشرق » كانت تصدر مسائية ، والصحف المسائية في مصر لا يقرؤها عادة إلا سكان العاصمة ، لأنها لا تصل إلى الأقاليم ، وإذا وصلت فإنها تصل في الأوقات التي يكون الناس فيها قد آووا إلى فراشهم ، ومن ثم فقد يكون ذلك هو السبب في أن الرافعي لم يقرأ المقال ساعة صدور الصحيفة .

ولكن واحداً من شباب الأدباء المتدينين هو الأستاذ محمود محمد شاكر يقرأ المقال فيغلي الدم في رأسه ، ويستعرض أسماء الأدباء المسلمين القادرين على الجدل والمحاجة والإفهام والافحام فلم يجد خيراً من مصطفى صادق الرافعي الذي رأى الأستاذ شاكر فيه إمام الكتاب المسلمين ، ورأى أن كرامة المسلمين أمانة في عنقه لكي يرد على هذه الكلمة الكافرة .

لقد كانت رسالة الأستاذ محمود شاكر إلى الرافعي تحمل طابع الغضب لدينه ولكرامة « الكتاب العزيز » الذي اعتدى على قداسته علناً ، وإن

كان كاتب المقال لم يكن من الشجاعة بحيث يوقعه باسمه وإنما اكتفى بكلمة « السيد » توقيعاً عليه . وكانت رسالة الأستاذ شاكر تحمل طابع الاستنفار والاستغصاب في قوله الموجه إلى الرافعي :

« غلى الدم في رأسي حين رأيت الكاتب يلج في تفضيل قول العرب : « القتل أنفى للقتل » على قول الله تعالى في كتابه الحكيم (ولَكُمْ فِي القِصَاصِ حَيَاة) فذكرت هذه الآية القائلة : (وإنَّ الشَّيَاطِينَ ليُوحُونَ إلى أوْلِيَائِهِمْ) وهذه الآية : (شَيَاطِينُ الإنْسِ والجِنّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إلى بَعْض) ثم هممت بالكتابة فاعترضني ذكرك ، فألقيت القلم لأتناوله بعد ذلك وأكتب به إليك :

« ففي عنقك أمانة المسلمين جميعاً لتكتبن الرد على هذه الكلمة الكافرة لإظهار وجه الإعجاز في الآية الكريمة ، وأين يكون موقع الكلمة الجاهلية منها ، فإن هذه زندقة إن تركت تأخذ مأخذها في الناس جعلت البر فاجراً ، وزادت الفاجر فجوراً (واتَّقُوا فِتْنَةً لا تُصِيبَنَّ الذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّة) .

ويمضي الأستاذ محمود شاكر في تحميل الرافعي مسؤولية حتمية الرد ويلح عليه في أدب وعنف معاً في قوله :

« واعلم أنه لا عذر لك ، أقولها مخلصاً ، يمليها عليَّ الحق الذي أعلم إيمانك به ، وتفانيك في إقراره ، والمدافعة عنه ، والذود عن آياته ، ثم اعلم أنك ملجأ يعتصم به المؤمنون حين تناوشهم ذئاب الزندقة الأدبية التي جعلت همها أن تلغ ولوغها في البيان القرآني .

« ولست أزيدك ، فإن موقفي هذا موقف المطالب بحقه وحق أصحابه من المؤمنين ، وأذكر حديث رسول الله ﷺ « مَنْ سُئِلَ عِلْماً فكَتَمَهُ جاء يَوْمَ القِيَامَةِ مُلْجَماً بِلِجَامٍ مِنْ نار » .

يقرأ الرافعي كتاب الأستاذ شاكر فيقشعر جسمه من الخطاب ومن

محتواه وبخاصة الحديث الشريف الذي يتوعد بـــه الرسول ﷺ العلماء الذين يكتمون علمهم عن الناس ، ويبحث الرافعي عن الصحيفة التي نشرت مقال التطاول على القرآن الكريم ثم يكتب رده على الكاتب في جريدة « البلاغ » القاهرية بعد أيام قليلة في شهر نوفمبر سنة ١٩٢٢ تحت عنوان « كلمة مؤمنة في رد كلمة كافرة »[١]

يقول الرافعي وقد ملكه الاستغراب وغلب عليه التعجب بعد أن التمس الصحيفة وقرأ المقال :

« ... ولم أكن أصدق أن في العالم أديباً مميزاً يضع نفسه هذا الموضع من التصفح على كلام الله ، وأساء الأدب في وضع آية منـــه بين عثرات الكتاب ، فضلاً عن أن يسمو لتفضيل كلمـة من كلام العرب على الآية ، فضلاً عن أن يلج في هذا التفضيل ، فضلاً عن أن يتهوس في هذه اللجاجة ، ولكن هذا قد كان ولا حول ولا قوة إلا بالله » .

وللرافعي في الرد على المتطاولين طريقة يـــكاد يلتزمها وهي القسوة عليهم والسخرية بهم ، والتهكم على أفكارهم ، والنيل منهم في غير ما هوادة أو لين حتى يزلزل شخصياتهم وما قد يكون لهم عند جماهير القراء من قدر أو ميزان ، ولكي يجعلهم عبرة لمن يريد أن ينهج سبيلهم أو يترسم خطاهم ، وقد سبق أن سجلنا عبارة له في هذا السبيل حول منهج العنف في أسلوب رده ومحاوراته حين قال : « فإن كان فيه من الشدة أو العنف أو القول المؤلم أو التهـكم ، فما ذلك أردنا ، ولكنا كالذي يصف الضال ليمنع المهتدي أن يضل ، فما به زجر الأول بل عظة الثاني » .

والرافعي أمين على منهجه وخطته تلك ، ولذلك فهو في « كلمته المؤمنة » يبدأها بالسخرية الشديدة من كاتب « كوكب الشرق » قبل أن يدخل إلى صميم الرد الموضوعي عليه ، يقول الرافعي :

---

(١) وحي القلم ٣/٤٦٣ وما بعدها .

« ولعمري وعمر أبيك أيها القارئ لو أن كاتباً ذهب فأكل فخلط فتضلع فنام فاستثقل فحلم أنه يتكلم في تفضيل كلمة العرب على تلك الآية ، واجتهد جهده وهو نائم ذاهب الوعي فلم يأل تخريفاً واستطالة وأخذ عقله الباطن يكنس دماغه ، ويخرج منه (الزبالة العقلية) ليلقيها في طريق النسيان أو في طريق الشيطان ، لما جاء في شأوه بأسخف ولا أبرد من مقالة « السيد » فسواء أوقع هذا التفضيل من جهة الهذيان والتخريف كما فعل كاتب النوم ، أم وقع من جهة الخلط والخبط كما فعل كاتب الكوكب ، فهذا من هذا ، طباق سخافة بسخافة » .

« ولقد تنبأ القاضي الباقلاني قبل مئات السنين بمقالة الكوكب هذه فأسلفها الرد بقوله :

فإن اشتبه على متأدب أو متشاعر أو ناشئ أو مرمد فصاحة القرآن وموقع بلاغته وعجيب براعته فما عليك منه ، إنما يخبر عن نفسه ، ويدل على عجزه ، ويبين عن جهله ، ويصرح بسخافة فهمه وركاكة عقله » .

يدخل الرافعي بعد ذلك إلى صميم الموضوع يرد على كاتب المقال نقطة نقطة ، وهو في ذلك يتبع طريق الأمانة الجدلية ، فيبسط آراء خصمه أمام القراء ثم يرد عليها بعد ذلك في ترتيب يواكب سياقها . غير أن ما حواه مقال القاياتي من سخف وتطاول لم يجعل الرافعي قادراً على أن يمسك أعصابه ويسيطر على عاطفته حتى ينتهي من بسط نقاط المقال ، ومن ثم فإنه يعطي لنفسه الحق في تعليقات سريعة مختصرة يضعها بين قوسين بعد كل نقطة ، وهذا هو نص المقال الكوكب كما أورده الرافعي :

« قالت العرب قديماً في معنى القصاص : (القتل أنفى للقتل) ، ثم أقبل القرآن الكريم على آثار العرب (هكذا) فقال « وَلَكُمْ في القِصَاصِ حياةٌ يا أولي الألباب لَعَلَّكُمْ تَتَّقُون » وقد مضت سنة العلماء من أساطين البيان أن يعقدوا الموازنة بين مقالة العرب هذه وبين الآية الحكيمة أيتهما

أشبه بالفصاحة ؟ (هكذا) ثم يخلصون منهـــا إلى تقديم الآية والبيان القرآني ... ثم قال : من رأى كاتب هذه الكلمة تقديم الكلمة العربية على الآية الغراء (اللهم غفرا) على ثلج الصدر بإعجاز القرآن (كلمة للوقاية من النيابة ، وإلا فماذا بقي من الإعجاز وقد عجزت الآية ؟ زه زه يا رجل) » .

« ثم قال : إن فيما تقدم به الكلمة العربية على الآية الحكيمة (أللهم غفرا) مزايا ثلاثاً ، أولى هذه المزايا الثلاث : هذا الإيجاز الساحر فيها ، ذلك أن « القتل أنفى للقتل » ثلاث كلمات لا أكثر ، أمـا الآية فإنها سبع كلمات (كذا) وعلى تلك فهي أقـدم عهداً وأسبق ميلاداً من آية التنزيل (تأمل) حاشا كلام الله القديم ، والإيجاز ميزة أي ميزة . الميزة الثانية للكلمة : الاستقلال الكتابي ، وفقد التعاقـد بينها وبين شيء آخر سابق عليهـــا ، حتى إن المتمثل بها المستشهد يبتدئ بها حديثاً مستتماً ويختمه في غير مزيد ولا فضل فلا يتوقف ولا يستعين بغيرها ، أما الآية فإنها منسوقة مع ما قبلها بالواو ، فهي متعاقدة مترابطة معه ، لا يتمثل بها المتمثل حتى يستعين بشيء سواها ، وليس الذي يعتمد على غيره فـلا يستقل كالذي يعتمد على نفسه فيستقل . الميزة الثالثة : أن الكلمة ليست متصلة في آخرتها بفضل من القول تغني عنــه ، على حين تتصل الآية بما تغني عنه من القول ، ويعتد كالفصل وهو كلمتا « يا أولى الألباب » و « لعلكم تتقون » وإن كان لا زيادة في القرآن ولا فضول » .

ويمضي الرافعي في تقديم مقال الكاتب الذي تتلخص بقيته في أنه أي القاياتي استعرض الفصل الذي أفرده الإمام السيوطي في كتابه « الإتقان » لتفضيل الآية الكريمة على الجملة موضوع المفاضلة ووجد أن السيوطي أورد قرابة خمسة وعشرين حجة انحطت بعد أن أجال النظر فيهـا إلى أربع حجج فقط ، أما الحجج الأخرى فهي في نظره من قبيل نسج الخيال والتزيد .

ثم يتناول الكاتب وهو الأستاذ القاياتي حجج الإمـام السيوطي فيرد عليها ويرفضها . يقول القاياتي ان أولى حجج الإمـام السيوطي أن الآية

أوجز لفظاً ، والكاتب يراها سبع كلمات وإذن لقد بطلت — على حد تعبيره — حجة الإيجاز في الآية .

والحجة الثانية للإمام السيوطي أن في الجملة موضوع المقارنة تكراراً لكلمة القتل سلمت الآية منه ، ويرى الكاتب أن هذا التكرار « يتحلل طلاوة ويقطر رقة » .

والحجة الثالثة للإمام السيوطي أن في الآية ذكراً للقصاص بلفظه على حين لا تذكر الجملة إلا القتل وحده ، وليس كل قتل قصاصاً . أما الكاتب فيدفع بأن الكلمة انطوت على قتلين أحدهما ينفي صاحبه فذاك هو القصاص وإذن « فالكلمة والآية في قصد القصاص يلتقيان فرسي رهان » .

والحجة الرابعة للإمام السيوطي أن القصاص في الآية أعم يشمل القتل وغيره ، وهنا يقر الكاتب أن للآية فضلاً عن الكلمة من هذه الناحية ، ويستطرد الكاتب قائلاً : ولكن الجملة كلمة لا شريعة ، وهي من قضاء الجاهلية فليس عليها أن تبين ما لم يعرفه العرب وما لم يخلق بعد وإذن فليست الجملة مقصرة عن بيان متبلدة عن إحسان .

يتصدى الرافعي للكاتب الذي سولت له نفسه التطاول على الكتاب العزيز وتفضيل كلمة أو جملة على آية سامية من آيات التشريع السماوي الذي عجزت البشرية كلها عن أن تضع تشريعاً بديلاً فسلمت له وإن لم تعمل جميعها به .

والرافعي يقسم رده على « الكلمة الكافرة » الى ثلاثة أقسام أو ثلاث مراحل حمّلها كل أسباب القناعة وأمسك بخناق الكاتب مضيقاً عليه أسباب الحركة بحيث ألجمه وألقمه الحجر فلم تقم له قائمة بعد ذلك .

فالمرحلة الاولى من رد الرافعي تنصبّ على تسفيه الميزات الثلاث التي رآها الاستاذ القاياتي للكلمة — أي الجملة — على الآية الكريمة مع التشكيك

في مقدرة الكاتب على الفهم العربي السليم الذي يؤهله لأن يصدر أحكاماً بلاغية سليمة ، لقصور في ثقافته التاريخية والأدبية والبلاغية واللغوية .

يقول الرافعي في مجال التاريخ : « فمن أين للكاتب أن كلمة « القتل أنفى للقتل » مما صحت نسبته الى عرب الجاهلية ، وكيف له أن يثبت إسنادها اليهم ، وأن يوثق هذا الإسناد حتى يستقيم قوله إن القرآن أقبل على آثار العرب ؟ ... أنا أقرر أن هذه الكلمة مولدة وضعت بعد نزول القرآن الكريم ، وأخذت من الآية ، والتوليد بيّن فيها ، وأثر الصنعة ظاهر عليها ، فعلى الكاتب أن يدفع هذا بما يثبت أنها مما صح نقله عن الجاهلية » .

ويدلف الرافعي بالكاتب الى الجانب الأدبي وكأنه ممسك بأذنه ضاغط عليها كما يصنع الكبير مع طفل عاق فيقول :

« ولقد جاء أبو تمام بأبدع وأبلغ من هذه الكلمة — أي القتل أنفى للقتل — في قوله :

وأخافُكُمْ كي تُغمِدُوا أسيافَكُمْ   إنَّ الدَّمَ المُغْبَرَّ يحرسُه الدَّمُ

(الدم يحرسه الدم) هذه هي الصناعة ، وهذه هي البلاغة لا تلك ، ومع هذا فكلمة الشاعر مولدة من الآية ، يدل عليها البيت كله ، وكأن أبا تمام لم يكن سمع قولهم « القتل أنفى للقتل » وأنا مستيقن أن الكلمة لم تكن وضعت يومئذ [1] .

---

(١) حتى يكون الرافعي واقفاً على أرض صلبة ، وحتى يهدم الأساس الذي بنى عليه القاياتي بحثه وهو أن كلمة « القتل أنفى للقتل » جاهلية ، كتب الرافعي مقالاً منفصلاً أثبت فيه بما لا يدع مجالاً للشك أن كلمة « القتل أنفى للقتل » ليست جاهلية بل موضوعة في عصور متأخرة ، ولعل ذلك كان في منتصف القرن الثالث الهجري على يد بعض الزنادقة الذين كانوا يشككون في القرآن الكريم . راجع وحي القلم ٤٧٦/٣

وينتقل الرافعي الى حديث بلاغي ليواجه به الكاتب ، ويسقط حجته فيما ذهب إليه من حديث الإيجاز ، ويثبت قصوره في فهم قضية الإيجاز في العربية فيقول :

« إن الذي في معاني الآية القرآنية مما ينظر إلى معنى قولهم « القتل أنفى للقتل » كلمتان ليس غير ، وهما « القصاص ، حياة » والمقابلة في المعاني المتماثلة إنما تكون بالألفاظ التي تؤدي هذه المعاني دون ما تعلقت به أو تعلق بها مما يصل المعنى بغيره أو يصل غيره به ، اذ الموازنة بين معنيين لا تكون الا في صناعة تركيبها » .

ويستطرد الرافعي قائلاً: « ويخيل اليّ أن الكاتب يريد أن يقول إن باقي الآية الكريمة لغو وحشو ، فهو حميلة على الكلمتين : القصاص حياة ، يريد أن يقولها ولكنه غصّ بها ، وإلا فلماذا يلج في أنه لا بد في التمثيل ، أي لا بد في المقابلة ، من رد الآية بألفاظها جميعاً . فإذا قيل إنه لا يجوز أن يتغير الإعراب في الآية ، ويجب أن يكون المثل منتزعاً منها على التلاوة ، قلنا : فإن ما يقابل الكلمة منها حينئذ هو هذا « في القصاص حياة » وجملتها اثنا عشر حرفاً ، مع أن الكلمة العربية — أي القتل أنفى للقتل — أربعة عشر ، فالإيجاز عند المقابلة هو في الآية دون الكلمة » .

« وأما قوله تعالى : « يا أولي الألباب لعلكم تتقون » فلو كان الكاتب من أولي الألباب لفهمها وعرف موقعها وحكمتها ، وأن إعجاز الآية لا يتم إلا بها ... ولكن أنى له وهو من الفن البياني على هذا البعد السحيق ، لا يعلم أن آيات القرآن الكريم كالزمن في نسقها : ما فيه من شيء يظهره إلا ومن ورائه سر يحققه ».

وينتقل الرافعي بعد ذلك في مجال الرد على الكاتب الى الجانب اللغوي الذي يجهله لا شك ، ويرى الرافعي أن « الكلمة العربية » ليست من

الإيجاز الساحر كما يذهب الأستاذ القاياتي ، ولكنها من الإيجاز الساقط ، وهي ليست من قبيل إعجاز الآية الكريمة في شيء ويثير الرافعي قضية أفعل التفضيل في اللغة ولا بد فيها من مفضل ومفضل عليه لكي يستقيم البناء في صيغة التفضيل ، ويقول الرافعي : « فيكون المعنى » القتل أكثر نفياً للقتل من كذا « فما هو هذا « الكذا » أيها الكاتب المتعثر ؟ » .

وينهي الرافعي هـــذه المرحلة الأولى من رده الجدلي المقنع قائلاً ساخراً : « بهـذا الرد الموجز بطلت الميزات الثلاث التي زعمها الكاتب لتلك الكلمة ، وإن الكلمة نفسها لتبرأ الى الله من أن تكون لهـا على الآية ميزة واحدة فضلاً عن ثلاث » .

والمرحلة الثانية من جدل الرافعي للكاتب الذي فضل « جملة أرضية » على « آية سماوية » يعمد فيها – إمعاناً منه في احتقار عقلية الكاتب المتطاول على القرآن – إلى التسليم جدلاً بأن الكلمة التي تشبث بها جاهلية – وهي ليست كذلك – ومع ذلك فهي خالية من كل ما يربطها بالصبغة البلاغية من قريب أو بعيد ، ويثبت الرافعي أنها بلاغة الهذيان وأنهـا من لغات قطاع الطريق وأنها لغة الجهل والظلم والهمجية . يقول الرافعي :

« ولنفرض – فرضاً – أن الكلمة وثيقـة الإسناد إلى عرب الجاهلية وأنها في بيانهم فما الذي فيها ؟

∴ إنهـــا تشبه قول من يقول لك : إن قتلت خصمك لم يقتلك . وهل هذا إلا هذا ؟ وهل هو إلا بلاغة من الهذيان .

∴ إنها تشبه أن تكون لغة قاطع طريق عـارم يتوثب على الحلال والحرام ، لا يخرج لشأنه إلا مقرراً في نفسه أنه إمـا قاتل أو مقتول ، ولذلك تكرر فيهـــا القتل على طرفيها ، فهو أشنع التكرار وأفظعه .

∴ إن فيها الجهل والظلم والهمجية ، إذ كان من شأن العرب ألا تسلم

القبيلة العزيزة قاتلاً منها ، بل تحميه وتمنعه ، فتنقلب القبيلة كلها قاتلة بهذه العصبية ، فمن ثم لا ينفي عار القتل عن قبيلة المقتول إلا الحرب والاستئصال قتلاً قتلاً وأكل الحيـاة للحياة ، فهذا من معاني الكلمة : أي القتل أنفى لعار القتل ، فلا قصاص ولا قضاء كما يزعم الكاتب .

÷ إن القتل في هذه الكلمة لا يمكن أن يخصص بمعنى القصاص إلا إذا خصصته الآية فيجيء مقترناً بها ، فهو مفتقر إليها في هـذا المعنى ، وهي تلبسه الإنسانية كما ترى ، ولن يدخله العقل إلا من معانيها ، وهذا وحده إعجاز في الآية وعجز في الكلمة » .

لقد حقق الرافعي في المرحلتين السابقتين من مراحل المجادلة ما أراد ، وما أراد منه المؤمنون بالرد على الاستاذ القاياتي وتسفيه أفكاره وتخطئتها من موقع التاريخ ، والإحساس الأدبي ، والكيان البلاغي البياني ، والتكوين اللغوي والتركيب الكلامي .

وقام الرافعي بتجريح مدلول الجملة نفسها من واقع بيئتها ، وتسفيه ما تضمنته من معـاني منطقية وقواعد اجتماعية ، لقد أثبت الرافعي الخطأ الذي ذهب إليه القاياتي عندما فضّل جملة أرضية على آية قرآنية من نفس المنطلقات التي زعمها الكاتب أُسساً صالحة لتفضيله إياهـــا ، ولقد أثبت الرافعي أيضاً أن الجملة مريضة التكوين اللغوي منحرفة الصياغة النحوية والصرفية ، وكان ذلك كله كافياً لإفحام الأستاذ القياياتي .

ولكن الرافعي ينطلق الى مرحلة ثالثة من الجدل والإفحام وهو في هذه المرحلة لا يوجه حديثه الى القاياتي ، إنه يرمي به الى عرض الطريق قبل أن يبدأ المرحلة الثالثة التي لا يوجهها إلى خصمه الذي يسمه بالطفيلية لإقحام نفسه وقلمه فيما لا يستقيم له فهمه ولا تؤهله ثقـافته العاجزة إلى إدراك مداه ... نقول إن الرافعي يزيح من أمامه الكاتب المتطاول على القرآن تطاولاً غير نابـع عن أصالة وإنما منطلقاً عن تطفل .

إن المرحلة الثالثة في هذه القضية درس بليغ في الاعجاز القرآني موضوعه قوله تعالى : « ولكم في القصاص حياة » . إن هذا الدرس موجه إلى جمهور المؤمنين الذين يتذوقون القرآن الكريم ويطربون لآيات الكتاب العزيز ، فما عاد القاليلي ومن سار على شاكلته محل اهتمام كاتبنا أو موضع عنايته إلا بالقدر الماضي الذي أفحمهم به أدبياً وماديا وتاريخياً ، ومن ثم فقد صفى حسابه معهم وألقى بهم من نافذة محراب فكره بعيداً بعيداً . وإنما درس الاعجاز الذي يسوقه مقصور على جمهور المؤمنين والواعين الذين خلت قلوبهم من الدخلة وتبرأت عن الغرض وسلمت من المرض .

والرافعي حينما يتحدث في إعجاز القرآن فإنما يتحدث حديث المؤمن الدارس الفاهم الواعي المدقق الهائم فيه حبا الفاني فيه تقديساً ، أليس هو صاحب كتاب إعجاز القرآن الذي صدر بعد هذه المرحلة بسنوات قليلة واحتل مكانة سامية بين الكتب الجليلة التي عرضت للكتاب العزيز بالدراسة والفهم والتأويل ، أليس الرافعي صاحب « قرآن الفجر » الذي ما يكاد المرء يردده حتى يصبح روحاً من النور في دنيا الثقافة والإيمان .

إذن فلنستمع إلى الرافعي يلقي درساً في وجوه الإعجاز موضوعه الآية الكريمة « ولكم في القصاص حياة » مستخرجاً ما فيها من أسرار [(١١)] :

١ – بدأ الآية بقوله : (ولكم) وهذا قيد يجعل هذه الآية خاصة بالإنسانية المؤمنة التي تطلب كمالها في الإيمان ، وتلتمس في كمالها نظام النفس ، وتقرير نظام النفس بنظام الحياة ، فإذا لم يكن هذا متحققاً في الناس فلا حياة في القصاص ، بل تصلح حينئذ كلمة العجمية : القتل أنفى للقتل ، أي اقتلوا أعداءكم ولا تدعوا منهم أحداً ، فهذا هو الذي يبقي أحياءه وينفي عنكم القتل ، فالآية بدلالة كلمتها الأولى موجهة إلى الإنسانية العالية ، لتوجيه هذه الانسانية في بعض معانيها إلى حقيقة من حقائق الحياة .

---

(١١) وحي القلم ٣/٣١١ - ٤٤

٢ — قال « في القصاص » ولم يقل في القتــل فقيده بهذه الصيغة التي تدل على أنه جزاء ومؤاخذة ، فلا يمكن أن يكون منه المبادأة بالعدوان ، ولا أن يكون منه ما يخرج عن قدر المجازاة قلّ أو أكثر .

٣ — تقييد هذه الكلمة « القصاص » بصيغتها (صيغة المفاعلة) ما يشعر بوجوب التحقيق وتمكين القاتل من المنازعة والدفاع ، وألا يكون قصاص إلا باستحقاق وعدل ، ولذا لم يأت بالكلمة من (اقتص) مع أنــه أكثر استعمالاً لأن الاقتصاص شريعة الفرد ، والقصاص شريعة المجتمع .

٤ — من إعجاز لفظة « القصاص » هذه أن الله سمى بها قتل القاتل ، فلم يسمه قتلاً كما فعلت الكلمة العربية ، لأن أحــد القتلين هو جريمة واعتداء ، فنزه سبحانه العدل الشرعي حتى شبهه بلفظ الجريمة ، وهــذا منتهى السمو الأدبي في التعبير .

٥ — ومن إعجاز هذه اللفظة أنها باختيارها دون كلمة القتل ، تشير إلى أنه سيأتي في عصور الإنسانية العالمة المتحضرة عصر لا يرى فيه قتل القاتل بجنايته إلا شراً من قتل المقتول ، لأن المقتول يهلك بأسباب كثيرة ، على حين أخذ القاتل لقتله ليس فيه إلا نية قتله ، فعبرت الآية باللغة التي تلائم هذا العصر القانوني الفلسفي ، وجاءت بالكلمة التي لن تجد في هذه اللغة ما يجزئ عنها في الاتساع لكل ما يراد به من فلسفة العقوبة .

٦ — ومن إعجاز اللفظــة أنها كذلك تحمل كل ضروب القصاص من القتل فما دونه ، وعجيب بأن تكون بهذا الإطلاق مع تقييدها بالقيود التي مرت بك فهي بذلك لغة شريعة إلهية على الحقيقة ، في حين أن كلمة القتل في المثل العربي تنطق في صراحة أنها لغة الغريزة البشرية بأقبح معانيها ، ولذلك كان تكرارها في المثــل كتكرار الغلطة ، فالآية بلفظة « القصاص » تضعك أمام الألوهية بعدلها وكمالها ، والمثل بلفظة « القتل » يضعك أمام البشرية بنقصها وظلمها .

٧ – ولا ننسى أن التعبير بالقصاص تعبير يدع الإنسانية عليها اذا هي تخلصت من وحشيتها الأولى وجاهليتها القديمـــة ، فيشمل القصاص أخذ الدية والعفو وغيرهما ، أما المثل فليس فيه الا حالة واحدة بعينها كأنه وحش ليس من طبعه الا أن يفترس .

٨ – جاءت لفظة القصاص معرفة بأداة التعريف ، لتـدل على أنه مقيد بقيوده الكثيرة ، إذ هو في الحقيقة قوة من قوى التدبير الإنسانية فلا تصلح الإنسانية بغير تقييدها .

٩ – جاءت كلمة « حيــاة » منونة لتدل على أنها هنا ليست حياة بعينها مقيدة بإصلاح معين ، فقد يكون في القصاص حياة اجتماعية ، وقد يكون فيها حياة سياسية ، وقد تكون الحياة أدبيـة ، وقد تعظم في بعض الأحيان عن أن تكون حياة .

١٠ – إن لفظ « حياة » في حقيقته الفلسفية أعم من التعبير (بنفي القتل) لأن نفي القتل إنما هو حياة واحدة ، أي ترك الروح في الجسم ، فلا يحتمل شيئاً من المعاني السامية ، وليس فيه غير هذا المعنى الطبيعي الساذج ، وتعبير الكلمة العربية عن الحياة (بنفي القتـل) تعبير غليظ عامي يدل على جهل مطبق لا محل فيه لعلم ولا لتفكير ، كالذي يقول لك : إن الحرارة هي نفي البرودة .

١١ – جعل نتيجة القتل حيـاة تعبير من أعجب ما في الشعر يسمو الى الغاية من الخيال ، ولكن أعجب ما فيه أنه ليس خيالاً ، بل يتحول الى تعبير علمي يسمو الى الغاية من الدقة ، وكأنه يقول بلسان العلم : في نوع من سلب الحياة نوع من الحياة .

١٢ – فإذا تأملت ما تقدم وأنعمت فيـه تحققت أن الآية الكريمة لا يتم إعجازها الا بما تمت به من قوله « يا أولي الألبـاب » فهذا نـداء عجيب يسجد له من يفهمه ، إذ هو موجه العرب في ظاهره على قدر ما

يلتمسوا من مطاوي القلب ، ولكنه في حقيقته موجه لإقامة البرهان على طائفة من فلاسفة القانون والاجتماع هم هؤلاء الذين يرون إجرام المجرم شذوذاً في التركيب العصبي أو وراثة محتومة أو حالة نفسية قاهرة ، إلى ما يجري هذا المجرى ، فمن ثم يرون أن لا عقاب على جريمة لأن المجرم عندهم مريض له حكم المرضى ، وهذه فلسفة تحتملها الأمة والكتب ، وهي تحول القلب الى مصلحة الفرد وتصرفه عن مصلحة المجتمع ، فنبههم الله الى ألبابهم دون عقولهم ، كأنه يقرر لهم أن حقيقة العلم ليست بالعقل والرأي ، بل هي قبل ذلك بالقلب والبصيرة ، وفلسفة القلب هذه هي آخر ما انتهت اليه فلسفة الدنيا .

١٣ — وانتهت الآية بقوله تعالى « لعلكم تتقون » وهي كلمة من لغة كل زمن ، ومعناها في زمننا نحن : يا أولي الألباب ، إنه برهان الحياة في حكمة القصاص تسوقه لكم ، لعلكم تتقون على الحياة الاجتماعية عاقبة خلافه ، فاجعلوا وجهتكم إلى وقاية المجتمع لا إلى وقاية الفرد » .

وبعد أن ينتهي الرافعي من إبداء هذه الوجوه في شرح الآية الكريمة وتحليل معانيها ووجوه التأويل فيها ، يقول معرضاً بالكلمة العربية — أي القتل أنفى للقتل — وبالرجل الذي تحمس لها محاولاً النيل من القرآن الكريم : « فهذا كله في الآية الكريمة — ما رأيت — ثلاثة عشر وجهاً من وجوه البيان المعجز ، فمعنى ذلك من ناحية أخرى أنها أسقطت الكلمة العربية ثلاث عشرة مرة » .

ذلك لون من ألوان أساليب الجدل عند الرافعي ، إنه تلك أساليب الانتصار على من يخالفهم الرأي بالحجة الناصعة والنفس المتفتحة والعقلية اللماحة ، والأسلوب الشيق الذي يصعد الى الجد في موضع الجد وإلى السخرية في موضع السخرية ، والإقناع في موضع الإقناع ، والتشهير في موضع التشهير .

ولقد كان الرافعي في جدله هذا الأخير مثالاً للأديب المفكر المخطط

القوي الحجة الناصع البرهان الذي يصرع خصمه ويقضي عليه أدبياً ، وما أن ينتهي من ذلك حتى يلتفت الى جمهور القراء بكل ما يملك من أسباب الإقناع والهداية مستعيناً بعلمه وتجربته .

وهو عندما تناول الآية الكريمة بالتفسير والتأويل كان يعرف أنه يملك المؤهلات التي تمكنه من ذلك ، لقد كان مستحضراً في ذهنه فلسفة الكلمة وارتباطها بمعناها ، وفلسفة المعنى وارتباطه باللفظة ، ومدلول ذلك في كل عصر وزمـــان ، فضلاً عن الحس القرآني المكتسب بالممارسة والإخلاص لكتاب العزيز درساً وحفظاً وعلماً وشرحاً وتفسيراً وتأويلاً ، فأعطــاه القرآن من نفسه مـا جعله ينتصر على غيره في هذا المجال ممن يكيدون القرآن أو يحاولون النيل منه وخدش قداسته في القلوب والعقول .

(٤)

أدب العقيدة :

ان مصطفى صادق الرافعي واحد من الكتـــاب المعاصرين القلائل الذين فهموا الإسلام فهماً صحيحاً ، وغاصوا في أعماق الشريعة مستكشفين كنه نورانيتها وروعـة قدسيتها وبسطة سماحتها وأسرار أركانها وجلال أحكامها ، كما افتتن الرافعي بصاحب الرسالة افتتان الإيمان والاتبـــاع ، وهـــام به حباً وإجلالاً وولاء ، وأنشأ في كل ذلك مقالات تفيض بنور الإيمان ، إيمان العالم الدارس الواعي وليس إيمان مجرد الوراثة والتقليد .

سوف نعرض للرافعي بعض مقالاته في نطاق أدب العقيدة ، ولتكن بدايتنا في هذا المجال مقاله الذي جعل عنوانه « السمو الروحي الأعظم والجمال الفني البلاغة النبوية[١] » ، والجدير بالذكر أن هذا المقـــال غير البحث الطويل الذي خصصه الرافعي للبـلاغة النبوية في كتابه « إعجاز

---

(١) وحي القلم ٣ / ٣ .

القرآن » ذلك أن الرافعي كان لا يمل الكتابة عن البلاغة النبوية ، وكان يستكشف فيها كل يوم حكمة جديدة شافية ، أو لغة سديدة هادية تنير للناس سبيلهم وتهديهم الى صراط الحيـــاة المستقيم . لقد كتب الرافعي مقاله هذا استجابة لرجاء من جمعية الهداية الاسلامية في بغـداد بمناسبة عيد مولد الرسول ، لقد بذل الرافعي قبل انشاء هذا المقال جهداً كبيراً في استجلاء المعـاني والقيم التي ضمها حتى أنه توفر على صحيح البخـاري كله قراءة ودراسة ، وهـذا شأن العـالم المخلص لعلمه ، لا يمسك بقلمه استعداداً للكتابة في موضوع بعينه إلا إذا هيأ نفسه لهذا الموضوع وعاشه بكيانه دراسة وتفكيراً .

يقول الرافعي في مقاله « الجمال الفني في البلاغة النبوية » :

« ... ولقد درست كلامه ﷺ ، وقضيت في ذلك أياماً أتتبـع السر الذي وقع في التاريخ القفر المجدب فأخصب به وأنبت للدنيا أزهـــاره الإنسانية الجميلة ، فكانوا ناساً إن عبتهم بشيء لم تعبهم إلا أنهم دون الملائكة ، وكانوا ناساً دارت الكرة الأرضية في عهـدهم ثلاث دورات ، واحدة حول الشمس ، وثانية حول نفسها ، وثالثة حول أصحاب النبي ﷺ » .

ويتحدث الرافعي عن صدى الكلام النبوي في نفسه وصـــداه على الدنيـا التي فتحها الإسلام بسلاح الطبيب لا بسيف المحارب ، فيقول هذا الكلام العذب الموسوم بسمة الإيمان في كل حرف من كلماته :

« ثم تركت الكلام النبوي يتكلم في نفسي ويلهمني ما أفصح به عنه ، فلكأني بـه يقول في صفة نفسه : إني أصنع أمة لهـا تاريخ الأرض من بعد ، فأنا أقبل من هنا وهناك ، وأذهب هناك وهنا مع القلوب والأنفس والحقـائق ، لا مع الكلام والناس والوقت . إن ههنا دنيا الصحراء ستلد الدنيا المتحضرة التي ذريتها أوربا وأمريكا ، فالقرآن والحديث يعملان في حياة الأرض بنور متمم لما يعمله نور الشمس والقمر .

وقد كان المسلمون يغزون الدنيا بأسلحة هي في ظاهرها أسلحة المقاتلين ، ولكنها في معانيها أسلحة الأطباء ، وكانوا يحملون الكتاب والسنّة ، ثم مضوا إلى سبيلهم وبقي الكلام من بعدهم غازياً محارباً في العالم كله حرب تغيير وتحويل إلى أن يدخل الإسلام على ما دخل عليه الليل »[1] .

ويتطرق الرافعي إلى الجمال الفني في بلاغة الرسول فيقول :

« إن ذلك الجمال الفني في بلاغته ﷺ إنما هو أثر على الكلام من روحه النبوية الجديدة على الدنيا وتاريخها » ويقول الرافعي في مكان آخر من رسالته حول الفكرة نفسها « كنت أتأمله — أي كلام الرسول — قطعاً من البيان فأراه ينقلني إلى مثل هذه الحالة التي أتأمل فيها روضة تتنفس على القلب ، او منظراً يهز جماله النفس ، أو عاطفة تزيد بها الحياة في الدم ، على هدوء وروح وإحساس ولذة ، ثم يزيد على ذلك أنه يصلح من الجهات الإنسانية في نفسي ، ثم يرزق الله منه رزق النور ، فإذا أنا في ذوق البيان كأنما أرى المتكلم ﷺ وراء كلامه ».

إن الرافعي ليس في مقام الفهم وحده في كلام الرسول ، وليس في نطاق الإيمان بالرسالة وحسب ، ولكننا نحس فيه وجداً وعشقاً وفناءً في شخصية الرسول العظيم وكلامه ، ذلك الفناء وهذا الوجد المنبعثان من روح مؤمنة عالمة عاملة .

ثم ينطلق الرافعي في مقاله متمثلاً ببعض الحكم التي كانت تجري دائماً على لسان الرسول وتصل إلى أسماع المؤمنين في صورة أحاديث شريفة ويحاول أن يطبقها على أدباء عصره أو مفكري زمانه ممن اعتبر بهم انحرافاً فيقول :

---

(١) يشير الى الحديث الشريف : ليدخلن هذا الحديث على ما دخل عليه الليل ، أي أن الإسلام يعم وينتشر حين تظلم الدنيا بجهل أبنائها فيجيء الإسلام ناشراً أعلام النور .

« وقفت عند قوله ﷺ : إن قوماً ركبوا في سفينة فاقتسموا فصار لكل رجل منهم موضع ، فنقر رجل منهم موضعه بفأس ، فقالوا له ما تصنع ؟ قال : هو مكاني أصنع فيه ما شئت ، فإن أخذوا على يده نجا ونجوا ، وإن تركوه هلك وهلكوا » .

« فكان لهذا الحديث في نفسي كلام طويل عن هؤلاء الذين يخوضون معنا البحر ويسمون أنفسهم بالمجددين وينتحلون ضروباً من الأوصاف : كحرية الفكر ، والغيرة ، والإصلاح ، ولا يزال أحدهم ينقر موضعه من سفينة ديننا وأخلاقنا وآدابنا بفأسه ، أي بقلمه ، زاعماً أنه موضعه من الحياة الاجتماعية ، يصنع فيه ما يشاء ويتولاه كيف أراد ، موجهاً لحماقته وجوهاً من المعاذير والحجج من المدنية والفلسفة ، جاهلاً أن القانون في السفينة هو قانون العاقبة دون غيرها ، فالحكم لا يكون على العمل بعد وقوعه كما يحكم على الأعمال الأخرى ، بل قبل وقوعه ، والعقاب لا يكون على الجرم يقترفه المجرم كما يعاقب اللص والقاتل وغيرهما ، بل على الشروع فيه ، بل على توجه النية إليه ، فلا حرية هنا في عمل يفسد خشب السفينة أو يمسه من قريب أو بعد ما دامت ملججة في بحرها ، سائرة إلى غايتها ، إذ كلمة « الخرق » لا تحمل في السفينة معناها الأرضي ، وهنالك لفظة « أصغر خرق » ليس لها إلا معنى وهو « أوسع قبر » .

يستطرد الرافعي في الحديث عن الجمال الفني والجمال الفكري في كلام الرسول بروح عميقة من الإيمان ، فالإيمان أمر ضروري لفهم كنه البلاغة النبوية فيقول :

« فهو لسان وراءه قلب ، ووراءه نور ، ووراءه الله جل جلاله ، وهو كلام في مجموعه كأنه دنيا أصدرها ﷺ من نفسه العظيمة ، لا تبرح ماضية في طريقها السوي على دين الفطرة ، فلا تتسع لخلاف ، ولا يقتنع بها التناقر ، والتناقر والخلاف إنما يكونان عن الحيوانية المختلفة بطبيعتها ، لقيامها على قانون التنازع تعدو به وتجترم وتأثم ، فهي نازلة إلى الشر ،

والشر بعضه أسفل من بعض ، أما روحانيــة الفكرة فمتسقة بطبيعتها لا تقبل في ذاتها افتراقاً ولا اختلافاً ، إذ كان أولها العلو فوق الذاتية ، وقانونها التعاون على البر والتقوى ، فهي صاعدة الى الخير ، والخير بعضه أعلى من بعض . فكلامه ﷺ يجري مجرى عمــله ، كله دين وتقوى وتعليم ، وكله روحانية وقوة وحيــاة ، وانه ليخيل اليّ — وقد أخذت بطهره وجماله — أن من الفن العجيب أن يكون هــذا الكلام صلاة وصياماً في الألفاظ » .

وفي مقام البلاغة النبوية يصف الرافعي أسلوب الرسول فيقول :

« أما أسلوبه ﷺ فأجد له في نفسي روح التشريعة ونظامها وعزيمتها فليس له إلا قوة أمر نافذ لا يتخلف ، وإن له مع ذلك نسقاً هادئاً هدوء اليقين ، مبيناً بيان الحكمة ، خالصاً خلوص السر ، واقعاً من النفس المؤمنــة موقع النعمة من شاكرها ، وكيف لا يكون كذلك وهو أمر الروح العظيمة الموجهة بكلمات ربها ووحيه ، ليتوجه بها العالم كأنه منه مكان المحور ، دورته بنفسه هي دورته بنفسه وبمــا حوله ، روح نبي مصلح رحيم ، هو بإصلاحه ورحمته في الإنسانية ، وهو بالنبوة فوقهــا ، وهو بهذه وتلك في شمائله وطبــاعه مجموع إنساني عظيم ، لو شبه بشيء قيل فيه : إنه كمجموع القارات الخمس لعمران الدنيا » .

وإذا كان الرافعي قد عرض موضوع السمو الروحي الأعظم والجمال الفني في البلاغــة النبوية بهذه الشفافية المنطلقة من حب للرسول وإيمان برسالته ، فإنه ينتهز مناسبة ذكرى مولد الرسول ﷺ فيكتب بحثاً عن « حقيقة المسلم » استجابــةً لطلب من جماعة الكشاف المسلم في بيروت ، تماماً كما كان البحث السابق استجابــة لطلب من جمعية الهداية الإسلامية في بغداد .

والمثــل الأعلى للمسلم هو رسول الإسلام ﷺ ، وإذا كانت المناسبة هي ذكرى مولد رسول الإسلام ، فقد كان من الطبيعي أن يستهل الرافعي

مقاله بتصوير شخصية الرسول كما يراها وكما ينبغي أن تكون : مفتاح هداية للإنسانية وسبيل وصول إلى الجنــة . يقول الكاتب تحت عنوان « حقيقة المسلم »[1] .

« لا يعرف التاريخ غير محمد ﷺ رجلاً أفرغ الله وجوده في الوجود الإنساني كله ، كما تنصب المادة في المادة لتمتزج بها فتحولها ، فتحدث منها الجديد ، فإذا الانسانية تتحول بــه وتنمو ، وإذا هو ﷺ وجود سار فيها ، فما تبرح هذه الانسانية تنمو به وتتحول » .

« كان المعنى الأدبي في هذه الإنسانية كأنما وهن من طول الدهر عليه ، يتحيفه ويمحوه ويتعاوره بالشر والمنكر ، فابتعث الله تاريخ العقـل بآدم جديد بدأت به الدنيا في تطورها الأعلى من حيث يرتقــع الإنسان على ذاته ، كما بدت من حيث يوجد الإنسان هم ذاته ، فكانت الإنسانية دهرها بين اثنين : أحدهما فتح لها طريق المجيء من الجنة ، والثاني فتح لها طريق العودة إليها : كان في آدم سر وجود الإنسانية ، وكان في محمد سر كمالها » .

وإذا كان موضوع البحث هو « حقيقة المسلم » كان طبيعياً أن يعرض الرافعي لمعنى الإسلام نفسه ، ولماذ سمي الدين بالإسلام . يقول الرافعي : « لأنه إسلام النفس إلى واجبها ، أي إلى الحقيقة من الحياة الاجتماعية ، كان المسلم ينكر ذاتــه فيسلمها إلى الإنسانية تصرفها وتعتملها في كمالها ومعاليها . . . وما الإسلام في جملته إلا هــذا المبدأ ، مبدأ انكار الذات و (إسلامها) طائعــة على المنشط والمكره لفروضها وواجباتها ، وكلما نكصت إلى منزعها الحيواني ، أسلمهـا صاحبها إلى وازعها الإلهي ، وهو أبداً يروضها على هــذه الحركة ما دام حياً ، فينتزعها كل يوم من أوهام دنياها ليضعها ما بين يدي الحقيقة الإلهية ، يروضها على ذلك كل يوم وليلة خمس مرات مسماة في اللغــة خمس صلوات ، لا يكون الإسلام إسلاماً

---

(١) وحي القلم ١١/٢ وما وبعدها .

بغيرها » فلا غرو كانت الصلاة بهذا المعنى كما وصفها النبي ﷺ هي عماد الدين ».

ويتحدث الرافعي عن فلسفة الصلاة كما يفهمها وكما فرضها الله ، حديث مسلم محافظ عليها باعتبارها عماد الدين ، محلقاً في سماء العبادة فانياً فيها ، متتبعاً حكمة حركات المصلي قياماً واتجاهاً نحو القبلة وركوعاً وسجوداً وجلوساً وتشهداً وسلاماً ، واصفاً في روحانية مطلقة حال المصلي في كل موقف من مواقف الصلاة :

« بالانصراف إلى الصلاة وجمع النية عليها ، يستشعر المسلم أنه قد حطم الحدود الأرضية المحيطة بنفسه من الزمان والمكان ، وخرج منها إلى روحانية لا يحد فيها إلا بالله وحده » .

« وبالقيام في الصلاة يحقق المسلم لذاته معنى إفراغ الفكر السامي على الجسم كله ليمتزج بجلال الكون ووقاره كأنه منتصب مع الكائنات يسبح بحمده » .

« وبالتالي سطر القبلة في سمتها الذي لا يتغير على اختلاف أوضاع الأرض يعرف المسلم حقيقة الرمز للمركز الثابت في روحانية الحياة ، فيحمل قلبه معنى الاطمئنان والاستقرار على جاذبية الدنيا وقلقها » .

« وبالركوع والسجود بين يدي الله يُشعر المسلم نفسه معنى السمو والرفعة على كل ما عدا الخالق من وجود الكون » .

« وبالجلسة في الصلاة وقراءة التحيات الطيبات ، يكون المسلم جالساً فوق الدنيا يحمد الله ويسلم على نبيه وملائكته ويشهد ويدعو » .

« وبالتسليم الذي يخرج به من الصلاة ، يقبل المسلم على الدنيا وأهلها إقبالاً جديداً من جهتي السلام والرحمة » .

« هي لحظات من الحياة كل يوم في غير أشياء الدنيا ، لجمع الشهوات

وتقييدها بين وقت وآخر بسلاسلها وأغلالها من حركات الصلاة ، والتمزيق الفناء خمس مرات كل يوم عن النفس ، فيرى المسلم من ورائه حقيقة الخلود » .

ويعمد الرافعي في حديثه عن « حقيقة المسلم » إلى التعريف ببعض جوانب « حقيقة الإسلام » ، وهي الحقيقة القائمة على الآداب الربانية ، والتطور البناء ، والتحول نحو السمو ، هذه المعاني التي فتحت الأرض بالفضيلة لا بالسيف ، وبالعقيدة التي آمن بها العرب وليس بالسيوف التي حملها العرب ، أرض مؤمنة فتحت أرضاً غير مؤمنة . يصوغ كاتبنا هذه المعاني بأسلوب الإقناع المستمد من روح الجدل المنطقي القائم على تداعي الحقائق وتسلسل الأفكار . يقول الرافعي :

« لم يكن الإسلام في حقيقته إلا إبداعاً للصيغة العلمية التي تنتظم الإنسانية فيها ، ولهذا كانت آدابه كلها حراساً على القلب المؤمن ، كأنها ملائكة من المعاني ، وكان الإسلام بها عملاً إصلاحياً وقع به التطور في عالم الغريزة ، فنقله إلى عالم الخلق ، ثم ارتقى بالخلق إلى الحق ، ثم سما بالحق إلى الخير العام ، فهو سمو فوق الحياة بثلاث طبقات ، وتدرج إلى الكمال في ثلاث منازل ، وابتعاد عن الأوهام بمسافة ثلاث حقائق .

« وبتلك الأعمال والآداب كانت الدنيا المسلمة التي أسسها النبي ﷺ دنيا أساسها طبيعتها ، فأصبحت على ما أراد المسلمون لا ما أرادت هي ، وكأنها قائمة بنواميس من أهلها ، لا على أهليها ، وكان الظاهر أن الإسلام يغزو الأمم بالعرب ويفتتحها ، ولكن الحقيقة العجيبة أن إقليماً من الدنيا كان يحارب سائر أقاليم الأرض بالطبيعة الأخلاقية لهذا النبي » .

« وكأن الله تعالى ألقى في رمال الجزيرة روح البحر ، وبعثها بعثه الإلهي لأمره ، فكان النبي ﷺ هو نقطة المد التي يفور البحر منها ، وكان المسلمون أمواجه التي غسلت بها الدنيا » .

ومن الجوانب العديدة النبيلة لحقيقة المسلم وجوب حمله الفضائل كلها ،

فهي واجبة عليه، وهي واجبة به على المجتمع الذي يعيش فيه، تسوق المنافع وتحتم صدق المعاملة، وتسوي الطبيعة التي تبسط جناحيها على كل شيء في الحياة، فتصبح حقيقة السلم استقراراً بغير اضطراب، وطمأنينة بغير خوف، وخشية الله دون خشية المخلوق.

«السلم إنسان ممتد بمنافعه في مثاله الاجتماعي حول أمته كلها، لا إنسان ضيق يجتمع حول نفسه بهذه المنافع، وهو من غيره في صدق المعاملة الاجتماعية كالتاجر من التاجر، تقول الأمانة لكليهما: لا قيمة لميزانك إلا أن يصدق ميزان أخيك».

«ولن يكون الإسلام صحيحاً تاماً حتى يجعل حامله مثلاً من نبيه في أخلاق الله فما هو بشخص يضبط طبيعته: يقهرها مرة وتقهره مراراً، ولكن طبيعة تضبط شخصها، فهي قانون وجوده.

لا يضطرب من شيء، وكيف يضطرب ومعه الاستقرار؟
لا يخاف من شيء، وكيف يخاف ومعه الطمأنينة؟
لا يخشى مخلوقاً، وكيف يخشى ومعه الله؟»

تلك بعض جوانب من حقيقة السلم كما صورها الرافعي، جمعها في إطار دقيق من التعريف بالإسلام لغة ومعنى وتطبيقاً، وأسلوب حياة للفرد، وتنظيم عيش للمجتمع، وصلة حب بالله وطاعة لأوامره، وروحانية لا تستغني عن المادية التي لا تستقيم الحياة بدونها كل واحدة منهما تتخللها بالقدر الذي يصلح من أمرها ولا يدخل أسباب الاضطراب عليها، ثم هي بعد ذلك كله نفحة من أخلاق الرسول وخفقة من توجيهات الرسالة التي تجعل من حياة الناس طمأنينة وسلاماً، وتجعل من حياة المجتمع عدالة وسعادة».

وفي سياق أدب العقيدة ينزع الرافعي إلى الحديث عن الصيام وشهر الصيام، لقد عمد الرافعي قبل ذلك بقليل إلى الحديث عن فلسفة الصلاة

وروحانية المصلي من خلال حديثه عن « حقيقة المسلم » والصلاة ركن من أركان الإسلام ، بل هي الركن الثـاني ، فلقد بني الإسلام على خمس : شهادة ألا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة وإيتـاء الزكاة ، وصوم رمضان وحج البيت لمن استطاع . وعلى ذلك فالصيام هو الركن الرابع للإسلام .

ويهل شهر رمضان سنة ١٣٥٣ هجرية ، ويتسابق علماء الدين وعلماء الطب الى الحديث عن حكمة الصيام وفلسفته كعادتهم في كل مقدم الشهر الجليل ، ولا يعجب الرافعي ما يقوله الأطباء ولا ما يقوله العلماء ، لأن قول هؤلاء وأولئك مكرور ليس فيه جديد ، حتى لقد فرغ الأطباء من تكرارهم القول أنه منفعة للجسم ونوع من الطب وكأن ايام رمضان ليست الا ثلاثين حبة تؤخذ في كل سنة مرة لتقوية المعدة وتنقية الدم وتقوية الجسم .

كل هذا الذي يقوله الكتاب والأطباء دون ما للشهر العظيم من قيم روحية ونفسية وسياسية واجتماعيـة جليلة . إنه شهر ثورة ، ثورة في قيم تلك المعاني التي ذكرنا . إن الرافعي يرى في الصوم فلسفة عدل اجتماعي رائعة بعيدة عن المادة وما يستتبعها من انحراف في التفكير ، قائمة على الروحية وما تدفع اليه من إيمان ، إنه فقر اجباري مؤقت يختـاره الغني والفقير من المؤمنين عن طوع ورضى ، تتحقق به أسباب الرحمة والتراحم . إنه اشتراكية ولكن بغير تخبط ولا اضطراب ، وتراحم ولكن برباط المساواة في السيطرة على رغبات الجسم ومتطلبات البطن . يربط الرافعي بين كل هذه المعاني الجليلة فيقول في مقاله « شهر الثورة » أو فلسفة الصيام[1] .

« يضطرب الاشتراكيون في أوربا وقد عجزوا عجز من يحاول تغيير الإنسان بزيادة ونقص في أعصابه ، ولا يزال مذهبهم في الدنيـا مذهب

---

(١) وحي القلم ٢/٧١ وما بعدها .

كتب ورسائل ، ولو أنهم تدبروا حكمة الصوم في الإسلام لرأوا هـــذا الشهر نظاماً عملياً من أقوى وأبدع الأنظمة الاشتراكية الصحيحة ، فهذا الصوم فقر إجباري تفرضه الشريعة على الناس فرضاً ليتساوى الجميع في بواطنهم ، سواء منهم من ملك المليـــون من الدنانير ، ومن ملك القرش الواحد ، ومن لم يملك شيئاً ، كما يتساوى الناس جميعاً في ذهاب كبريائهم الإنسانية بالصلاة التي يفرضها الإسلام على كل مسلم ، وفي ذهاب تفاوتهم الاجتماعي بالحج الذي يفرضه على من استطاع » .

« فقر إجباري يراد به إشعار النفس الإنسانية بطريقة عملية واضحة كل الوضوح ، أن الحياة الصحيحة ، وراء الحيـــاة لا فيها ، وأنها إنما تكون على أتمها حين يتساوى الناس في الشعور لا حين يختلفون ، وحين يتعاطفون بإحساس الألم الواحـــد لا حين يتنازعون بإحساس الأهواء المتعددة » .

ويرى الرافعي أن الناس لا يختلفون بالقول ولا بالأنساب ولا بالمراتب ولا بالمـال بقدر ما يختلفون بالبطون وأحكامها تلك التي تؤثر على العقل والتصرف ، ومن ثم كان الصوم تهذيباً لها وتدريباً وتأديباً ، يجعل الناس جميعاً يشعرون شعوراً واحداً ويحسون إحساساً واحداً فيكون المنع حكماً مقضياً على جميع الناس دون استثنـــاء . وينطلق الرافعي من ذلك إلى إثبات الرحمة المنبثقة من الصوم والصائمين فتثبت معنى الاطمئنان والمساواة عند الجميع ، وذلك في قوله :

« وبهذا يضع — أي الصوم — الإنسانية كلها في حالة نفسية واحـدة تتلبس بها النفس في مشارق الأرض ومغاربها ، ويطلق في هذه الإنسانية كلها صوت الروح يعلم الرحمة ويدعو إليها فيشيع فيها بهذا الجوع فكرة معينة هي كل ما في مذهب *الاشتراكية من الحق*، وهي تلك الفكرة التي يكون عنها مساواة الغني بالفقير من طبيعته ، واطمئنان الفقير الى الغني بطبيعته ، ومن هذين — الاطمئنان والمساواة — يكون هدوء الحياة بهدوء

النقيضين اللذين هما السلب والإيجاب في هذا الاجتماع الإنساني ، وإذا أنت نزعت هذه الفكرة من الاشتراكية ، بقي هذا المذهب كله عبثاً من العبث في محاولة جعل التاريخ الإنساني تاريخاً لا طبيعة له » .

وللرافعي نظرية إنسانية عميقة في مدى استنباط الرحمة في القلوب عن طريق فريضة الصوم ، بل إنه أبي الصوم يربي الرحمة في النفس وهي تربية طبيعية اختيارية ، فقد تنشأ الرحمة في النفس بشكل غير طبيعي وغير اختياري ، وذلك يكون عادة عن طريق النكبات والكوارث ، ومتى تحققت الرحمة في القلوب ، سادت الإنسانية علاقات الناس بعضهم ببعض في أتم صورة وأكمل إطار . يقول الرافعي في هذا المعنى المستنبط من حكمة الصوم :

« من قواعد النفس أن الرحمة تنشأ عن الألم ، وهذا بعض السر الاجتماعي العظيم في الصوم ، إذ يبالغ أشد المبالغة ، ويدقق كل التدقيق في منع الغذاء وشبه الغذاء عن البطن وحواشيه مدة آخرها آخر الطاقة ، فهذه طريقة عملية لتربية الرحمة في النفس ، ولا طريقة غيرها إلا النكبات والكوارث ، فهما طريقتان كما ترى ، مبصرة وعمياء ، وخاصة وعامة ، وعلى نظام وعلى فجأة » .

« ومتى تحققت رحمة الجائع الغني للجائع الفقير ، أصبح للكلمة الإنسانية الداخلية سلطانها النافذ ، وحكم الوازع النفسي على المادة ، فيسمع الغني في ضميره صوت الفقير يقول « أعطني » ثم لا يسمع منه طلباً من الرجاء ، بل طلباً من الأمر لا مفر من تلبيته والاستجابة لمعانيه ، كما يواسي المبتلى من كان في مثل بلائه » .

ومن دروس الفريضة الرمضانية درس رائع الأثر في تربية الإرادة الإنسانية بالاختيار ، فيمتنع الإنسان مختاراً دون رقيب عن كل بغية أو شهوة ، وهي منزلة إنسانية سامية تفوق منزلة الذكاء ومنزلة العلم :

« وفي تراني الهلال ووجوب الرؤية معنى دقيق آخر ، وهو مع إثبات

رؤية الهلال وإعلانها – إثبات الإرادة وإعلانها – كأنما انبعث أول الشعاع السماوي في التنبه الإنساني العام لفروض الرحمة والإنسانية والبر » .

« وهنا حكمة كبيرة من حكم الصوم ، وهو عمله في تربية الإرادة وتقويتها بهذا الأسلوب العملي الذي يدرب الصائم على أن يمتنع باختياره من شهواته ، ولذة حيوانيته ، ويبقيه مصراً على الامتناع متهيئاً له بعزيمته ، صابراً عليه بأخلاق الصبر ، مزاولاً في كل ذلك أفضل طريقة نفسية لاكتساب الفكرة الثابتة ترسخ لا تتغير ولا تتحول ، ولا تعدو عليها عوادي الغريزة » .

وتتداعى المعاني السامية الكامنة في الصيام بعضها في أثر بعض في خواطر مصطفى صادق الرافعي ويرى أنه لو عمّ الصوم الإسلامي أهل الأرض لكان بمثابة إعلان الثورة شهراً على النفس الإنسانية لتخليصها من رذائلها من جشع وأثرة وبخل وفساد . ويفصل الرافعي نظريته الإنسانية الاجتماعية هذه فيقول :

« أما والله لو عم هذا الصوم الإسلامي أهل الأرض جميعاً ، لآل معناه أن يكون إجماعاً من الإنسانية كلها على إعلان الثورة شهراً كاملاً في السنة لتطهير العالم من رذائله وفساده ومحق الأثرة والبخل فيه ، وطرح المسألة النفسية ليتدارسها أهل الأرض دراسة عملية مدة هذا الشهر بطوله ، فيهبط كل رجل وكل امرأة إلى أعماق نفسه ومكانها ، ليختبر في مصنع فكره معنى الحاجة ومعنى الفقر ، وليفهم في طبيعة جسمه – لا في الكتب – معاني الصبر والثبات والإرادة ، وليبلغ من ذلك وذلك درجات الإنسانية والمواساة والإحسان ، فيحقق بهذه وتلك ، معاني الإخاء والحرية والمساواة »

وأخيراً ، وفي معرض حديث الرافعي عن الصيام حديثاً مليئاً بأسباب الإيمان ، وأسباب المنطق . وأسباب العدل ، واستباط حكم جديدة فيها عمق وفيها بناء ، لا يضيره أن يثبت لنفسه نصراً بين المفسرين في فهمه لآية الصيام فهماً يختلف عن فهم سابقيه لها ، الأمر الذي هداه إلى كل

تلك الفلسفات التي استخلصها من فريضة الله فيقول :

« كل ما ذكرته في هذا المقال من فلسفة الصوم ، فإنما استخرجته من هذه الآية الكريمة « كُتِبَ عليكُمُ الصِّيامُ كما كُتِبَ على الذّين من قَبلِكُمْ لعلَّكم تتَّقُون » وقد فهمها العلماء جميعاً على أنها من معنى « التقوى » أما أنا فأولتها من « الاتقاء » فبالصوم يتقي المرء على نفسه أن يكون كالحيوان الذي شريعته معدته ، وألا يعامل الدنيا إلا بمواد هذه الشريعة ، ويتقي المجتمع على إنسانيته وطبيعته مثل ذلك ، فلا يكون إنسان مع إنسان كحمار مع إنسان ، يبيعه القوة كلها بالقليل من العلف » .

« وبالصوم يتقي هذا وهذا ما بين يديه وما خلفه ، فإن ما بين يديه هو الحاضر من طباعه وأخلاقه ، ومـا خلفه هو الجيل الذي سيرث من هذه الطباع والأخلاق، فيعمل بنفسه في الحاضر ويعمل بالحاضر في المستقبل ».

ولقد كان الرافعي محباً للمسجد طول عمره ، عاشقاً له ، خاشعاً لجلاله ، تردد عليه طفلاً ويافعاً وصبياً .وشاباً وكهلاً ، وصلى فيه فجراً وعصراً ، وجمعة وظهراً ، ومغرباً وعشاء ، ومن هنا كان حديثه عن المسجد حديث المشدود إلى رحابه ، الناسك في محرابه ، ومن أجمل ما كتب الرافعي عن « المسجد » وما يضم المسجد من معاني العبادة والخشوع مقاله « قرآن الفجر »[1] .

إن مصطفى صادق الرافعي يسجّل في هذا المقال لمحة من أرق لمحات الإيمان ، وحالة من أروع حالات الصفاء ، لقد كان آنذاك طفلاً يعيش مع أبيه في دمنهور ، وكان أبوه آنئذ كبير القضاة الشرعيين هناك ، وكان يقيم العشرة الأخيرة من رمضـان في المسجد عابداً متبتلاً ، وكان الطفل

---

(١) وحي القلم ٣/٣١ وما بعدها .

مصطفى يتردد على أبيـــه وبالتالي على المسجد ، وكان يصلي الفجر مع المصلين ويستمع الى القرآن مع المستمعين . إنه هنا في هذا المقال يصف لنا قرآن الفجر كما أحسّه وذاقه وسمعه ، وقارىء قرآن الفجر كما سمعه ورآه :

« لا أنسى أبداً تلك الساعة ونحن في جو المسجد ، والقناديل معلقة كالنجوم في مناطها من الفلك ، وتلك السرج ترتعش فيها ارتعاش خواطر الحب ، والناس جالسون ، عليهم وقار أرواحهم ، ومن حول كل انسان هدوء قلبه ، وقـــد استبهمت الأشياء في نظر العين ليلبسها الإحساس الروحاني في النفس ، فيكون لكل شيء معناه الذي هو منه ، ومعنـاه الذي ليس منه ، فيخلق فيه الجمال الشعري كما يخلق للنظر المتخيل » .

« ولا أنسى أبداً تلك الساعة وقد انبعث في جو المسجد صوت غرد رخيم يشق سدفة الليل في مثل رنين الجرس تحت الأفق العالي في هذه الآيات من آخر سورة النحل :

(أدْعُ إلى سَبِيلِ رَبّكَ بالحِكْمَةِ والموْعِـظَةِ الحسَنَةِ ، وجادِلْهمْ بالتي هي أحسن ، إنَّ ربَّكَ هو أعْلَمُ بمنْ ضَلَّ عنْ سَبِيلِهِ وهو أعلمُ بالمهتدين . وإن عاقبتم فعاقِبُوا بمثلِ ما عُوقِبْتُم بـه ، ولئنْ صبرْتُمْ فهو خيرٌ للصَابرينْ ، واْصبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إلاّ بِاللهْ ، وَلا تحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّـا يَمْكُرونْ ، إنَّ اللهَ مَعَ الذِينَ اتَّقَوا والذِينَ هُمْ مُحْسِنُونْ) .

« وكان هذا القارئ يملك صوته أتم مـا يملك ذو الصوت المطرب ، فكان يتصرف به أحلى مما يتصرف القمري وهو ينوح بأنغامه ، وبلغ في التطريب كل مبلغ يقدر عليه القادر » ...

« كان صوته على ترتيب عجيب في نغماته ، يجمع بين قوة الرقة ورقة القوة ، ويضطرب اضطراباً روحانياً كالحزن اعتراه الفرح فجأةً ، يصيح الصيحة تترجح في الجـــو وفي النفس ، وتتردد في المكان وفي القلب ،

ويتحوّل بها الكلام الإلهي إلى شيء حقيقي ، يلمس فيرفضّ عليها بمثل الندى ، فإذا هي ترفُّ رفيفاً ، وإذا هي كالزهرة التي مسحها الطّل ».

« وسمعنا القرآن غضاً طرياً كأول ما نزل به الوحي ، فكأن هذا الصوت الجميل يدور في النفس كأنه بعض السر الذي يدور في نظام العالم ، وكان القلب وهو يتلقى الآيات كقلب الشجرة يتناول الماء ويكسوها منه .

« واهتز المكان والزمان كأنما تجلى المتكلم سبحانه وتعالى في كلامه ، وبدا الفجر وكأنه واقف يستأذن الله أن يضيء من هذا النور » .

« وكنا نسمع قرآن الفجر ، وكأنما محيت الدنيا التي في الخارج من المسجد ، وبطل باطلها ، فلم يبق على الأرض إلا الإنسانية الطاهرة ومكان العبادة ، وهذه معجزة الروح متى كان الإنسان في لذة روحه مرتفعاً على طبيعته الأرضية ».

على أن فتنة روح الرافعي لا تقف عند قرآن الفجر متلواً مرتلاً في جنبات المسجد ، إنه يهيم بالمسجد نفسه حباً ، يصف القناديل تتراعش أضواؤها في باحته قبيل الفجر ، بل يصف الفجر نفسه وقت انبلاجه مؤذناً بيوم جديد ، وأذان جديد ، وصلاة جديدة ، فيقول :

« وكان لها — أي القناديل المضيئة — منظر كمنظر النجوم يتم جمال الليل بإلقائه الشعل في أطرافه العليا ، وإلباس الظلام زينته النورانية ، فكان الجالس في المسجد وقت السحر يشعر بالحياة كأنها مخبوءة ، ويحس في المكان بقايا أحلام ، ويسري حوله ذلك المجهول الذي سيخرج منه الغد ، وفي هذا الظلام النوراني تتكشف له أعماقه منسكباً فيها روح المسجد ، فتعتريه حالة روحانية يستكين فيها للقدر هادئاً وادعاً راجعاً إلى نفسه مجتمعاً في حواسه ، منفرداً بصفاته ، منعكساً عليه نور قلبه كأنه خرج من سلطان ما يضيء عليه النهار ، أو كأن تلك الظلمة قد طمست فيه على ألوان الأرض » .

« ثم يشعر بالفجر في ذلك الغبش عند اختلاط آخر الظلام بأول الضوء شعوراً ندياً كأن الملائكة قد هبطت تحمل سحابة رقيقة تمسح بها على قلبه ليتنضّر من يبس ، ويرقّ من غلظة ، وكأنما جاءوه مع الفجر ليتناول النهار من أيديهم مبدوءاً بالرحمة ، مفتتحاً بالجمال » .

ويعرض الرافعي لفلسفة صلاة الجماعة التي يكون فيه الكل سواء أمام الله وفي بيت الله ، يستوى الجميع فيها ، من صانع وأجير ، وجاهل وفقير ، وعالم ووزير ، روح المسجد تبسط رعايتها وقدسيتها على الجميع فكأن الخواطر كلها — على حد تعبير الرافعي — متوضئة متطهرة . يقول الرافعي في اولى فقرات مقاله « قصة الأيدي المتوضئة »[1] :

« ذهبت الى المسجد لصلاة الجمعة ، والمسجد يجمع الناس بقلوبهم ليخرج كل إنسان من دنيا ذاته ، فلا يفكر أحد أنه أسمى من أحد ، ولقد يكون إلى جانبك الصانع أو الأجير أو الفقير أو الجاهل ، وأنت الرئيس أو العظيم أو الغني أو العالم ، فتنظر اليه والى نفسك فتحسب كأن خواطرك متوضئة متطهرة ، وترى كلمة الكبرياء قد فقدت روحها ، وكلمة التواضع قد وجدت روحها ، وتشعر بالنفس المجتمعة قد نصبت الحرب للنفس المتفردة ، ولو خطر لك شيء بخلاف ذلك رأيت الفقير الى جانبك توبيخاً لك ، ونظرت اليه ساكناً وهو يتكلم في قلبك ، وشعرت بالله من فوقكما ، واستعلنت لك روح المسجد كأنها تهم بطردك منه ، وخيّل اليك أن الأرض ستلطم وجهك اذا سجدت عليها ، وأيقنت من ذات نفسك أن لست هناك في دنياك وليس صاحبك في دنياه ، وإنما أنتما هناك في إنسانية ميزانها بيد الله وحده ، فلا تدري أيكما الذي يخف وأيكما الذي يثقل »

تلك روح المسجد وروح الجماعة كما سنتها شريعة الإسلام وكما ترجمها الرافعي روحاً وشريعة وإحساساً وتطبيقاً .

(١) وحي القلم ٢/٢٦٤

وفي مقام التعبير عن أدب العقيدة يكتب الرافعي مقالاً طويلاً ممتعاً عنوانه « اليمامتان » يبدع فيه أسباب القول ، ويبرع فيه في فنون الأسلوب ، ويعالج من خلاله سماحة الإسلام عقيدة وشريعة وطاعة وبساطة وتسامحاً وعفة .

« واليمامتان » أقرب الى أن يكون قصة منه الى أن يكون مقالاً ، ولا غرابة في ذلك فقد عالج الرافعي القصة ، ونعتقد أنه لم يخفق في معالجتها وله في ميدانها اكثر من أثر ، ولكننا في « اليمامتان » لن نخضع المقال لمقاييس القصة فنحكم عليه بالنجاح أو الإخفاق ، ذلك أن سبيلنا هنا هو أدب العقيدة عند الرافعي ، وليس التقويم الفني لمحاولة قصصية قام بها ، ولو قد فعلنا ، لحكمنا للرافعي لا عليه .

يستهل الرافعي مقال « اليمامتان[1] » بخبر تاريخي ينقله عن الواقدي يفيد أن المقوقس عظيم القبط في مصر زوّج ابنته أرمانوسة من قسطنطين ابن هرقل الذي كان يعيش في قيسارية بفلسطين ، وقد سارت العروس في رحلتها وفي معيتها بعض حشمها وخدم أبيها ، وبينما هي في بلبيس في طريقها الى زوجها كانت جيوش المسلمين تدق أبوابها ، فانتظرت أرمانوسه حتى انجلت المعركة عن هزيمة أوقعها جيش عمرو بالمقاتلين المدافعين وقتل منهم ألف فارس ، وكان طبيعياً أن تقع أرمانوسة في الأسر ، ولكن عمرو بن العاص يسيّرها مكرمة إلى أبيها في صحبة قيس بن أبي العاص السهمي .

على أن الرافعي يتخذ من هذه الحادثة التاريخية النبيلة وسيلة إلى مقال طويل ويستبيح لنفسه أن يخلق بعض شخصيات تجعل للمقال طعماً قصصياً ، ويجعل من زوايا المقال مواقف عدة يبين فيها سماحة الإسلام وصفاءه وذلك على عكس ما تصورت بعض البلاد المفتوحة ، فيظهر سماحة المسلم

---

(١) وحي القلم ١/١٧–٢٩

مع المرأة وفلسفة الفتح وبساطة الشعائر الإسلامية ، كل ذلك في نطاق سمة قصصية جميلة تشيع فيها بعض العواطف الإنسانية .

كان لأرمانوسة وصيفة مسيحية قوية الدين والعقل – فيما يرى الرافعي – اتخذها المقوقس « كنيسة حية » لابنته ، وكانت مارية شديدة الجزع لتقدم المسلمين الذين لم يكن يزيد جيشهم عن اثني عشر ألف مقاتل جعل الإسلام منهم اثني عشر ألف مدفع بقنابلها ، لا يقاتلون بقوة الإنسان بل بقوة الروح الدينية ، وهم لذلك قد حطموا الأبواب الرومية الحصينة التي كان يدافع من ورائها نحو مائة ألف رومي .

كانت ماريا شاعرة وكانت شديدة الجزع لتصورها أن هؤلاء العرب الغزاة قوم جياع غلاظ الأكباد ، لا عهد لهم ولا وفاء ، وأن قائدهم عمرو بن العاص كان جزاراً في الجاهلية . إنها الصورة الخاطئة التي وقرت في ذهنها ، فصنعت ماريا لذلك قصيدة موغلة في التشاؤم شبهت نفسها فيها بالشاة أمام أربعة آلاف جزار سيقتلونها أربعة آلاف قتلة ، وما تكاد ماريا تبث شكواها إلى أرمانوسة حتى تهدئ من روعها وتقول لها : « أنت واهمة يا ماريا ، أنسيت أن أبي قد أهدى إلى نبيهم بنت أنصنا[1] ، فكانت عنده في مملكة بعضها السماء وبعضها القلب ، ولقد أخبرني أبي أنه بعث بها لتكشف عن حقيقة هذا الدين وحقيقة هذا النبي ، وأنها أنفذت إليه دسيساً يعلمه أن هؤلاء المسلمين هم العقل الجديد الذي سيضع في العالم تمييزه بين الحق والباطل ، وأن نبيهم أطهر من السحابة في سمائها ، وأنهم جميعاً ينبعثون من حدود دينهم وفضائله ، لا من حدود أنفسهم وشهوتها ، وإذا سلوا السيف سلوه بقانون وإذا أغمدوه أغمدوه بقانون » .

بهذه الصورة الجميلة يجري الرافعي القول على لسان أرمانوسة ، وحتى يبين الرافعي مكارم الإسلام وعفته اكثر وأكثر يتحدث عن مكانة المرأة

---

(١) بلد بالوجه القبلي .

عند المسلم لأن المرأة محك حضارة الأمم وأخلاقها، فيقول على لسان زوج النبي ما تحكيه أرمانوسة « وقالت عن النساء : لأن تخاف المرأة على عفتها من أبيها أقرب من أن تخاف عليها من أصحاب هذا النبي ، فإنهم جميعاً في واجبات القلب وواجبات العقل » .

وعن فلسفة الفتح يتحدث الرافعي على لسان المقوقس ، والحكاية لأرمانوسة موجهة إلى ماريا الوصيفة « قال أبي أنهم لا يغيرون على الأمم ، ولا يحاربونها حرب الملك ، وإنما تلك طبيعة الحركة للشريعة الجديدة ، تتقدم في الدنيا حاملة السلاح الأخلاق ، قوية في ظاهرها وباطنها ، فمن وراء أسلحتهم أخلاقهم ، وبذلك تكون أسلحتهم نفسها ذات أخلاق » .

ويمضي الرافعي على رسله في قصته التي يجري فيها ألواناً من الحوار بين أرمانوسة ووصيفتها مارية يظهر فيه الكثير عن رسول الإسلام مع مقارنة بينه وبين المسيح وأن رسالة هذا مكملة لرسالة ذاك .

وتنتهي معركة بلبيس بانتصار المسلمين ، فترسل أرمانوسة وصيفتها مارية والراهب المصاحب لها لمقابلة عمرو تمهيداً من الرافعي لخلق حركة درامية في القصة الجميلة . وتقص مارية قصة لقائها مع عمرو .

« قالت ماريه وهي تقص على سيدتها : لقد أديت اليه رسالتك فقال : كيف ظنها بنا ، قلت ظنها بفعل رجل كريم يأمره اثنان كرمه ودينه ، فقال : أبلغيها أن نبينا ﷺ قال : استوصوا بالقبط خيراً فإن لهم فيكم صهراً وذمة ، وأعلميها أننا لسنا على غارة نغيرها ، بل على نفوس نغيّرها » .

ويصف الرافعي التكبير والصلاة على لسان الراهب شطا وصف المؤمن الأديب ، حينما كانت أرمانوسه في الطريق الى أبيها معزّزة مكرّمة بعد المعركة في صحبة قيس بن أبي العاص السهمي ، وكان وقت الصلاة قد حل فنزل قيس ومن معه يصلي ، « فلما صاحوا « الله أكبر ، الله أكبر » ارتعش قلب مارية وسألت الراهب شطا : ماذا يقولون ؟ قال : إن هذه كلمة

يدخلون بها صلاتهم ، كأنما يخاطبون بها الزمن ، إنهم الساعة في وقت ليس منه ولا من دنياهم ، وكأنهم يعلنون أنهم بين يدي من هو أكبر من الوجود ، فإذا أعلنوا انصرافهم عن الوقت ونزاع الوقت وشهوات الوقت ، فذلك هو دخولهم في الصلاة ، وكأنهم يمحون الدنيا من النفس ساعة أو بعض ساعة » وتسأل مارية شطا — وقد افتتنت بشخصية عمرو حينما قابلته — وهل تفتح عليهم الدنيا ، وهل لهم قواد كثيرون كعمرو ؟ فيجيب الراهب الذي فتنته مبادىء الإسلام وجعلت منه قاضياً يصدر حكماً للتاريخ : « كيف لا تفتح الدنيا على قوم لا يحاربون الأمم ، بل يحاربون ما فيها من الظلم والكفر والرذيلة ، وهم خارجون من الصحراء بطبيعة قوية كطبيعة الموج في المد المرتفع ، ليس في داخلها إلا أنفس مندفعة إلى الخارج عنها ، النفوس المستعدة أن تهرب إلى الداخل ». وهنا يجري الرافعي تقريراً مؤمناً على لسان مارية فتقول : « والله لكأن ثلاثتنا على دين عمرو » .

كل هذا الحوار يجري وقيس يصلي ، كأن صلاته وإمامته هي التي دفعت بالأقباط الثلاثة إلى هذه المعاني النورانية التي انبثقت من أنفس لم تكن لتملك إلا أن تقترب من ساحة الإيمان ، فإذا ما انفتل قيس من الصلاة تستحوذ مارية على نطاق حوار تجريه معه متصلاً بعمرو بن العاص الذي بدا أنها قد امتلأت به إعجاباً لم يلبث أن تطور إلى حب عميق الأسباب .

إن مارية تحاول اللحاق بعمرو الذي خلب لبها واستولى على مشاعرها في نطاق دوامة من لجج الحب وخطرات من القيم الروحية السامية ، ولكنها تعرف أنه قد سار إلى الاسكندرية لملاقاة الروم هناك ، وتسمع عن قصة فسطاطه الذي أمر به أن يقوض ثم اكتشف أن يمامة باضت في أعلاه فيأمر بتركه قائلاً : قد تحرمت في جوارنا ، أقروا الفسطاط حتى تطير فراخها.

وتمس هذه القصة أوتار قلب مارية وكانت شاعرة رقيقة ، وكانت أيضاً قد بدأت تشكو علة ما لبثت أن جعلت عودها يذوي وشبابها

يصوّح ، ولم تمض مدة طويلة حتى كانت قد قضت نحبها تاركة قصيدة جميلة تخلد قصة عمرو واليمامة قائلة فيها :

على فسطاط الأمير يمامة جاثمة تحتضن بيضها
تركها الأمير تصنع الحياة ، وذهب هو يصنع الموت
هي كأسعد امرأة ترى وتلمس أحلامها
ان سعادة المرء أولها وآخرها بعض حقائق صغيرة كهذا البيض
. . . .
. . . .
أيتها اليمامة : لم تعرفي الأمير ، وترك فسطاطه
هكذا الحظ ، عدل مضاعف في ناحية ، وظلم مضاعف في ناحية أخرى
أحمدي الله أيتها اليمامة أن ليس عندكم لغات وأديان
عندكم فقط الحب والطبيعة والحياة

على فسطاط الأمير يمامة جاثمة تحتضن بيضها
يمامة سعيدة ، ستكون في التاريخ كهدهد سليمان
نسب الهدهد إلى سليمان وستنسب اليمامة إلى عمرو
واهاً لك يا عمرو ، ما ضرّ لو عرفت اليمامة الأخرى

ان مصطفى صادق الرافعي في مقـــاله هذا « اليمامتـــان » عمد الى مناقشة مبدأ الفتح الاسلامي داحضاً الدعاوى غير البريئـــة التي حاول بعض خصوم الإسلام أن يجعلوها وسائل للتهجم على الإسلام ، كما كان الرافعي في مقـــاله رسول ودّ ومحبة بين المسلمين والمسيحيين من أقباط مصر ، تلك المودة التي حرص المسلمون على تحقيقها منذ عهد الرسول الى زماننا هذا وما يستقبل بعده من أزمان .

الفصل الخامس

الأثر الإسلامي للرافعي في أدباء عصره

إنه من نافلة القول — بعد هـذا العرض المفصل — أن نذكر أن الرافعي كان رائد المقالة الإسلامية على صفحات المجلات ، ورائد الفكرة الإسلامية في حنايا الكتب ، وصاحب الديباجة المشرقـة والبيان الرصين والجملة القرآنية ، لقد كان الرافعي صاحب القلم الحاد الذي يذود عن لغة القرآن كل تآمر وكيد في فترة كثر فيه المتآمرون وارتفع فيــه صوت الكائدين ، وحينما كان قـلم مصطفى صادق الرافعي يخوض معارك الفكر الإسلامي في مستهل هذا القرن ، لم يكن بين معاصريه من يمكن أن يطلق عليهم كتّاباً إسلاميين بالمعنى الكامل ، لقد كان لبعضهم خطرات يسجلونها في مناسباتها ، ولكن كان أكثر الكتّاب آنذاك بمعزل عن الفكرة الإسلامية إن لم يكونوا من خصومها ، لقد كان البعض منهم ينادي بالالحاد علناً ويدعو إليه على رؤوس الأشهاد ، ويقود مدارس الضلال والتضليل على مرأى ومسمع من الناس جميعاً ، وكانت المجلات تفتح صدر صفحاتها لكل دعوة ضد الإسلام ، وأمام كل بدعة لحرب النزعة الإسلامية ومحاولة القضاء على اللغة العربية .

لقد استطاع الرافعي أن يوقف بعض مدارس الفكر المنحرف — إن صح أن نسميها مدارس — مثـــل سلامة موسى ومن سار على دربه ، واستطاع أن يحطم فكرة الفرعونية ويقبحها ويشهر بالمنادين بها حتى صلحت حال عدد منهم ، وأما بقيتهم فقد أدخلهم ظلمات الجحور ، فما ارتفع لهم صوت ولا علت لهم كلمة إلا بعد وفاته ، وكأن الشاعر العربي كان يعنيهم في قوله :

وإذا ما خـلا الجبان بأرض طلب الطعن وحـده والنزالا

على أننا هنا – في مجال الكتابة للتاريخ – نقرر أن الرافعي بريادته للكتابة في ظل الفكرة الإسلامية كان هادياً لمعاصريه من الكتّاب الذين قدر لهم بسطة في العمر من بعده ، وكانوا خصوماً للإسلاميات ظاهراً أو باطناً ، ونستطيع في غير مـــا حرج أن نذكر أسماء المرحوم الأستاذ عباس محمود العقاد ، والمرحوم الدكتور محمـد حسين هيكل ، والمرحوم الدكتور منصور فهمي ، والأستاذ الدكتور طه حسين مد الله في عمره .

ليس ثمة شك في أن العقاد في مستهل حياته الأدبية وحين معاصرته للرافعي كان يجمح من كل فكرة إسلامية ، وتنسب إليه – إن صدقاً وإن كذباً آنذاك – أقوال تباعد بينه وبين الإسلام ، ولكن لا يلبث العقاد أن يشرح الله صدره فيصير رافعياً في قلمه ، إسلامياً في فكره ، وتجود قريحته التي هداها الله لنور الايمان بالكتب الإسلامية العديدة التي أثرت المكتبة الإسلامية مثل « عبقرية محمد » و « عبقرية عمر » و « عبقرية الصديق » وغيرها من العبقريات ، وكتب أخرى للدفاع عن الإسلام مثل « حقائق الإسلام وأباطيل خصومه » ، ومثل « ما يقال عن الإسلام » إلى غير ذلك من الكتب الإسلامية العديدة التي أنهى بها العقاد حياته في رحاب الإيمان ، ومهما كان الأمر من حيث تقويم الأعـــال الإسلامية لكل من الكاتبين الكبيرين الرافعي والعقاد فإن للرافعي فضل السبق والريادة .

وفي مجال الحديث عن الدكتور منصور فهمي ، فالذين عاصروه ، في شبابه وهو يعبر عن أفكاره يذكرون له المواقف التي لم تكن تنسجم مع الإسلام في قليل أو كثير بل إن له أفكاراً كانت حرباً صريحاً على الإسلام ، وإذا كان الدكتور منصور فهمي لم يـــترك من الآثار الفكرية الإسلامية ما يمحو سالف أفكاره ، فإن الذين عايشوه في السنوات الأخيرة من حياته قـد لمسوا فيه نور الإيمان ، ومواظبته على الفرائض وعضويته لمجلس إدارة الشبان المسلمين ومحاضراته العديدة عن الإسلام في مختلف

المنتديات وانتهت حياته — رحمه الله — وهو أكمل ما يكون إيماناً وأعظم ما يكون إسلاماً[1].

وإذا كان لنا أن نتحدث عن الدكتور طه حسين ، فقد سبقت الإشارة إلى أن كتاب الرافعي « المعركة تحت راية القرآن » إنما أنشئ للرد على ما جاء في كتابه « في الشعر الجاهلي » من بعد عن الإسلام وإساءه إليه ، الأمر الذي جعل الدولة تصادر الكتاب وتجمع نسخه من المكتبات ، ثم عاد الدكتور طه حسين فأصدره من جديد بعد أن حذف منه كل ما كان سبباً للمعركة الضارية وبعد أن غير عنوانه وجعله « في الأدب الجاهلي » بدلا من « في الشعر الجاهلي » .

وتعمل نفحات الرافعي عملها مع طه حسين ، تماماً كما فعلت مع العقاد ومنصور فهمي ، وإذا بالاستاذ الدكتور طه حسين يخرج للقاريء المسلم والقاريء العربي روائع كتبه الإسلامية مثل « على هامش السيرة » و « الوعد الحق » ، و « الشيخان » ، وغيرها وإذا كانت مقدمة « على هامش السيرة » قد جانبها التوفيق لأن الدكتور طه كان لا يزال فيه بقية من رواسب ماضيه لم يكن تحرر منها بعد ، فان بالجزءين الثاني والثالث عطراً من نفحات روحية ، وهي وبقية كتبه الإسلامية تعتبر قبساً من نور الإيمان وتاريخه وتصوير رائع لروح الإسلام وفلسفته ، ومبلغ علمنا أن الدكتور طه حسين لا يعيش أيامه هذه إلا مع القرآن الكريم تلاوة ودرساً ، يأتنس به في وحدته ويقوي به أسباب إيمانه في خلوته[2].

وما يقال عن هؤلاء جميعاً من عودة الى رحاب الإيمان بالعقيدة التي طالما حاربوها يمكن أن يقال عن الاستاذ أحمد لطفي السيد الذي وقف

---

(١) كنت واحداً من الذين وبطتهم بالمرحوم الدكتور منصور فهمي في سنواته الأخيرة رابطة الصداقة والجوار في المسكن ، وكان رحمه الله انموذجاً رائعاً للمسلم المؤمن الغيور على دينه المتمسك بإسلامه وأخلاق عقيدته .

(٢) توفي الدكتور طه حسين بعد صدور الطبعة الأولى من هذا الكتاب بثلاث سنوات .

حرباً على اللغة العربية يطلب تمصيرها أو بمعنى آخر تشويهها ، وقد كان للرافعي معه صولات وجولات .

إن نفحة رافعية قد أعادت لطفي السيد الى حظيرة جـلال اللغة وجلال الدين الذي هي لغته وينتهي الأمر به في سنواته الأخيرة رئيساً لمجمع اللغة العربية وتنقضي حياته الطويلة وهو في هذا المنصب الذي لا تستقيم طبيعته مع ماضي صاحبه ، ولكنه التحول عن الفكر الخاطىء إلى الخط الصائب قد جعل من خصم اللغة العربية رئيساً لمجمعها وشيخاً لعلمائها .

ومن الكتّاب المعـاصرين للرافعي الذين لم يكونوا يتعاطفون مع الفكرة الإسلامية في أول عهدهم بالكتابة ، الدكتور محمد حسين هيكل ، الذي كان رائدا للدعوة الفرعونية الخبيثة ومبشراً بالفكر المادي الأوربي ، ثم ما لبثت أسباب الهداية أن بسطت جناحيها عليه ، فإذا به يتحمس للحضارة الإسلامية ، ويفني في العقيدة الحنيفة فنـاء المخلصين الصادقين ، وتقر المكتبة الإسلاميـة عيناً بكتبه الثمينة الأصيلة « حياة محمد » ﷺ و « في منزل الوحي » و « الصديق أبو بكر » و « الفـاروق عمر » وهي آثار إسلامية فكرية لها خطرها في نطاق الفكر والثقافة ، وخاصة ما كتبه هيكل في بعض مقدماتها وخاتماتها ، ولا زال القاريء المسلم يهتدي بنورها وجلالهـا كما سوف تهتـدي بروائع فكرها أجيـال قادمة على طريق الإيمان .

ولكن كلمة حق ينبغي أن تقال في هذا السبيل ، فلقد كان الدكتور هيكل أسبق من أصحابه إلى الإقبـال على تبني الفكـرة الإسلامية ، في كتبه حتى أن بعضاً منهـا ظهر في حيـاة الرافعي نفسه مثل كتاب « حياة محمد » ﷺ باكورة إسلامياته ، كما أن كتاب « في منزل الوحي » وهو الآخر من روائع ما كتب عن الإسلام ورسول الإسلام وصحابتـه قد ظهر في نفس العام الذي انتقل فيه الرافعي إلى رحمة ربه .

غير أننا في هذا السبيل نود أن نختار مثالاً من بين كتّابنا الذين بدأوا منحرفين وانتهوا مهتدين ، لنلمس ثمرة الكفاح الرافعي الذي أثّر فيهم بلا شك بطريق مباشر أو غير مبـــاشر ، وقد يكون الدكتور هيكل مثالاً صالحاً لهذا الفريق من أدبائنا .

لقد كان هيكل رئيساً لتحرير صحيفة السياسة الأسبوعيـة وكانت هذه الصحيفة في أول أمرها منبراً يقف من فوقه كل مناهض للثقـــافة العربية ، وكل ذي حفيظة على الحضارة الإسلامية ، وكل داعيـة للفكرة الأوربية وكل متشدق بالعصبية الفرعونية ، وإذن لم يكن الدكتور هيكل مسهماً بقلمه في حملات الهدم وحسب بل كان راعيـــاً لها على صفحات الجريدة التي يرأس تحريرها .

يقول هيكل في دعوته الى الفرعونية في مقال عنوانه « مصر الحديثة ومصر الفرعونية »[1] في محاولات هي أقرب الى التعسف والافتعال منها الى الاصالة وطبـــائع الأشياء إن مصر فرعونيـــة رغم وثنيتها القديمة ومسيحيتها الوسيطة وإسلامها الحديث ، وإنها لكذلك رغم تغير لغتهـا من هيروغليفية إلى أغريقية إلى عربية ، وإن ما يتصور من قطع الصلة بين مصر القديمة ومصر الحديثة وبيننا وبين « أجدادنا الفراعنـــة » على حد تعبيره إن هو إلا وهم من الأوهـــام « فمن حق المصريين ومن الواجب عليهم أن يستثيروا دفائن الفراعنة جميعاً ، وأن يربطوا حاضرهم وماضيهم رباطـــاً ظاهراً لكل عين ، إنهم إذن ليضيفون إلى قوتهم قوة ، وليضاعفون مجدهم أضعافاً ، وليزدادون لذلك بالحياة استمتاعاً لها تذوقاً» .

ويطالب هيكل في مقاله هذا بضرورة البحث عن مواضع الاتصـال بين مصر الفرعونية ومصر الحديثة في ميادين الأدب وكتب العقـــائد

---

(١) السياسة الأسبوعية عدد ٢٧ نوفمبر ١٩٢٦

وطقوس العبـــادة ، وحينئذ يصبح الدين الفرعوني الجديد مصدر سعادة وطمأنينة للناس أجمعين .

وفي أعـــداد متوالية « للسياسة الاسبوعية » أفسح هيكل مساحات صفحاتها لكل من يحاول الفصل بين مصر وبين الجسم العربي الكبير وقتل روح العربية فيها ، والقضاء على ثقافة الإسلام ، وتصدرت مقالاتها دعوات غريبة مثل الدعوة إلى أدب قومي مصري محلي مستمد عناصره من الأدب الفرعوني ، فإن خانته الوسيلة لجأ إلى الأدب الريفي[1] .

وبالقدر الذي كان فيه هيكل داعية فرعونياً ، كان أيضاً داعية من دعاة المادية الأوربية وضرورة الاتجاه اليها والأخذ بها والسير في طريقها ، وكان شوط هيكل في هذا الطريق شوطاً طويلاً .

على أن صوت العقل ما لبث أن نادى « هيكلاً » ونداء الإيمان مـا فتىء يلقي في سمعه وقلبه أن أدرس هذا الدين دراسة المحايد المستأني ثم لك بعد ذلك أن تختـــار طريقك في ضوء ما يرتضيه عقلك وقلبك ومشاعرك ووجدانك ، فأقبل « هيكل » على دراسة سيرة رسول الإسلام ﷺ ، وإذا به يصدر كتابه « حياة محمد » الذي كان له دويّ في أسماع المؤمنين إعجاباً ، ودويّ آخر في أسمـــاع غير المؤمنين وقراً . وتتساءل خواطر الملحدين الذين أيقنوا أن « هيكلاً » قد خرج عن جادة طريقهم ، وتتشتت أفكارهم إزاء هذا التحول الذي زعزع تجمعهم ، ولكن الدكتور هيكل يسارع إلى التوجـــه نحو بيت الله الحرام مؤدياً فريضة الحج ، ويكون ثمرة أداء الفريضة كتاباً آخر من أروع الكتب الإسلامية هو « في منزل الوحي » .

وفي مقدمة منزل الوحي يبسط هيكل خواطر نفسه المنبعثة من فيض

---

(١) راجع السياسة الاسبوعية أعـداد ٢٨ يونيه سنة ١٩٣٠ ، ١٢ يوليه ، ١٩ يولية من نفس السنة ، وكذلك الاتجاهات الوطنية للدكتور محمد حسين ١٤١/٢ — ١٤٥ .

إيمان زاخر دافق، يرد فيه على شانئيه، ويحمل على الدعوة الرامية الى السير وراء حياة الغرب العقلية «والروحية» وهي الدعوة التي نادى بها ذات يوم.

يقول الدكتور هيكل في مقام التعريف بكتابه والدافع إليه[1]:

«ليس هذا الكتاب إذن مرجعاً من مراجع التاريخ الإسلامي، ولا شيء فيه من تقويم بلاد العرب، إنما هي وقفات وقفتها في بلاد الوحي ومنزله أستوحي فيها مواقف محمد بن عبدالله ونبيه ورسوله، وهناك في هذه المواقف تجردت نفسي، وسمت روحي، وكررت بالعصور والقرون أطويها، ورحت أتمثل هذا الهادي الكريم، وأتمثل المسلمين من حوله ألتمس في ذلك الأسوة والعبرة، آملاً أن أشرك فيهما إخواني المؤمنين بالله وبما جاء من عند الله، لم أتقيد في هذه المواقف بكتاب غير كتاب الله الكريم، ولم أخضع تفكيري لحكم غيري. وما كان لي أن أخضعه وقد كنت أحس في كثير من المواقف أنني بين القوم أسمع وأرى وأتمنى لو كنت أجاهد معهم فأفوز فوزاً عظيماً... لقد تركت نفسي على سجيتها تتوجه بوحي روحي وتستلهم الحق مما حولي، وتستعرض ما تستلهم على حكم عقلي وتقدير ضميري، ثم سطرت ما اجتمع من ذلك لا أبغي به إلا رضا الله وحسن ثوابه».

هذه هي المرحلة الأولى للإيمان عند هيكل كما سجله بقلمه في هدوء ورضى واقتناع وإقناع.

أما المرحلة الثانية فهي مرحلة المجادلة، مجادلة الذين يصدرون أحكاماً قبل أن تتجمع بين أيديهم أسباب صحتها وبراهين الاطمئنان إليها، إنما هي أحكام صدرت من غيرهم فتلقوها وتبنوها دون تمحيص، فكانت طيشاً لا يليق بمفكر يحترم نفسه.

إن هذه اللطمة الكبرى يوجهها هيكل إلى الوجوه الكالحة التي تنكر

(١) في منزل الوحي – المقدمة ص ٢١

لجرد الإنكار وتخالف لجرد المخالفة . يقول هيكل متمماً كلامه ذلك الذي بدأناه قبل قليل :

« فليقل هذا أو ذاك من كتاب المسلمين أو غير المسلمين عن أي من هذه المواقف ما شاء ، وليستند في حكمه أو رأيه إلى أي سند يطيب له أن يستند إليه ، إنما ذلك قول له عندي احترامه ما اطمأننت إلى حسن القصد فيه ، لكن لحكمي المكان الأول من الاحترام عندي . وإذا لم يكن من حسن القصد أن نعجل بالحكم قبل أن نطمئن إليه ، وقبل أن تتم بين أيدينا أسبابه ، وكانت العجلة طيشاً غير جدير بمفكر يحترم عقله ، فليس من حسن القصد ولا من احترام المفكر عقله أن ينحل نفسه حكم غيره قبل أن يمحصه حتى يطمئن ضميره إليه ، ومن الجمود الذي لا يقاس إليه طيش أن نأبى تقليب الأمور على وجوهها جميعاً حتى نطمئن إلى بلوغ غاية ما نستطيعه من الحق فيها » .

تلك كانت المرحلة الثانية عند هيكل ، لقد رمى المنكرين المقلدين التقليد الأعمى دون إعمال عقولهم بالضعة والجمود ، ثم يعيد الكرة مدافعاً عن مواقفه وإيمانه مسفهاً آراء الذين حاولوا أن يجعلوا من إيمانه مغمزاً يؤخذ عليه ، ومن تأليفه كتاب « حياة محمد » آية رجعية وجمود . يقول الدكتور هيكل[1] :

« وأقف هنا لأدفع زعماً حسب الذين زعموه أنه مغمز غمزوني به بعد تأليف كتابي « حياة محمد » . حسب هؤلاء أنني انقلبت بكتابة السيرة رجعياً وكنت عندهم قبلها في طليعة « المجددين » ، وكيف لا أنقلب عندهم رجعياً وقد جعلت القرآن حجتي ، وما جاء فيه عن السيرة سندي ، لم أضعه كما يقولون موضع النقد العلمي ، وكيف لا أنقلب عندهم رجعياً وقد دفعت بالحجة ما طعن على النبي العربي جماعة المستشرقين ومن تابعهم من

---

(١) في منزل الوحي . المقدمة ص ٢٢

شباب المسلمين ! وكيف ساغ لي بعد ذلك أن أزعم أمامهم في « حياة محمد » وأن أزعم اليوم ها هنا أنني طليق من القيود عدو للجمود ، نصير للبحث العلمي الحر ، وأنني أؤمن بحرية الرأي وأعتبرها الأساس ، لا أساس غيره ، لمن يريد معرفة الحقيقة . هم يرون ذلك خداعاً يأباه العلم والبحث الحر ، وأنا بعد عندهم رجعي انقلبت إلى الجمهور أتابعه ابتغاء رضاه وكنت قبل ذلك أتقدمه أريد توجيهه وهدايته » .

بكل هذه الشجاعة وبكل مجامع الصراحة يلخص هيكل جوهر الاتهام أو بالأحرى الهجوم الذي تعرض له ممن كان في صفهم ثم اكتشف نفسه ووجد حقيقته فخرج عليهم ، وهو يسجّل أنه لم يكتب ما كتب من أسباب الإيمان والتبشيرية ابتغاء رضى قوم أو اتقاء سخط آخرين ، وإنما كتبه ابتغاء الحق وحده . ثم يلتفت إلى أصدقاء فكره القديم بسماحة العالم وصفاء المؤمن وموضوعية الباحث قائلاً :

« لكني أسائل أصدقائي أحرار الرأي عن غايتنا جميعاً حين ننتج : ألسنا نبتغي التقدم خطوة جديدة في سبيل الكمال ؟ » .

وتتمثل المرحلة الثالثة من مراحل الدكتور هيكل على طريق الإيمان في نظرته إلى حضارة الغرب والتحفظ إزاء كثير من أفكارها ومناهجها وبخاصة الروحية منها . إن « هيكلا » لا يمانع كثيراً في مسايرة الحضارة الغربية من الناحية العقلية ، ولكنه يعارض مسايرتها من حيث جانبها الروحي . ويجري هيكل مقارنة موضوعية ممتعة بين التفكير الكنسي « على ما أقرته البابوية الأولى » وبين التفكير الإسلامي البريء من الخضوع لهذا التفكير ، ويذكر من واقع تاريخ التفكير الإسلامي أن حرباً فكرية ومادية شُنت ضد بعض المذاهب الإسلامية التي أرادت أن تقيم في العالم الإسلامي نظاماً كنسياً شبيهاً بالبابوية ، ويردف « هيكل » بتسجيل النتائج الفكرية الإيجابية المنطلقة في حياة الشرق الإسلامي قائلاً[1] :

---

(١) في منزل الوحي : المقدمة ص ٢٣ .

« بذلك بقي الشرق مطهّراً من الأسبـــاب التي أدت إلى اضطراب الغرب الروحي ، والى ثورته السياسية التي نشأت عن هـذا الاضطراب . وبقي المسيحيون المقيمون بالشرق في جوار المسلمين في طمأنينة لا يصلون من نيران الثورات والحروب الأهلية ما كان يصلاه إخوانهم في الغرب . كان الخروج على الكنيسة المسيحية في الغرب إعلاناً للثورة على السلطان ، وكانت الثقافة الروحية لذلك في قبضة رجال الدين يبرمون من أمرها ما يشاؤون إبرامه وينقضون ما يشاؤن نقضه . أمـــا والإسلام لا يعرف الكنيسة ، وأقرب النـــاس فيه إلى الله أتقاهم ، ولا فضل فيه لعربي على عجمي إلا بالتقوى ، فقد بقيت الثقافة الروحية في الشرق حرة طليقة لم تقيـد إلا حين قعد الجهل بالناس ، ففترت الأذهان وخمدت القرائح وجمدت القلوب . لم تعرف عصور الازدهار الإسلامي قيداً لحرية الفكر مـــا كان صاحبه بريء القصــــد يبتغي برأيه سبيل الحق . ولم يعلم المسلمون أن الذنوب يغفرها غير الله ، كيف نستطيع أن ننقل ثقافة الغرب الروحية لننهض بهذا الشرق وبيننا وبين الغرب في التاريخ وفي الثقافة الروحية هـــذا التفــاوت العظيم . لا مفر إذن من أن نلتمس في تاريخنا وفي ثقافتنا وفي أعماق قلوبنا وفي أطواء ماضينا هذه الحياة الروحية نحيى به ما فتر من أذهاننا وخمد من قرائحنا وجمد من قلوبنا » .

والدكتور محمد حسين هيكل لا يكتفي ببسط هذه الحقائق التاريخية الحضارية الاسلامية ، ولكنــــه يستنكر موقف أصحابه من تاريخ أمتهم وجوهر عقيدتها ، غير أنه في نفس الوقت – وكأنمـا أراد أن يقربهم إلى رحاب الايمان – يلتمس لهم العذر في ذلك ، فقد كا جوهر العقيدة خفياً عليه شخصياً . إن الدكتور هيكل يعترف اعتراف العلماء الذين لا يخجلون من وقوعهم في الخطأ طالما أنهم عادوا إلى جادة الصواب عندما اكتشفوا أخطاءهم ، ويعترف بأنه كان داعيــــة لحضارة الغرب وروحيته ، لكنه اكتشف أنهـا غير صالحة ، ثم دلف إلى ربط مصر بالعجلة الفرعونية ثم اكتشف أنه يضع البذرة في غير أرضها ، فلنقدم هذه الفكرة العظيمة من

قول هيكل وهو امتداد لكلامه السابق :

« هذا كلام واضح بيّن ، ومن عجب أن يخفى على أصحابي فلا يرونه ، وأن يكون خفاؤه سبب تثريبهم عليّ . ولكن لا عجب ، فقد خفي هذا الكلام عني سنوات ، كما لا يزال خفياً عن كثير منهم ، وقد حاولت أن أنقل لأبناء لغتي ثقافة الغرب المعنوية وحياته الروحية لنتخذهما جميعاً هدى ونبراساً ، ولكنني أدركت بعد لأي أنني أضع البذر في غير منبته فإذا الأرض تهضمه ثم لا تتمخض عنه ولا تبعث الحياة فيه ، وانقلبت ألتمس في تاريخنا البعيد في عهد الفراعين موئلاً لوحي هذا العصر ينشيء فيه نشأة جديدة ، فإذا الزمن وإذا الركود العقلي قد قطعا ما بيننا وبين ذلك العهد من سبب قد يصلح لنهضة جديدة[1] . وروّأت فرأيت أن تاريخنا الاسلامي هو وحده البذر الذي ينبت ويثمر ، ففيه حياة تحرك النفوس وتجعلها تهتز وتربو . ولأبناء هذا الجيل في الشرق نفوس قوية خصبة تنمو فيها الفكرة الصالحة لتؤتي ثمرها بعد حين » .

وإذ ينتهي الدكتور هيكل من مرحلة الاعتراف بخطيئة الماضي وخطأ أصحابه الذين ما فتئوا يرددون كالببغاوات تطاول المستشرقين ومن لفّ لفّهم على الإسلام ورسول الإسلام وكتاب الإسلام ، يعمد الى الحديث عن كنه الفكرة الإسلامية ، إنها مرحلة الإيمان الكامل الذي لف « هيكلاً » ببردة من نور ، وكساه برداء من الروحانية ، وصب في قلبه وخاطره وكل قطرة من دمه الإيمان صباً ، وخلعه من ربقة الانحراف والمادية

---

(١) كتب الدكتور هيكل هذا الرد على دعاة الفرعونية سنة ١٩٣٧ ، ولكنهم حتى الآن لم ييأسوا من دعوة الهدم التي يستهدفون من ورائها أموراً كثيرة ليس واحداً منها في مصلحة هذه الأمة ، وقد تبنت صحيفة يومية قاهرية في الصيف الماضي موضوع « فرعنة » مصر ونشرت ثلاثين مقالاً على ثلاثين يوماً متتالية خلال أيام شهر أغسطس (آب) ١٩٦٩ محاولة أن تبسط على مصر مسحة فرعونية وأن تثبت بشكل أو بآخر أن مصر المعاصرة هي امتداد لمصر الفرعونية فكانت المقالات الثلاثون كصرخة في واد ولم تستطع أن تثبت صلة واحدة بين مصر المعاصرة العربية الإسلامية وبين مصر القديمة الفرعونية الوثنية .

والفرعونية خلعاً ، فاذا هو يتحدث عن الإيمــان كأحسن ما يتحدث المؤمن الذي اكتسب الدين عن طريق التجربة والبحث والعلم وليس عن طريق العصبية والميراث . إن أقوال هيكل في هــذه المرحلة من تطور تفكيره تدفع بالمرء إلى أن يقف أمامها طويلاً مفكراً متدبراً ، ففيها لغير المؤمن إيمان ، وفيها للمؤمن تثبيت لإيمانه . يقول الدكتور هيكل :

« والفكرة الإسلامية المبينة على التوحيد في الإيمان بالله تنزع في ظلال حرية الفكر الى وحدة الإنسانيــة ، وحدة أساسها الإخــاء والمحبــة ، فالمؤمنون في مشارق الأرض ومغاربها أخوة يتحــابون بنور الله بينهم ، وهم لذلك أمة واحدة تحيتها السلام وغايتها السلام » .

ومن هذا المنطلق يتحول الدكتور هيكل الى مناد بالجامعة الإسلامية التي تستطيع بما يربط أبناءها من رباط الأخوة أن تقف صفاً واحداً في وجه الغرب المستعمر ، وهو من هـــذا المنطلق الإسلامي لا يتمشى مع فكرة القوميات التي جاءتنا من أوربا والتي يراها غير كافية للوقوف أمام طغيان الغرب واستعباده لشعوبنا[1]. ويمضي هيكل في رحاب الايمان بالله قائلاً :

« على أن التوحيد الذي أضاء بنوره أرواح آبائنا قد أورثنا من فضل الله سلامة في الفطرة هدتنــا الى تصور الخطر فيما يدعو الغرب اليه ، وإلى أن أمة لا يتصل حاضرها بماضيها خليقة أن تضل السبيل » .

وتفني شخصية هيكل فناءً كاملاً في الروحية الإسلامية وتنفر نفوراً حاداً من المادية المطلقة ويجري مقارنة منطقية الأسباب في ظلال الإيمان بين الروحية والمادية حين يقول[2].

---

(١) في منزل الوحي . المقدمة ص ٢٥

(٢) في منزل الوحي . الخاتمة ص ٦٧٢

« وضياء الروح يهدينا إلى وحـدة الكون ووحدة الحياة فيه ، وإن تعددت المظاهر التي نحسبها مستقلة لنسبية إدراكنا . من ثم كانت الحياة الروحية السليمة في تطلعها إلى الحق تصبو دائماً إلى الوحدة : إلى الوحدة بالحب ، والوحدة بالرجـاء في الله ونوره الذي يضيء الكون كله ، وإلى وحدة الزمان والمكان . وهذه الصبوة الروحية هي التي تصور لنا وحدة الخالق جل شأنه وتجعله أمامنا حقيقة ملموسة نؤمن بها عن يقين إيمـان كل إنسان بما يقع عليه حسه » .

« أما الحياة المادية فانفصالية بطبيعتها ، ومهما يعمل قانون الجاذبيـة لضمها وحدة مؤتلفة الأجزاء ، فما فيها من طبيعة التوالد يدعوهـا إلى الانقسام والتقسيم ، ولذلك جعل التفكير المادي وجعلت الحياة المادية من الانقسام والتقسيم أساس الحياة وأساس السعي فيها ، وعلى هذا الأساس صورت المثل الأعلى للطوائف والأمم والشعوب ، والانقسام داعية النضال والحرب ، ومن ثم سبب الشقاء » .

وعلى نفس النهج يتحدث هيكل عن مظاهر الحياة الروحية في موطن الدعوة الإسلاميـــة بعد « أوبة الرضا » من « منزل الوحي » فيقول[1] والايمان باسط عليه جناحين من نور وروح وريحان :

« أما وقد شهدت من مظاهر الحياة الروحية حيثما سرت في أثر النبي العربي ما شهدت ، ورأيت كيف فعل الإيمان الأعاجيب في مواطن لولاه مـــا كان للإنسان ، فما بال قوم في عصور وبلاد مختلفة جحدوا الحياة الروحية وكفروا بفضل الإيمان ؟ أفكان ذلك عماية منهم وجهلاً ؟ أم أنهم أضلهـم هواهم وغرّهم بالله الغرور ، ولولا ذلك لرأوا من آيات الله ومن فضله على عباده المؤمنين ما لا يغيب عمن تأمـل في خلق الله ومن ألقى السّمع وهو شهيد » .

---

(١) في منزل الوحي . الخاتمة ص ٦٦٥

هذا واحد من معاصري مصطفى صادق الرافعي وممن تابع معاركه نضالاً مع المنكرين متابعة شهادة وكتب ، بسطنا في إيجاز مراحل تفكيره ومعتقداته بادئاً منحرفاً منكراً ، منتهياً مؤمناً روحياً ، بل مبشراً بروح الحق ونور اليقين .

إن عودة محمد حسين هيكل إلى حظيرة الفكر الإسلامي كانت كسباً كبيراً للدعوة الإسلامية ، وكان خسارة فادحة لمجتمع دعاة الفرعونية والأوربية والإلحاد .

أما والأمر كذلك ، فإنا نؤمن أن إيمان هيكل وإسلامياته أثر من آثار النهج الرافعي : قد يكون ذلك عن طريق مباشر وقد يكون أيضاً عن طريق غير مباشر .

إن مصطفى صادق الرافعي لم يكن كاتب الفكرة الإسلامية وحسب، ولم يكن رائد الدعوة المؤمنة وحسب ، وإنما كان سبباً لهداية كثير من كبار كتاب العربية المعاصرين له ، فأصبحوا بفضل دعوته ومن بعده كتاباً مؤمنين ، وسدنة في محراب الفكر الإسلامي بعد أن كانوا في طرف آخر بعيد كل البعد عن نطاق العقيدة وجوهر الفكرة الإسلامية، وبعد أن كانوا يتفاخرون بالتحامل عليها ويتظاهرون بالتطاول على حماها .

لقد كان الرافعي خيراً وبركة على اللغة العربية الجليلة بمنافحته عنها وخدمته لها وفنائه في الذود عن حياضها ، ولقد كان الرافعي كذلك خادماً للعقيدة الإسلامية ، مبشراً بالفكرة الدينية ، حاملاً لواءها حتى غادر دنيانا ولا زال ممسكاً بقبضة السارية ، فهل هناك من بين أدباء المسلمين من يتسلم العَلَم ؟

أهم المصادر والمراجع

أولاً – المصادر : مؤلفات الرافعي :

١ – تاريخ آداب العرب .
الجزء الاول : القاهرة ١٩١١
الجزء الثاني : (إعجاز القرآن) الطبعتان الثالثة والخامسة (تحقيق العريان)
الجزء الثالث : القاهرة ١٩٤٩ (تحقيق العريان)

٢ – على السفود : الطبعة الثالثة ، القاهرة

٣ – المساكين : القاهرة ١٩١٧

٤ – المعركة تحت راية القرآن : الطبعة الرابعة ١٩٥٦

٥ – وحي القلم : ثلاثة أجزاء : الطبعة الثامنة ، بيروت (تحقيق العريان)

٦ – ديوان الرافعي : ثلاثة أجزاء ، الأول طبعة ١٩٠٣ ، والثاني ١٩٠٤ والثالث ١٩٠٦

٧ – ديوان النظرات ، طبعة ١٩٠٨

ثانيا – أهم المراجع :

١ – الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر: الدكتور محمد محمد حسين ، طبعة ثانية ، القاهرة

٢ – أضواء على حياة الأدباء : أنور الجندي

٣ – الأعلام : خير الدين الزركلي ، طبعة ثالثة ، بيروت

٤ – الرافعي وميّ : عبد السلام هاشم حافظ ، المؤسسة المصرية للتأليف

٥ – ترجمة الإمام عبد القادر الرافعي : محمد رشيد الرافعي

٦ — حديث الأربعاء : الدكتور طه حسين
٧ — حياة الرافعي : محمد سعيد العريان ، طبعة ثالثة
٨ — حياة محمد : الدكتور محمد حسين هيكل
٩ — ديوان حافظ ابراهيم : طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر
١٠ — ذكرى أمين الرافعي : محمد صادق عنبر
١١ — رسائل الرافعي : محمود أبو رية
١٢ — الساعات الأخيرة في حياتهم : أنور الجندي
١٣ — الشوقيات : ديوان أحمد شوقي
١٤ — على هامش السيرة : مقدمة الجزء الأول : للدكتور طه حسين
١٥ — في الأدب الحديث : عمر الدسوقي
١٦ — في الشعر الجاهلي : الدكتور طه حسين
١٧ — في منزل الوحي : الدكتور محمد حسين هيكل
١٨ — مستقبل الثقافة في مصر : الدكتور طه حسين
١٩ — مصطفى صادق الرافعي : الدكتور كمال نشأت (سلسلة أعلام العرب)
٢٠ — المعارك الأدبية : أنور الجندي
٢١ — معجم المؤلفين : عمر رضا كحالة
٢٢ — نساء في حياتهم : أنور الجندي
٢٣ — النكير على منكري النعمة من الدين والخلافة والأمة ، لشيخ الإسلام مصطفى صبري
٢٤ — اليوم والغد : سلامة موسى

ثالثاً — الصحف والمجلات

١ — جريدة السياسة الأسبوعية : أعداد مختلفة سنة ١٩٢٦ وسنة ١٩٣٠
٢ — مجلة المقتطف : أعداد مختلفة في نفس الفترة
٣ — مجلة الهلال : أعدد مختلفة سنوات ١٩٢١ ، ١٩٢٦ ، ١٩٣٦ ، ١٩٤٣
٤ — مجلة الرسالة : أعداد مختلفة

Actually he was the first one amongst his colleagues to join the caravan of light and faith. In his book "In the Land of Inspiration" he said, "This book is not one of the references of the Islamic history, but it represents certain stands which I had in the holy land of inspiration, where I was inspired by the stands of Mohammad Ibn Abdellaah the prophet and messenger of God. There, in that situation I stripped my self spiritually, heard my soul, folded back the centuries and times. I began to observe that generous prophet and the Moslems around him".

"I was asking for mercy and relief hoping to share them whith my brothers, those who believe in God, prophets and holy books. I did not stick in these stands to anything except the book of God".

And so Al-Rafi'i had affered a great favour to the writers of his time, as he was the main reason for their coming back to truthful faith participating in Islamic writing. However, M. S. Al-Rafi'i was a servant and perpetrator of the Islamic thought, a pioneer in the field of Arabic classical clear writing and a good defender of both of them, carrying their banner high in the sky.

MOSTAFA AL-SHAK'A

Haykal as the editor of Al-Seyassa magazine (a leading political literary weekly magazine) preached atheism some times and pharaonism at other times. Every one of those whom we mentioned above adopted a particular stand against Islam in the period of time when Al-Rafi'i was carrying the banner defending the Islamic faith and the religious values.

What makes us extremely amazed is the fact that those figures became good believers under Al-Rafi'i's influence directly or indirectly.

They started to write about Islam, its greatness, dignity, leaders and history.

For instance, Taha Hussein edited " The Just Promise (الوعد الحق), On the "Outline of The Prophet's Life" (على هامش السيرة), "The Two Caliphs" (الشيخان) and "The Mirror of Islam" (مرآة الإسلام). Al-'Akkad wrote so many books in that respect such as "Allah" (الله), "Virtues of Islam and the Falsehoods of its Rivals" (حقائق الإسلام وأباطيل خصومه), " What has been Said About Islam" (ما يقال عن الاسلام) and The many " Books of Geniuses" (العبقريات). Haykal wrote four big Islamic books; "In the Land of Inspiration " (في منزل الوحي), the " Life of Mohammad " (حياة محمد), Al-Seddique Abou Bakr and Al-Farouk 'Omar.

All those eminent learned figures provided the Arabic library with a flood of magnificent collection of remarkable books in the field of Islamic Thought and Moslem Religion.

Obviously it was natural that we have to write a chapter dealing with this formidable phenomenon. We selected an example amongst those figures, following up the development of his thinking beginning with atheism and ending with firm faith. That example which we selected is Dr. M. H. Haykal (دكتور محمد حسين هيكل) as an atheist, enthusiastic to pharaonism and eventually as a good Moslem, Dr. Haykal became a good believer who preached Islamic values.

'Amr Ibn Al-'Ass's conquest to Egypt. The story says that princess Armanossa — the daughter of Al-Mokawkas (المقوقس) of Egypt fell a hostage in the hands of the Moslem army. But the leader 'Amr Ibn Al-'Ass sent her back to her father respectfully under the guard and protection of one of the Moslem army leaders.

Al-Rafi'i creates throughout the essay a number of attitudes through which he shows the tolerance and the purity of Islam.He clarified the tolerant position of Islam towards women, the philosophy of the Islamic conquest and the simplicity of the Islamic rites. And so he discusses the principle of the Islamic conquests in its sublime form refuting the false claim which some people exploited against Islam [1].

The fifth and last chapter of this work has been devoted to Al-Rafi'i Islamic influence upon the writers of his time. The period of time through which Al-Rafi'i lived was full of famous writers and eminent thinkers such as Taha Hussein, 'Abbas Al-'Akkad, Mansour Fafmy, Mohammad Husseir Haykal, Ahmad Lotfy Assayed and some others. Most of those writers were preaching atheism and working against the Islamic thought. This work took into consideration the early stand of Al-'Akkad toward the miraculousness of Koran. This stand created a heated controversy between him and Al-Rafi'i.

It also tackled the bitter debate between Al-Rafi'i and Taha Hussein because of the latter's stand towards the virtues of the Holy Koran.

What has been said about Taha Hussein and about Al-'Akkad could also be said in one way or another about M. H. Haykal.

---

(١) انظر مقال : ,,اليامتان،، : وحي القلم ١/ ١٧

human being extended by his beneficial principles and his social status in his nation. He is not that narrow minded, and self-centered person. The moslem in his sincere social relations towards others, is like a merchant dealing with another merchant; honesty tells both of them "your measuring has no value unless it is exact and true to all".

Within the field of literature of belief, Al-Rafi'i speaks again about fasting and how it takes man far away from his own selfishness. Al-Rafi'i creates in his essay on fasting a bridge to ideal socialism, that socialism which is mixed with spiritual values and not that contemporary, social, materialistic socialism. Al-Rafi'i means that socialism which ties up all the human beings each with one another by love, peace and safety, and not that one which disunites them and plants hatred and spitefulness in their society.[1].

Two of the interesting essays that were written by Al-Rafi'i in the field of the Literature of Belief are his two essays "The Koran of Dawn" (قرآن الفجر) and "The Two Stock Doves" (اليمامتان). In his essay "the Koran of Dawn" Al-Rafi'i describes a Koran reciter (مقرىء) reciting the Holy Koran in the mosque before the dawn prayer. Al-Rafi'i describes the atmosphere of sacredness that dominated the mosque itself at that early time in the morning. He takes the reader on to a sacred travel from the world of materialism to the atmosphere of spiritualism, and from the atmosphere of this world to the atmosphere of paradise[2].

Al-Rafi'i in his essay "The Two Stock Doves" presents to us a perfect model of what the literature of belief could be. He obtained the material of his essay which he wrote in the frame of a story drawn from the Islamic history during

(١) انظر مقال : شهر الثورة : وحي القلم ٢/ ٧١
(٢) انظر مقال : قرآن الفجر : وحي القلم ٣/ ٣١

code, exploring what so many people ignored. He also explained the sides of its foundation and the sublimity of its philosophy.

In that respect Al-Rafi'i tried to point out the eloquence and wisdom of the prophet[1] — that wisdom which the moslems followed and grasped. Consequently they spread through out the lands with the power of their belief not with the edge of the sword. Al-Rafi'i's essays did not lie only within the belief of the message and messenger, but he highly admired the prophet's greatness. We must also say that the prophet initiated and represented freedom in its most proper way.

He stood against those who exploited freedom by raising false slogans. Actually they were ruiners and not less than destroyers.

Al-Rafi'i repeated these sayings of the prophet, one of which could be summarised as follows, : "Some people rode a boat. Each one of them had his own place. One of them dug under his feet with an axe. The group said : "what are you doing ?" "It is my place" said the man "I have the right to do what ever I want in it". If they stop the man, he would be safe as well as the group. If they leave him digging, he would drown together with the group."

In another part of his essays Al-Rafi'i presented a wonderful definition of Islam and Moslems [2].

He spoke about praying and its philosophy as one of the pillars of Islam. In his essay he attracted the reader to praying, if not to Islam itself. He presented an attractive description of the moslem, saying "the moslem is an extended

(١) انظر مقال : السمو الروحي الأعظم : وحي القلم ٢/٣

(٢) انظر مقال : حقيقة المسلم ، وحي القلم ٢/١١

He also explained to them that if the nation's religion is spoiled as well as its behaviour, the entire nation will fall apart. When it does, it shall lose all the factors of life, solidarity and independence. [1]

One of the Egyptian writers (Salama Moussa) was well known for his hatred towards Islamic values. He also called for equality between men and women in inheritance. Al-Rafi'i replied to Moussa's pretensions. He pulled the carpet from underneath his assumptions, proving by social measures and logical reasons that the real equality lies in the way of inheritance that was brought by the Islamic Code. [2]

Some of the enemies of Islam tried to make of the wives of the prophet an object of attack on the prophet himself. Al-Rafi'i stood up to them presenting an objective research which proved their ignorance and revealed their bias against the religion of Islam and the prophet of Islam. [3]

Al-Rafi'i had so many stands defending Islam and the Koran against those who tried to create some sort of doubt about the miraculousness of Koran.[4] He defeated them by his genuine way of debating and his powerful proofs that put him in the high position as a scholar of argumentative literature in our time.

The fourth section of this chapter was put under the title of "Literature of Belief" (أدب العقيدة).

Al-Rafi'i, as mentioned before, is one of these few contemporary writers who understood Islam in a correct and adequate way. He actually dived into the depth of Islamic

(١) انظر مقال : اللغة والدين والعادات : وحي القلم ٢/٣٥

(٢) انظر مقال : المرأة والميراث ٣/٤٠٨

(٣) انظر مقال : درس من النبوة : وحي القلم ٣/٤٦٣

(٤) انظر مقال : كلمة مؤمنة في رد كلمة كافرة : وحي القلم ٣/٤٦٣

and created their state, he was so far-sighted to predict that situation.

Al-Rafi'i considered that question as an Arabic Islamic problem. He wrote more than one essay in that respect [1], predicting all that happened later. He warned the Arabs of the many errors that may be committed in treating the problem.

As to politics, Al-Rafi'i had a certain point of view with regard to the Arab unity. He preached it before the Arab unity had its contemporary definition [2].

As a moslem thinker he adopted the principle of "Islamic unity on the Arab Land". He was inspired by the Koranic verse, "Believers are but Brethern" (انما المؤمنون اخوة). As he looked through the past of the Arabs, he found that the word of the law was always sacred, also the spirit of justice was applied and the democratic government was maintained in the best manner. All these meanings and principles had been upheld by the Arabs before democracy was known in its modern understanding.

The third section of this chapter is put under the title of "Debate and Argument" (أدب المحاجة والجدل). Al Rafi'i was very convincing at argument. This is because he was well educated, deeply religious, widely cultured and morally bound. More over, he could defeat any person who tries to preach new immoral ideas or corrupt principles. He stood up to a powerful group of writers.

That group was plotting to deface the Arabic language, Islam and our habits and traditions. Al-Rafi'i was able to prove to them all that power in the language would give power to the nation and vice versa.

---

(١) راجع مقالتيه : يا شباب العرب في وحي القلم ٢/٢٤٩، أيها المسلمون ٢/٢٦٠

(٢) راجع مقال : نهضة الأقطار الإسلامية في وحي القلم ٣/١٩٨

We put the second section of this chapter under the title of "Islamic Political Writing" (ادب السياسة الاسلامي). In this section we mentioned the dangerous role that the Turkish Donma Party (الدونمه) played.

That party was out to destroy the Ottoman Caliphate in order to create Israel. Inspite of the Ottoman Caliphate's weakness and corruption, it resisted the idea of having an intruding nation put in the Caliphate's lands.

At that time Palestine was a part of the Caliphate's lands. When Mostafa Kamal (known as Ataturk) started his Coup d'Etat, every one was glad. Turks, Arabs, and Moslems thought that this so-called revolution would be for the general welfare of the public. But every one was disappointed when Mostafa Kamal attacked Islam for the benefit of the Jewish Donma and Masonary groups.

There was never an attack of this kind aimed at Islam in its history. This incident made tbe poets and on top of them Ahmad Shawki, Hafez Ibrahim and Ahmad Moharam write long poems attacking Ataturk and expressing their regret and sadness towards the departed Caliphate. During this severe struggle Al-Rafi'i contributed bravely with his pen. He wrote his essays which are considered as the masterpeices of the political Islamic writings [1]. Al-Rafi'i attacked Ataturk with powerful severity, he put him in his right position. That is, he proved to the general opinion that Ataturk is an agent working for the international Zionist movement and that he is not a true leader.

Al-Rafi'i also wrote some political Islamic writings about the Palestinian problem before his death. Even though Al-Rafi'i passed away eleven years before the Jews occupied Palestine

(1) راجع مقالتيه : تاريخ يتكلم في وحي القلم ٢/٢٧/١٢ ، سر القبعة ٢/٣٢٢

devout community as that of Egypt. In the many essays that were gathered in the book entitled "Under the Banner of Koran" Al-Rafi'i was deeply convincing. By this tactful way Al-Rafi'i drove Taha Hussein to trial. A committee was set up from a number of religious experts from Al-Azhar that accused him of attacking Islam. Taha Hussein was cross-examined by the Attorney General and had to announce his repentence and his becoming a moslem that believes in God, his Books and Messengers. After the crisis was moved from the literary field to the sphere of politics, the Egyptian Cabinet, at that time was seriously shaken and almost fell from power.

There is no doubt that Al-Rafi'i's book "Under the Banner of Koran" has put him on such a high pedestal that allowed him to carry the title of the first Islamic Writer. Furthermore, he became the leader of the conservative school not only amidst his own generation but the generations to come.

We dedicated the fourth chapter of our book for Al-Rafi'i's literary Islamic Essay.

Al-Rafi'i left us hundreds of essays in Literature, Criticism, History, Sociology, Philosophy, Civilization and Islamic Thought. He also wrote his magnificent book "Glimses of Inspiration" (وحي القلم) which is divided into three volumes. The first section had the title of "The Islamic Content in Al-Rafi'i's Essay" (المضمون الاسلامي في المقالة الرافعية). By these essays, Al-Rafi'i was able to make the contemporary man assimilate and understand many Islamic facts clearly. In other words, we may say that Al-Rafi'i used to treat certain problems with great care. He used to solve these problems by sensible persuasions and a clear conscience using the delicate style of a thinker. This is why Al-Rafi'i's essays are considered as a kind of elegant religious literature. [1]

---

(1) راجع مقالاته : الإشراق الإلهي في وحي القلم ٢/ ٣ ، سمو الفقر في المصلح الاجتماعي الأعظم ٢/٨ ٤ ، الإسراء والمعراج ٢/٣١، وحي الهجرة ٢/١٧

The fourth part of this chapter is the most important of all. It also deals with the roughest part of the debate between Al-Rafi'i and Taha Hussein about the book of the Dgahelite Poetry.

It has been mentioned before that the debate was because of Taha Hussein's continuing insults to the holiness of Koran. A great many writers, thinkers, writers and Azhar Sheikhs slashed Taha Hussein violently. They had many strong reasons and causes to attack him and they faced him with many powerful convincing facts. Such people were like Judge 'Abbass Fadly (عباس فضلي) and the famous lawyer Mohammad Lotfi Gom'a (محمد لطفي جمعة). Also prominent among the thinkers there were Mohammad Fareed Wagdi (محمد فريد وجدي) ; and Emir Shakeeb Arslan (الأمير شكيب أرسلان).

Again there was Mohammad Al-Ghamrawy (الغمراوي) who was a Doctor of science and finally the Sheikhs Mohammad Al-Khidr Hussein, Mohammad Al-Khodary and Mohammad 'Arafa who are all Azhar Sheikhs. Each and every one of those men represents his own way of thinking in his field of specialization. All these men contributed towards refuting Taha Hussein's remarks with an essay, article or a long research.

As to M. S. Al-Rafi'i himself, he was the leader of the group that conducted the fierce campaign against Taha Hussein. He directed more than twenty essays at Taha Hussein, full of sarcasm and mocking his theory on Dgahelite Poetry. He also used a violent style in attacking Taha Hussein's literary and academic way. Again he deliberately used the allegorical style and imitated the way of writing of the "Kallila Wa Dimna" (كليلة ودمنة) and kept pouring his thoughts and implications against Taha Hussein in the contents of the story.

As we previously said, Taha Hussein was too rash in attacking Koran and detracting from its value. He was also a daring person to attack the facts of the Koran in such a

called modern trend or classical trend in the Arabic way of writing. He was convinced that literature evolves and becomes modernised. This also applies to other languages and in other periods of time.

He accused the so-called modernisers of weakening the language, style and pronounciation. They also made use of colloqial as well as foreign words in their writings. Further more, they used to try to corrupt and ruin people's beliefs and traditions in order to obtain fame and glory without exerting any effort.

Some of them even tried to adopt the Latin letters for the Arabic Script.

The third part of this chapter is considered as the beginning of the violent wave in the famous debate on Dgahelite Poetry.

It happened that professor Dr. Taha Hussein was giving lectures in the Egyptian University (now Cairo University) to the students about Dgahilite Poetry. In the lectures he mentioned some of his personal points of view at that time, that the Egyptian conservative community did not accept. We might also say that the Arab's way of thinking is completely against such remarks. He did not stop at that limit, but went so far as to attack the Holy Koran and tried to throw doubt on its Holiness. Those lectures provoked and upset many thinkers. Such people rushed to the defense of the Koran and answered all the issues raised by Dr. Taha Hussein. Dr. Taha Hussein went so far in attacking Islam, that the Moslem leaders and rulers quitted the publishing of non-Moslem poetry. He also did not or could not present a historical evidence for his thoughts but he relied on his suppositions and deductions. That deficiency consolidated the stand of his apponents who challenged him to submit any solid proof based on theoritical or historical researches.

long research on Koranic Instruction showing its relationship with the behavior of the individual in the community, divine and civil laws and the foundations of Ethics.

"The Miraculousness of Koran" is a profound study which can't be appreciated except by those who are endowed with Rafi'is talent, inspiration and enthusiasm.

Then we come to the third chapter of the book entitled "The Critical Controversy" (معركة النقد), which tackles, "Under the Banner of Koran" (تحت راية القرآن).

This book contains the articles Al-Rafi'i wrote when he struggled fiercely against those who were trying to innovate in the field of Arabic Literature.

But his main opponant was Dr. Taha Hussein (دكتور طه حسين) especially after the many conflicts he had mentioned in his book "About Dgahilite Poetry" (في الشعر الجاهلي).

This chapter of our book is composed of four parts :

The first part is an introduction to the book and it contains a large number of Al-Rafi'i's articles concerning the battle that lasted for eighteen years against those who tried to get at and offend the Arabic language and its literature. He also contended with those who used to attack the sacred Islamic doctrines included in the Holy Koran. In that respect we stated that Al-Rafi'i represented an eminent school of criticism in his time. But that school used to express its points of view in drastic and sarcastic forms. We also might say that both parties used to exchange these expressive ways of writing.

In the second part of this chapter Al-Rafi'i gives his opinion of the new colloquial school and its founders. The public opinion hailed Al-Rafi'i as the leader of the classical school in literature. But Al-Rafi'i did not admit what was

The second chapter deals with his two books " The History of The Arabic Literature" (تاريخ آداب العرب) ; and " The Miraculousness of Koran " (إعجاز القرآن)

In the first book Al-Rafi'i spent quite a lot of time and energy because no book of its kind could be compared with such a perfect and excellent work.

May be he was aiming at something else, namely it could give him a prominent support for teaching Arabic Literature in the Egyptian University which was founded at that time.

Al-Rafi'i wrote his book and divided it into three volumes. His aim was to exalt the Arabic language. He also tried to check the superficial writers and poets from abusing the language. When the first edition of the book came out the readers welcomed it because of what the book represented and the problems the book brought up and skilfully solved.

We would not be exaggerating if we say that Al-Rafi'i's book has not been surpassed in the course of the last sixty years.

The second volume of the book deals with the Miraculousness of Koran. The book became extremely popular and was greatly appreciated. It was valued even more than the first, and many Islamic and non-Islamic thinkers and literary men praised and admired the book tremendously.

The book was so popular, valuable and appealing that king Fouad of Egypt published the second edition at his own expense. The book deals with many aspects, significant of which is its reflection of the Arab Spirit.

In his book he also compared the Bible, the Gospel and the Koran. He also presents a study of the various Arabic dialectical reciters of the Koran. Finally he wrote a

career in writing by saying : « The sacred goal towards which I look for in literature is the oriental soul in its religion and virtues. I write only what keeps it alive, elongate its life and sacred goal, and also its purposes in life. That is why I do not deal except with the sublime branch of literature. Sometimes, I imagine that I am a linguistic messenger, sent for defending the Koran, its language and its eloquence. I am always in arms ready to defend the Koran and its language. I also know its contents, the dates of its victories and defeats."

This quotation shows us the cause Al-Rafi'i adopted to defend the Arabic Language, Islamic Belief and the way he ensured their protection against the many envious and misled attackers. He kept holding on the banner until the last day of his life in May 1937.

Therefore, particular care and special attitude are necessary for a proper understanding of his writings ; this is because of his high-brow style of writing.

Studying his literature needs honesty, perseverance and impartiality. Certain people are prejudiced against him because of his toughest battle against some of our present famous men of letters who passed away and those who are still alive whom we highly respect, value and honour, inspite of their stands in the past. But now they freed themselves from such stands and straightened out their past ideas with modern and more sensible ones, that go along with reason and justice.

This Book is written about the great Arab writer and Islamic thinker M. S. Al-Rafi'i, and has been divided into five chapters.

The first chapter is devoted for the study of his character, knowledge, family history and certain currents in literature and idealism which took place in his time in the afore mentioned pages.

Moreover Al-Rafi'i was the author of the famous Egyptian national anthens, which are still sung up to this time on national occasions.

Al Rafi'i spent his life confronting those who were conspiring against the Arabic Language. They were trying to replace the classical language by colloqial language and the Arabic letters by Latin ones. He also struggled against those who were trying to reduce the sacred value of Islam and those who were enthusiastic in relating Egypt to the Pharoes or make Egypt lose its Arabism. All those people made a powerful front which was divided into two groups.

The first group was to attack the Islamic values and it consists of : Taha Hussein (طه حسين) ; 'Abbass Al-'Akkad (عباس العقاد) ; Mahmoud 'Azmy (محمود عزمي), Salama Moussa (سلامة موسى) and a few misled and conceited persons who imagined that they could seek fame and glory through attacking Islam.

As to the second groups, it included Ahmad Lotfy Al-Sayyed (أحمد لطفي السيد) ; Salama Moussa (سلامة موسى), and a few of the English occupiers such as Judge Wilmoor and Engineer Welcocks.

Al-Rafi'i used to regard those repeated attacks on Islam as a plot to undermind the very existance of the whole Arab nation. That was why he fought bravely and patrioticly against the above mentioned authors.

He also won the Islamic and Arabic opinion, and his name became very famous, especially in this particular field. Also his name became equivalent to "Eloquent Struggle"(الجهادالبياني) and Islamic Idealism.

After a long and daring struggle Al-Rafi'i became the leading figure in the literary circles of the Arab World and the chief defender of Islamic principles. He expressed his

As for the Egyptian Rafi'is; the most outstanding figures was our Mostafa Sadek Al-Rafi'i the writer, the poet and the Islamic thinker.

There are important facts in Al-Rafi'i life that should not be over looked in studying his character and personality.

Al-Rafi'i didn't receive a higher education, he was a mere clerk in Tanta Law Court, and he didn't live in the capital like other poets and writers. Besides, he was not able to hear very well, he was almost deaf; yet he acquired wide learning and self education.

His book "The History of Arabic Literature" (تاريخ آداب العرب) is one of the most valuable study on the subject.

Again in the religious field he wrote two religious books "The Miraculousness of Koran", (إعجاز القرآن) and "Under the Banner of Koran" (تحت راية القرآن). In addition he wrote a series of articles which were later gathered in three volumes under the tittle "Glimpses of Inspiration" (وحي القلم).

Moreover, he wrote a series of articles in the critical studies such as "On the Rack" (على السّفود).

Al-Rafi'i is the author of a number of romantic writings such as "The Red Clouds" (السحاب الأحمر) "Rose Leaves" (أوراق الورد) "The Moon's Talk" (حديث القمر) and "The Poor" (المساكين)

He started his literary career by writing poetry which was inspiring, expressive, suggestive and evokative. If he had not embarked upon other germs of literary writings, he would have become one of the greatest Arab poets ever known. However, he left as quite a few anthologies which contain some masterpieces in poetry. He wrote about, love, social life, and philosphic ideals.

Mostafa Sadek Al-Rafi'i is one of the eminent figures in modern Arabic Literature. He is also one of the most remarkable writers who first initiated the Islamic thought among the modern Arabic men of letters.

Al-Rafi'i didn't receive due attention and proper study, a man of his caliber deserves. There are many causes which led to this ; most prominent was the fact that he appeared in the literary horizon in the midst of a galaxy of eminent writers such as :

'Abbas Al-'Akkad (عباس العقاد) Ahmad Lotfy Al-Sayed (أحمد لطفي السيد) Salama Moussa (سلامة موسى) Taha Hussein (طه حسين) and many others.

Al-Rafi'i clashed with all those great figures and he overcame them in more than one battle. That was mainly why many researchers didn't study his literary and cultural trends because they didn't want to provoke the anger of the above mentioned figures.

But academic and objective study tries to put Al-Rafi'i in his real perspective as one of the leading men of letters.

His family included many notable figures in the fields of Islamic studies, politics, literature and Jurisprudence.

Many members of his family worked as Islamic Judges in many Arab countries such as Lebanon, Yemen and Egypt.

This scared Lord Cromer the leading British imperialist in the M. E. at the time. His father Al-Sheikh Abd-Al-Razak Al-Rafi'i (الشيخ عبد الرزاق الرافعي) was a noted Islamic judge.

In Lebanon, there lived the poet Abd-Al-Hameed Al-Rafi'i (عبد الحميد بن عبد الغني الرافعي) who also was known as the nightingale of Syria by virtue of the charming music of his verse ; even the poet laureate Ahmed Shawki (أحمد شوقي) paid tribute to him when he became seventy years old.

Alam Al Koutob
Beirut

Al Moutanaby Library
Cairo

MOSTAFA SADEK AL-RAFI'I

AN ARAB WRITER & MOSLEM THINKER

BY

Dr. MOSTAFA M. AL-SHAK'A
Ex-Dean and Professor of Literature
Ain-Shams University

1978

In the Name of God,

Most Gracious, Most Merciful


Bibliotheca Alexandrina
06352221